٣

دورية دراسات المرأة

مجزرة دير ياسين: شهادات من شهدوا المجزرة

فيحاء عبد الهادي

المرأة القروية وتهجير عام ١٩٤٨

ربيحة علان علان

دور النساء في التكيف بعيد النكبة

حسين مغامس، فضل الخالدي، رنده ناصر

النساء وانتخابات المجالس المحلية

نادية حجل - بقلة

حول التكافل الرسمي مع أسر زوجات الشهداء

حنان محمد ذيب معدي

المرأة وحياة اللهو عند العرب قبل الإسلام

خليل عثامنة

قصة شابتين

أميرة سلمي

"باب الشمس" رؤية نسوية

رولا أبو دحو

جامعة بيرزيت
BIRZEIT UNIVERSITY

معهد دراسات المرأة

دورية دراسات المرأة

المجلد 3 ◆ 2005

دورية سنوية لدراسات المرأة
والنوع الاجتماعي

معهد دراسات المرأة

جامعة بيرزيت

المحرران:
جميل هلال (بالعربية)
بني جونسون (بالانجليزية)

حقوق الطبع محفوظة لمعهد دراسات المرأة

منشورات معهد دراسات المرأة، عام ٢٠٠٥.
صندوق بريد: ١٤، بيرزيت، فلسطين.
تلفون: ٢٩٨٢٩٥٩ - ٠٢
فاكس: ٢٩٨٢٩٥٨ - ٠٢

للمزيد من المعلومات:
http://home.birzeit.edu/wsi

ISBN 9950 - 322 - 02 - 2

االسعر:
٢٠ شيقلاً (محلياً)
٨ دولارات (دولياً)

تصميم: Palitra Graphic Design
طباعة: ستوديو ألفا

قائمة المحتويات

مقدمة 5

مقالات

مجزرة دير ياسين: شهادات من شهدوا المجزرة 8
فيحاء عبد الهادي

شهادات عن تعامل المرأة القروية مع التهجير خلال العام ١٩٤٨ 21
ربيحة علان علان

التكيف والبقاء في السنوات الأولى بعد التهجير: دور النساء 44
حالة دراسية: مخيم الجلزون
حسين مغامس، فضل الخالدي، رنده ناصر

النساء وانتخابات المجالس المحلية 59
نادية حجل - بقلة

حول التكافل الرسمي مع أسر زوجات الشهداء 88
حنان محمد ذيب معدي

المرأة وحياة اللهو عند العرب قبل الإسلام: الجواري وتجارة الجنس 106
خليل عثامنة

قصة شابتين 115
أميرة سلمي

"باب الشمس" رؤية نسوية 132
رولا أبو دحو

يمكن إيجاد محتويات هذا العدد باللغة الانجليزية في بداية الجزء الانجليزي

مقدمة

هذا هو العدد الثالث من دورية **دراسات المرأة** التي يصدرها معهد دراسات المرأة في جامعة بيرزيت. ويضم العدد أبحاثاً وكتابات حديثة لأساتذة المعهد وباحثيه وخريجيه، كما يضم دراسات أخرى مهمة تفتح آفاقاً جديدة لباحثين في فلسطين وخارجها، وتساهم في تعميق فهم علاقات النوع الاجتماعي في المجتمع الفلسطيني في مجالات مختلفة من العلوم الاجتماعية. وننشر في هذا العدد دراسات حديثة لباحثين دوليين، هم: د. إدوارد كونت، ود. لين ولشمان، والمحامية سارة حسين. كما ننشر مساهمات من باحثين معروفين في فلسطين، هما الأستاذ خليل عثامنة، ود. فيحاء عبد الهادي.

تتصل أحد الموضوعات الرئيسة التي يتناولها هذا العدد بأبحاث تقدم مقاربات ومواد جديدة للنوع الاجتماعي وللتاريخ الفلسطيني، وهو ما نجده في المقالات التالية: مقال إصلاح جاد عن النوع الاجتماعي، والاستعمار والحركة الوطنية خلال فترة الانتداب البريطاني، ومقال خليل عثامنة عن الجواري وتجارة الجنس عند العرب قبل الإسلام، ومقال فيحاء عبد الهادي عن تذكر مجزرة دير ياسين، ومقال ربيحة علان علان عن دور المرأة القروية في نكبة العام ١٩٤٨، ومقال رندة ناصر وزميليها عن دور المرأة الفلسطينية خلال السنوات الأولى من الهجرة بعد النكبة. وتستخدم الأبحاث الثلاثة الأخيرة الشهادات الشفوية لرسم التاريخ من تجربة الناس العاديين ورؤيتهم، وفهم كيف تصنع النشاطات اليومية التاريخ. وهو موضوع تلتقطه، من مدخل ثقافي، مراجعة أبو دحو الأولوية لراوية وفيلم "باب الشمس" اللذين يستكشفان حياة الفلسطينيين العادية في ظل الظروف غير العادية للنكبة والمنفى.

هذا الفهم ذاته يوجه البحث الإثنوغرافي عن الأزمة الحالية، فنجد لميس أبو نحلة تستخدم الراوية السردية لاستكشاف التحولات في علاقات النوع الاجتماعي بين أفراد أسرة في منطقة رام الله التي ولدتها كل من الأزمة الاقتصادية المتصلة بالانتفاضة، ووفاة رب الأسرة وكبيرها. ونجده في استكشاف أميرة سلمي لحياة ورؤى شابتين قدمتا إلى رام الله بحثاً عن العمل في الظروف الصعبة للانتفاضة الثانية. وتكتشف مراجعة جونسون للأدبيات عن الأسرة في ظل الحروب ثغرة تسعى بعض أبحاث معهد دراسات المرأة إلى سدها. ويتفحص تحليل لمسح – مشتق من بحث جار يقوم به المعهد لثلاثة مجتمعات محلية في منطقة رام الله – الأسر المعيشية في مخيم الأمعري، بالمقارنة مع جواره محدداً ما هو متباين، وما هو مشترك.

وتكشف مساهمة إدوارد كونت علاقة أخرى بين التحولات الاجتماعية والسياسية

والمادية. فهو يجادل بأن القيود القانونية الإسرائيلية الجديدة على الزواج والإقامة تشكل "جداراً آخر" يشبه من حيث الهدف الجدار المادي الذي تجري إقامته على قدم وساق فوق الأرض الفلسطينية، وما يترتب عليه من نتائج بشرية واقتصادية وسياسية كارثية. وتلقي المقدمة المهمة لولشمان وحسين لمجلد حول "جرائم الشرف" الضوء على ما يدور حوله، فلسطينياً، الآن جدل ونقاش عام. وتناقش ورقتان لخريجتين من خريجات المعهد موضوعات راهنية، وهما: ورقة حول المرأة وانتخابات المجالس المحلية (نادية حجل-بقلة)، والتكافل الرسمي مع أسر زوجات الشهداء (حنان معدي). وأخيراً يشتمل العدد الثالث على جزء من بحث حديث يتناول العلاقة بين النوع الاجتماعي والأوضاع السكنية يقوم به فريق من المعهد بقيادة أيلين كتاب، ويلقي الضوء على ساحة ذات أولوية في مجال التدخل السياساتي، والمبادرات التنموية والاقتصادية والقانونية الحساسة لاعتبارات النوع الاجتماعي. وننشر المواد هنا حسب اللغة التي كتبت فيها (عربي أو إنجليزي)، ومن هنا اختلافها في الجزء العربي من الدورية عن الجزء الإنجليزي.

نأمل أن يجد القارئ/القارئة في مواد هذا العدد أفكاراً جديدة وثاقبة ومشجعة على أبحاث جديدة. ويأمل المحرران والمعهد أن تساهم الدورية على حفز أبحاث جديدة حول موضوعات العدد، وعلى النقاش والجدل حول قضايا ملحة تواجه المجتمع الفلسطيني.

المحرران،

رام الله، تشرين الثاني، ٢٠٠٥.

مقالات

مجزرة دير ياسين: شهادات من شهدوا المجزرة

د. فيحاء عبد الهادي

احتلت مجزرة دير ياسين مكانة بارزة في ذاكرة الشعب الفلسطيني، وشكلت سبباً رئيساً للهجرة في العام ١٩٤٨ لدى بعض الناس، وسبباً دافعاً للهجرة لدى بعضهم الآخر. وقد ارتبط اسم قرية دير ياسين بالمذبحة، وبالفظائع التي ارتكبت فيها، وارتبط بالتهجير الذي تلا حدوث المذبحة. وعلى الرغم من أهمية التوثيق لمجزرة دير ياسين، وغيرها من المجازر؛ فإننا نحتاج قراءة أعمق لوقائع المجزرة؛ بعد الاستقصاء عن حقيقة ما حدث، يوم ٩ نيسان العام ١٩٤٨.

هل استسلم أهل القرية، حال دخول الجيش الإسرائيلي إليها؟ وهل تم اغتصاب العديد من نساء القرية وفتياتها؟ وهل بقرت بطون الحوامل كما سرت الشائعات؟ وإذا كانت تلك الروايات دقيقة؛ فهل حاول مرتكبوها إنكار حدوثها، كما هو متوقع؟ أم أنهم لم يعترفوا بحدوثها فحسب؛ بل حاولوا تضخيمها والإضافة إليها.[١] نحاول فهم الحدث، من خلال شهادة بعض الراويات والرواة الذين شهدوا المجزرة،[٢] أو سمعوا عنها، أو الرواة الذين هاجروا بسببها، ونتأمل المحكي، عبر اللغة المنطوقة، والمستتر، عبر لغة الجسد.

تتحدث الراوية لطيفة درباس (من بلعا)، عن المذبحة بقولها:

"دير ياسين؟! الناس طلعت أول إيش (شيء) همّه (هم) من الخوف، فيهم ناس خوف؛ لأنّه صار دير ياسين، شنّعوا بدير ياسين. شو عملوا؟ سوّوا (عملوا) بالنسوان، بالبنات، يبعطوا (يشقوا بطن) الحبلى، آه هونه (هنا) أهل شمال حيفا سقطت قبل الطيرة بثلث تشهر (ثلاثة أشهر)، آه، قبل الطيرة سقطت بثلث تشهر حيفا، وبقولك عاد لما طلعن هناك؛ صاروا يقلن: يا جماعة مهم بسوّوا بالنسوان، ارحلوا، رحلنا. جمعة (أسبوع) تاخدوش (لا تأخذوا) أواعي معكم، جمعة وبترجعن وطلعنا".[٣]

وتتحدث هدى حنا (سوريا)، عن الرعب الذي ألقته مذبحة دير ياسين، في قلوب الجميع:

"الخوف الحقيقة يعني ملأ الناس، لما تسمعي بالمجازر اللي صارت، وخصوصاً أول مذبحة اللي هي مذبحة دير ياسين. بصراحة، ألقت الرعب بقلوب الناس، خصوصاً إنه بأيام الإنكليز كانوا يمنعوا الشخص يحمل سكينة. الناس ما عندهم أسلحة تدافع عن نفسها.

ما كان إذا سكينة حتى لو سكينة مطبخ، كان يسجن عليها. فما مهيئة الناس. بعدين لما صارت الثورة، صاروا يشتروا بالسرقة يبعثوا على لبنان يجيبوا، في ناس كانوا يبيعوا لحافهن وفرشتهن ليشتروا بارودة، فالأسلحة، حتى اللي قدروا يجيبوا أسلحة، كانت عبارة عن بواريد، مو أكثر من هيك (ليس أكثر من ذلك). اليهود أخذوا أسلحة الجيش اللي كان، لما الجيش انسحب كل أسلحته وذخائره والثكنات تبعته، كلها أعطوها لليهود، يعني بريطانيا شاركت في إنه العرب ينكسروا. فما قدروا العرب، بالرغم من الثوار الموجودين، وبالرغم من الروح الثائرة عند كل الناس، ما قدروا يصدوا اليهود عنهن. فلما بتسمعي بأخبار المجازر وهالذبح وهالتشنيع وهالاغتصاب، وأشياء ما بيقدر يتصورها خيالك، إنه صار شي مثل هاللي صار".٤

وتتحدث الراوية أم كايد؛ عن الأحداث التي أثرت، على تغيير قرار الرجال بالبقاء في البلاد، وأساسها ما سمعوه عن أحداث دير ياسين:

"مذبحة دير ياسين قدامنا صارت. أسماء ناس لا. بس قالوا: عجّبوا في دير ياسين، ينيموا البنت قدام أخوها وقدام أمها وقدام أبوها، ويعملوا فيها ويقتلوها، ويقتلوا أخوتها. هيك سمعنا. بدريش هذا حكي واللا بس (هل هو مجرد كلام أم لا)؟! ماهم بعرفوا العرب مجانين، بخافوش على الأرض، قد ما بيخافوا على العرض. قالوا لك: نطلع، هالدعاية صدقيني. إتقابلت أنا وواحدة في القدس من دير ياسين. وحدثتني وقالت: يحرم عليها هالحكي اللي بتقولوا عنه هذا ما صار. أنا بقول لك قتلوا شباب، ذبحوهم على حضون أمياتهم، يحطوا الولد على حضن أمه ويذبحوه ذبح مش طخ، آه صار، أما البنات قالت لي لا. قلت إلها: ما أخذوهنش سبايا. ما هن عند اليهود مجوزات يهود، ومخلفات يهود يا بنت الحلال. قالت: أبداً، قلت لها: روحي إنت كذابة، طب ما جابوا أساميهن بالجرايد، إنهن أخذوهن اليهود وأخذوا الحلوة، الحلوة ينقوها ويوخذوها من دير ياسين، أخذوا بييجي ٢٠٠ بنت، اليهود. إحنا سمعنا في هالإشي، يطخونا في مرج عبيد، يقبروني العرب ولا يحتلوني اليهود، توخذونا زي بنات دير ياسين؟! هربنا (..)".٥

وتحدثنا الراوية زينب عقل، من شهود العيان على المجزرة، حول ما حدث في دير ياسين؛ ما يجعلنا نرسم صورة أكثر قرباً من حقيقة ما حدث، فالراوية هنا لا تتحدث عما سمعت؛ بل تتحدث عما عاشت وشهدت وخبرت بأم عينها. ومن الملاحظ أن الراوية تتحدث عن صمود القرية في وجه الصهاينة ومقاومتها الباسلة، قبل اقتحامها، وتهجير أهلها، وقبل ارتكاب المجزرة الوحشية، التي عرفت بأشهر مجزرة ارتكبها الصهاينة، في العام ١٩٤٨، ومن الملاحظ أيضاً أنها تتحدث بلغة الجمع؛ ما يعني اعتبارها للنساء شريكات للرجال في المقاومة:

"هجموا اليهود أول مرة ورديناهم، وثاني مرة رديناهم، والثالثة. المرة الرابعة سوّينا

جسر، طيّحنا (أنزلنا) مترين بالأرض، طريق بيننا وبينهم. قال: بنحسب يعيقهم إشي! أما شو سووا؟ أجوا خامس مرة خلونا نايمين بالليل، والساعة اثنين، يطلعوا هون بقوا على راس الجبل، طلعوا زي ما تقولوا من تحت البرندة، وطلعوا يحبوا بأيديهم ورجليهم، بعيد عنك زي الكلب اللي بحبي، والناس كلها نايمة. محمود أخوي من أبوي، كانت وظيفته يقف يراقب على حيط (سطح) دار أبوي، على ثالث طابق، شاف اليهود يطلعوا من تحت دار أبوي، لما وصلوا حاكورة دار أبوي باب الدار، دبّ الصوت، اخوي محمود قال: اليهود أخذتنا، ما حدا صدقه! قالوا: هذه الضربة منكم فيكم يا دار عقل، يعني إحنا دار عقل، واحد قال له: روح يا محمود، الله يجيبها بروسكم، هاي الضربة منكم فيكم، ما فش (لا يوجد) لا يهود ولا فيه بطيخ أصفر. واحدة لخره (أيضاً) اسمها صفية أحمد قالت: هيك هيك بروسكم، هذه الضربة منكم يا دار عقل، فش فش يهود (لا يوجد يهود). ما شافوا البعيدين إلا اليهود بخشوا علينا، ويطوقوا البلد ما يخلوا ولا باب مفتوح، اللي الواحد يهرب من هناك أو هان. بعدين بدوا فينا ذبح عن جنب وطرف. صاروا يخشوا عليهم بالدور ويقتلوهم. فيه واحد من بلدنا اسمه: مصطفى أبو عبد بقى زلمة (رجل) محترم وقد حاله، قال له محمود: يا اخوي اليهود أخذتنا. قال له: ما فش يهود. قال له: اتطلع اليهود وراك. يوم شاف اليهود وراه سحب حاله وأخذ مرته (زوجته) وشرد يتخبى (يختبئ) بدار بنته متزوجة على مصطفى علي، من عيله ثانية. اليهود شافوه ولحقوه، خشّوا (دخلوا) على دار مصطفى علي، مساكين، ذبحوا بنته وأسلافها وعائلاتهم وحماها وحماتها وهو ومرته اندبح معهم. حوالي ٢٠ نفر اندبحوا بدار مصطفى علي. قال زوجي: طلع ما الناش (ليس لنا) مناص، ما فيش باب نقدر نشرد منه، على شقه عين كارم. البلد خلص امتلت (امتلأت) يهود، وأنا البرودة معي خربت، ما فيش معانا حيلة. قالت له: آه والله افتح الشباك من غربا، لقيته مفتوح، وما فيه عليه حماية، اطلع أنت وأولادي وبناتي هالصغار، وروحوا على عين كارم، هيني (هاأنذا) وراكم. رجعت خالتي الحاجة زينب تطول قعقورة (جرّة) الذهب، وما قدرت تطولها قدام زلمتنا، من خوف ما يندل على المخبى. زلمتنا زي (مثل) ما تقولي طلع من الشباك، واليهود خشوا عليها من الباب من هان. ربك حميد هربوا أولادها، وطلعوا على شقة عين كارم،[٦] وهي جابوها أسيرة معانا. وأبو محمد زهران، يا ويلي عليه! عندهم شجرة توت، واقف تحت الشباك وتحت الشجرة، ويصيح ويقول: نجدة يا شباب نجدة! البلد صارت ملانة يهود، ما فش ولا عربي يفزع له. خشوا عليهم هجوم مرة واحدة. كانت معاهم بنت ابنه زينب، حامل بسبع أشهر، وكانت كنته اسمها: زينب من المالحة[٧] مالحية، حامل في ثمانية أشهر، حليمة يوسف ليلتها كانت مدشرة (تاركة) بنتها، وكنتها عند محمد زهران زوجها، وراحت نامت عند دار أبوها نازل شوية (قليلاً). هاي الولد عزيز، ولما جابونا اليهود أسرى قالت البعيدة: بدها تروح تشوف ابنها. عاد اليهود يقولوا:

وين بدك؟! علشان لما يلاقوك يذبحوك؟ أم عزيز خشت (دخلت) على دار محمد، دار أبو زوجها، ولاقت سلافتها[8] وسلافها كلهم مذبوحين –وعلى ذمتها– قالت: لقيت بنت سلفي وكنته الحبالى مبعطيتهم (باقرين بطونهم) اليهود، جينا احنا بقينا نايمين عند دار أبوي، وإلا اليهود طالعين بحاكورة دار أبوي عند الطّابون، وخشوا على الحمام الخارجي، قال أخوي موسى: هاي اليهود يا أختي صاروا في الحمام وباب الطّابون، أنا بقول: لا يا خوي، هذولا (هؤلاء) حسين وشاكر أولاد عمي، وهو يقول لي: والله يا أختي يهود. أنا من عمى البصر قلت: ما لحْقوش (لم يتمكنوا) يصيروا بدار أبوي. موسى ابن أبو سليم، سلف أختي، من دار جابر لخرى، لما بشوف اليهود؛ بشرد (يشرد) على دار سيده، بطلع الواد، بوصل بقلب حاكورة دار أبوي، زقطوه (أمسكوا به) اليهود، وضربوه كفوف على وجهه. ما هي الدنيا لساع (ما زالت) عتمة، الثاني حزين (مسكين) زي ما قلت أنا بحسبهم شاكر وحسين أولاد عمي، بقول لهم: ما أنا نسيبكم. عاد هم (اليهود) مش ساخيين يشدّوا الخط من خوف البلد تصح، بقوا يذبحوا ذبح، أو يضربوا ضرب. يقول لهم: أنا نسيبكم نسيبكم. يوم شاف زاد القتل عليه؛ عرف أنهم يهود. ما هو الحي حي والميت ميت. يا قدرة الله! فلت منهم وشرد، طلع عند دار سيده، شاف دار سيده شاردين على عين كارم، لحقهم على عين كارم. يوم شفتنا اليهود صاروا بقلب الحكومة، واقفين بالحمام تبعنا وبالطابون، أخوي موسى بده يهرب، من تعاسته راسي قربته فيه بيدي ورجلي، وقلت له: لأ يا أخوي لا تروح ولا تنقتل. وأنا اللي قتلني وأتعسني زلمتي، قال زلمتي قال لي إنه إن صار طخ حرب (إطلاق نار) وهجوم، ما تهربي من البيت، قال: اللي بظله بالدار ما بنقتل، اللي بطلع على الشارع بنقتل. ما بدري إنه اليهود تحتل البلد. قال: إن صار طخ وذبح ما تطلعي من الدار خليك متخبية بالدار إنت واولادك، وهالحين باجي (آتي) عليكم. وخذي هاي ٢٥٠ ليرة فلسطيني بهذاك الوقت. بقين يشترين أبو ديس[9] باللّي فيها. حطيتهم (النقود) في عبي زي الحجاب، حطيتهم بـــ هالخرقة، وربطتها، وعقدتهم بالدبوس. اليهود بنص الشارع، فتحوا البوابة اللي فيها الحلال تبع دار سيدي إسماعيل، هالنعاج والخرفان. قعدوا أخوتي يعيطوا (يبكون)، اليهود قالوا: افتخ (تقلدهم وتقصد افتح) باب، قال أخوي موسى: والله يا أختي إذا فتحت الباب لغير يفرمونا على المفرمة، ما تفتحي يا أختي الباب. قال: (اليهود) افتخ باب. قلنا له: مش فاتحين باب. قال بضرب ضرب في البيت. قال يم أخوي موسى: اضربوا يا كشل روسنا. والله ضربونا قنبلة من الشباك، اطلعت أنا بايدي ورجلي مصاوبة (مصابة)، وهاي إيدي لزقت في صدري، يا قتيل عدو إيدي. وبنتي لحمها مسقط، طلعت مصاوبة، والفستان خرقة عليها، والأولاد الصغار زي النمش طلع على وجوههم وعلى حالهم. الدار صارت دخنة زي الطابون، وقت راقت (وحتى هدأت) الحالة نزلوا الباب بالنص، وفتحوا الباب، وفاتوا علينا اطلعونا. زقطوا اخوي موسى وضربوه كفوف على وجهه، قال لي:

هالقيت (والآن) عندك يا أختي. قلت له: خذ يا خواجة هاي ٢٥٠ ليرة منشان الله، هذا طالب مدرسة، حرام عليك تقتله. أخذ المصاري (المال) مني وبطحه يم قدامي- يا ويلي عليه- وحط خمس رصاصات في رأسه، وقتله، (بكت الراوية) فتحت البير (البئر) بدي أدب حالي (أريد أن ألقي بنفسي) في البير، ما خلنيش (لم يسمحوا لي) اليهود أدب حالي في البير. قال لي: تعال يا بنت الكلب، والله من كثر ما بعيط (أبكي) صار عندي وجع براسي، اليوم قلبي انطفا، ما ظل عندي حشيشة قلب (نفذ صبري). مرة سيدي نظيرة، مع إنها مدنية ومغطية على وجهها، وتناول أبوي الفشكات (الطلقات)، وأبوي قتل القائد. اليهود قالوا: المدينية قتلت القائد، وعيّنوا عليها، ضربوا مدفع هاون، مرة أبوي زاحت رأسها، وأجت بأخوي محمود بشقة راسه".

"يوم أخذونا أسرى، وقتلوا أخوي موسى قدام عيني، عيني مش شايفة فيهن، ورجلي مرجرجين وإيدي مدبقة (ملتصقة) في صدري، زي ما تقولي حتى ما اعرف أطول ولساني مربوط في فمي زي ما تربطيه بخيط، لا عارفة أتحرك ولا عارفة أحكي يا حسيرتي! يوم صرت وراء دار عبد المجيد بالشارع، كنا بنطلع حوالي عشرين ثلاثين حرمة أسرى، وأخواتي وعماتي خوات أبوي معانا بالجملة، يوم شفت رحمة جميلة أختي تقول لي: مالك يا أختي؟ عاد غمرة الموت على وجهي، لو تذبحيني ما تطيح قطرة دم، وعيني مجللات ولساني مربوط بفمي، وحالتي حالة. وتقول لي: مالك يا أختي؟ بقيت بدي أقول لها: موسى انقتل، أقول: يا أخي مو مو موسى قتلوه اليهود (تتلعثم بالكلام). وإلاّ بتقول أختي جميلة: جزاها الله خير في قبرها، خيته (يا أختي) مليح اللي قتلوه قتل، لو شفت يا أختي هالشباب شو سووا فيهم! عجّبوا عليهم العجاب!".

"اربعين قرية احتلتها اليهود، من أثر مذبحة دير ياسين. الناس يخافوا ويهربوا من السمعة، وذبحوا والولايا (النساء) ويبعطوا الحبالى، هدولا يدشّروا مالهم وحلالهم ودورهم ويهربوا. يوم الخميس: اليهود احتلوا القسطل، وأجا عبد القادر رد القسطل من اليهود، وحط علامة النصر، جينا إحنا بعدها صرنا نرقص ونغني، والله رحمة أحمد على يوسف قال: ارقصن، والله قد ما غنيتم رايحين تعيطوا دموعكم دم، وزي ما قال صار، المرأة تحمل مخدة بدل الولد من الخوف، قال إحنا زي حبة الملبس في جيبة اليهود، وقت ما جاعوا بياكلونا وزيّ ما قال الزّلمة صار. دبّونا (وضعونا) في المصرارة وقت المغرب، واحنا طالعين مفرّعين (دون غطاء على الرّأس) وحافيين وحالتنا حالة، ولو تذبحينا ما تطيح منا نقطة دم، على كل حال هذيك الحين بقى فيه مسلمين، لاقونا يحطوا الحطة والعباية (العباءة) علينا، يعيطوا علينا دموع ودم. أخدونا وحطونا بالصلاحيّة، ما بعرف بالعمرية، حطونا، يشوفوا مين المصاوب، لاقوا البنت (مريم) مصاوبة، حطوها في الصحية التابعة للمفتي في المسكوبية،[١٠] وأنا لاقوني مصاوبة. بنتي في الغرفة الجوانية مش شايفيتها (لم أتمكن من

رؤيتها)، وأنا حطّوني في الغرفة البرانية. هالمصاوب أخذوه على المستشفى، واللي مش مصاوب خلوه قاعد. وهم يطيّحوني (ينزلوني) من الدرج، بحساب بدهم يعاودوني على بلدي، قلت: طنيب (أستجير بكم) ما تسلموني لليهود، طنيب عليكم، وأعيط! كل اللي هناك يعيطوا على عياطي. بقيت لسه صبية، بنت تسعة وعشرين سنة، وأنا تجوزت بنت ١٣ سنة إلا ثلاث أشهر. في المستشفى أنوح وأعيّط وأقول:

بقينا عرب وصحاب حارة أصبحنا طنايب مع اليهود يا خسارة (تنوح)
بقينا عرب وأصحاب دور أصبحنا طنايب مع الكفار.

وأعيّط وأقول:
يابا (يا أبي) صارت عليّ هدّه كزّيت (أرسلت) لابوي مدّة
مرسالك يا يابا طوّل عليّ
يا يابا امبارح (أمس) العصر صارت عليّ ضيقة كزّيت لأبوي صديقة
مرسالك يا يابا طوّل عليّ
وأعيط ...

"تيجي أكبر رئيسة بالمستشفى اسمها: الست رؤوفة، واقفة تحت رجلي، وكل ما تشوفني أعيط تقول لي: بس (يكفي) يا ست زينب بس. قلت لها: شو عرّفك باسمي؟! قالت: هيها مكتوب هانا اسمك. أجا رئيس البلدية واعبروني (أدخلوني) على الغرفة جوه، جابوا حطوا بالصحن فواكه وبسكوت من خيرات الله وأنا أنوح وأعيط. سمعتني بنتي مريم، وإلا هي جاي تحبي حبي وتعيط. يحكوا لها كلي كلي؛ لكن سبحان الله، بنتي اللي عمرها ٤ سنين، ولا رضيت تمد إيدها على فواكه، أو بسكوت. لسانّا مربوط في فمنا، ريقنا ناشف، مش جاي على بالنا نأكل، لو تدقوا اللقمة مثل ما تقول لي بمسمار؛ ما هي طايحة (نازلة)، ولا بنتي أكلت، ولا أنا أكلت. طلعوا يقولوا: هاي الولية المسكينة ريقها، وريق طفلتها ناشف، ما رضوا يأكلوا إشي. في المستشفى اللي طاب طاب، واللي مات مات. بعد ثلاث أيام، وإلاّ زلمتنا قعد يسأل: ما شفتوش (هل رايتم) عيالي؟ وقالوا له: بالمستشفى، وإلاّ هو جاي".

"بعدين والا بقولوا: اليهود هجمت على باب الجديد، اللي فيه مروّة (قوّة) يهرب. هربنا على أبو ديس، يوم وصلنا عند ستنا مريم، الطخ زي رش المطر، كان فيه طريق عالية لازم نطلعها من عند ستنا مريم، بالطريق: لا أنا قادرة أمشي ولا أتسخم ولا أتلطم (لا أقدر على فعل شيء) وكيف بدي أساوي؟! والاّ بقولوا: أجت اليهود ورانا. واطلع حبي حبي

(قليلاً قليلاً) تا وصلنا السور في أبو ديس".[١١]

حين نقرأ شهادة الراوية؛ نجد تأكيداً على مقاومة باسلة لنساء القرية ورجالها؛ "ذلك بأن أهاليها، على الرغم من عنصر المفاجأة، وعدم وصول أي نجدات إليهم؛ قاوموا بإمكاناتهم المحدودة جداً نسبياً القوى المهاجمة، مقاومة بطولية رائعة، اضطرت المنظمتين الإرهابيتين إلى الاستنجاد بقوات البالماخ لإخراجهما من ورطتهما العسكرية".[١٢]

وتدفعنا شهادة الراوية إلى التدقيق في شهادتها، وشهادة بعض الرواة، الذين يشككون في بعض ما تم تداوله بالنسبة إلى مذبحة دير ياسين. يشكك الراوي بهجت أبو غربية، بالروايات التي تحدثت عن اغتصاب الفتيات، وبقر بطون الحوامل، واعتبرها دعاية صهيونية، كان يجب مقاومتها؛ لتأثيرها السلبي على معنويات الناس. كما تحدث الراوي عن مقاومة قرية دير ياسين الشرسة، دفاعاً عن القرية:

"لأقل لك، صار عليها حديث كثير كثير، وأنا ما بأحب إنه تستغل حادثة، زي حادثة دير ياسين، لنوع من الدعاية الغير صحيحة، دير ياسين كان إلي فيها كثير تلاميذ، وكنت أروح عندهم، يعني بعرف البلد كثير مليح. البلد، القرية يعني، مثل ما تقولي هنا، وهاي القدس، وزي ما تقولي بينهم مستعمرة اسمها (..). يعني لما بدهم ييجوا على القدس، بدهم يمروا من المستعمرة، وهي معسكر، حاطين شوية جاج، شوية بقر "كيموفلاج" (تمويه)، يعني بس هو معسكر. نحن نعرف وأهل دير ياسين يعرفون ذلك، وكانوا حاسبين حساب، وأهل دير ياسين، من ثورة الـــ ٣٦، كان لهم دور مشهور، يعني رجال معروفين؛ فكانوا مسلحين أهل دير ياسين، على الأقل لأن جنبهم يهود (..) معسكر، للدفاع عن أنفسهم، وفي المعركة، ثلاث هجمات صدوها ليلة الهجوم، ما قدروش (لم يستطيعوا) اليهود يخترقوا دير ياسين ثلاث مرات؛ لكن اليهود كانوا يعزّزون، يعيدوا التنظيم ويزيدوا العدد ويزيدوا القذائف (...) الخ، وفي النهاية دخلوا اليهود، وقتل من اليهود أعداد كبيرة، وبيني وبينك، يعني صح، إنه مخطط إلها لإرهاب وترحيل الناس؛ لكن الجزء اللي دخل في النص هو القتلى اليهود، زادت في العنف هذا. بالنسبة للاعتداء على النساء، أنا شخصياً، بعد يومين أو الثالث من المعركة، عندي، يعني منطقتي (دفعوا بقايا) أهل دير ياسين، دير ياسين لما انسحبوا الناس منها، كان يعتبروا كل شخص غير موجود مقتول، والحقيقة إنهم كانوا محتجزين ٢٠٠ واحد: ستات وأولاد، رجال قليل، فكان عادينهم قتلى، هادول أنا اللي استقبلتهم بعد ثلاث أيام. جابوا لي إياهم (أحضروهم) من منطقة (...) جابوهم عندي. لأ، لأ مش على القسطل، على القدس، على حي المصرارة. فاستقبلتهم – على قولة الستات – وكدة (وهكذا). أنا استقبلتهم حوالي ٢٠٠، سيدات وأطفال. نعم، وكنا حاسبينهم قتلى، فوجئنا وهم جايبينهم، هم يمكن كانوا ناويين أن إحنا نذبحهم؛ لأن فعلاً كان هناك احتمال. ليل أولاً، ثانياً بييجوا من محل، كل شوية من محل فيه رماية، فيه إطلاق نار، وهم دفعوهم

من نفس الأماكن، في أخطر خط. الشباب اللي كانوا في الاستحكام، كان بينا وبينهم تليفون ميدان، أستاذ، أستاذ، فيه ناس جايين كثير، زي العرب، أنا بيني وبينهم ما فيش يمكن ٦٠ متر، قلت له: ثبّتهم، تثبيت يعني ما ترميش، بيقول لي: شكلهم عرب، ثبّتهم عقبال ما آجي، الشوارع سلسة كانت مضوية، الإنجليز في البلاد كانوا والكهرباء، لمّا وصلت كان واضح، رأساً استنتجت انه (..) آه، واستقبلتهم وأدخلتهم في مدرسة، كانت معنوياتهم واطية (منخفضة) جداً جداً، بصراحة لم أسمع منهم عن أي حادثة اعتداء جنسي؛ إنّما طافوا فيهم في شوارع (مشريم وبن يهودا) وكذا بالسيارات، زي اللي بيستعرض موكب النصر، هذا حصل".[١٣]

وعندما استفسرت الباحثة من الراوي؛ ما إذا كان قد سمع عن أي حادثة اعتداء على النساء، من أية سيدة أو من شاب؛ أجاب:

"لا من الستات ولا من الشباب، يعني كان فيه شاب مثلاً، كان عمره ١٢ سنة، أخذناه علمناه في الإبراهيمية، اسمه عزمي، والحاصل يعني، أنا حتى سألت عن بعض أوضاع، يعني فيه ست هذه اللي ابنها عزمي، شفت على وجهها ملامح رعب. يعني جيبي أكبر فنان في العالم يحط صورة للرعب بتشوفيها مثل صورتها، إشي غير طبيعي. آه، سألت، ما لها؟ ليش غير شكل عنهم؟ أنا حابسهم في دار، بديش (لا أريد) يختلطوا بأهل المنطقة، أحسن يأثّروا على معنوياتهم، ترى هذا احنا بنعرفه من الحرب العالمية؛ لأن الواحد بيمر عليه، عندك فكرة عن "بانكرك"؟ "بانكرك" في الجيش البريطاني، في بلجيكا وفي فرنسا، الألمان حاصروه وذبحوه ذبح، واللي قدر يطلع بروحه يعني بطل، وجابوهم لبريطانيا، وتبهدل الجيش، و٣٠٠ ألف، أخذوهم الإنجليز في أقصى اسكوتلندا في قرى بعيدة عن الناس حتى يقعدوا شهرين ثلاثة. يهدأوا وما يؤثّروش (لا يؤثّروا) في الروح المعنوية للناس. حطّيناهم (أطفال دير ياسين) في مدرسة وسكّرنا عليهم، وجبنا لهم ميّ وشاي وكذا (...). سألت عن أم عزمي، زوجها قاتلينه، ابنها الكبير قاتلينه، قدام عينيها في دير ياسين، إلها ولدين، خلوا لها إياهم، واحد (١١) وواحد (١٢) اشي هيك".[١٤]

وتتحدث الراوية سميرة صلاح، عن الأثر السلبي الذي أحدثته مجزرة دير ياسين، على معنويات المقاتلين، الذين احتاروا ما بين قتل نسائهم وبناتهم بأيديهم، خوفاً من اغتصابهن وفضحهن أمام أعينهم، أو محاولة تهريبهن من البلاد. عند سؤال الراوية عن شهر الهجرة؛ أجابت بما يتوافق مع مجزرة دير ياسين:

"ما متذكّرة (لا أذكر)، ما بعرف. بمذكّرات الوالد محطوطَة، بس ناسْية أنا، ما رجعت لّها؛ بس بتصوّر إنّه بعد مجزرة دير ياسين، وصار فيه هبّة كبيرة، إنّه بدهن يفوتوا يْقَتّلوا ويعملوا اليهود، فكان كثير من الرجال يطلّعوا نساءهن، ويبقوا هنّه. بتصوّر هادا غلط، يمكن لما يكون في وأهله موجودين بدافع أكتر الرجل عن بيتُه، فهون كانت الغلطة أنه

كتير من العائلات طلّعوا نساءهم. فنحنا بتذكّر إنّه –يعني هاي حادثة بتحكي لنا إياها، إيه، دايماً– كانت حامل بأختي الثالثة، كنا نحنا بنتين وإمي، فعلى أثر حادثة دير ياسين بتقول إمي إنّه حطّنا كلّنا، إحنا الثلاثة وكان بدّه يقوّصنا، بدّه يقتلنا يعني، إنّه مشان ما يصير فينا متل دير ياسين. فبلحظة نادوا على أبوي إنه بدهن إيّاه جيش الإنقاذ، فشاف (قرر) يطلع، فيمكن هادا اللّي أنقذ حياتنا، إنّه كان هوّه إنّه خلص، كل واحد يقتل النساء اللّي عنده، ويتحرر يعني من هادا الموضوع: العرض والشرف (...) بعدين قالوا إنّه في باصات أو سيارات أو حدا بدّه ينقُل الناس من (...) يبدو كمان ما يعرف إذا همّه نفسهم اليهود مهّدوا لهادا الموضوع، حتى الناس تترك البلاد وتمشي، فطلعنا، بتذكر، متل ما بيحيي الوالد والوالدة، طلعوا يعني (..) طلعنا إحنا مع أهل أبوي مشي للحمّة، ومن الحمّة رحنا على إربد، وكان فيه سيارات نقلت الناس، تراكّات، هدول مش يعني باصات أو مشي، كميونات إيه، وجدّي تولّى أمرنا باعتباره هوّه اللّي أكبر واحد بالعيلة. إيه، على أثر دير ياسين، أنّه صاروا يغتصبوا النساء والحوامل يضربوا بطونهم، وطبعاً هادا كله مؤرخ بالتاريخ، فخافوا الرجال على أعراضهم، على نسائهم، اللّي عنده بنات، اللّي عنده يعني نسوان، إيه، كانوا يحاولوا إنه بدهن يقتلوهن أو يطلّعوهم، لما قالوا ما في طَلْعَة محاصرة البلد، فكان كل واحد ناوي يقتل اللي عنده منشان يعني إنّه اليهود ما يفوتوا ويغتصبوا البنات. فأبوي، إنه هوّه بدّه يروح يحارب، طيب مين بدّه يحمي عيلتُه؟! إنّه أفضل يا بدّه يطلّعها من البلاد يا بيقتلها. فكانت النتيجة أنّه لأ. طلعنا ما مُتناش (خرجنا ولم نقتل)، ما قتلْنا".[١٥]

وتؤكد الراويتان: صبا الفاهوم، وعفاف الإدريس، هذا الأثر السلبي، لتضخيم الدعاية الصهيونية، حول ما يتعلق بالعرض، ذلك الرأي الذي لا تعتنقه الراوية، وتعترف أنه كان خطأً كبيراً:

"أخوي خرج بطريقته، وأمي خرجت كمان (...) يعني كل واحد، مرة أخوي (زوجة أخي)، يعني كل واحد خرج بطريقته (...) مع الأسف ذاك الوقت، كان الإيمان بأنه العرض أغلى من الأرض، وأنا لا أومن بذلك، لأن الذي فقد أرضه وفقد ترابه؛ فقد كل شرف له، لكن أنت أدرى بذيول دير ياسين، وأنا بأعتقد أنه من أخطائنا إحنا كعرب كلنا: ضخمنا دير ياسين، بحيث خدمت الصهاينة، كانت هي مجزرة رهيبة (...) بس ما كان لازم تنتشر هيك، بحيث إنه العرض كان شي مقدس وكذا".[١٦]

"فدير ياسين صح حصل؛ لكن أنا بقول بالشكل اللي أنا، أنا يعني عاصرناه وسمعناه والتقينا في الأمهات وكله، كان فيه شيء أكثر حجماً، علشان يستثيروا الرأي العام العربي، صارت القرى اللي هاجرت بعد دير ياسين هاجروا بدون ضرب، هاجروا طلعوا طلعوا؛ لأنه زي ما بدك تخوف فلان اضرب فلان قدامه، بخاف الثاني، فكثير من القرى شردت خوفاً مما حصل في دير ياسين".[١٧]

وتحدثت الراوية عبلة الحسن، عن أثر المجازر الصهيونية، والحديث المضخم عنها، على تهجير الناس فترة العام ١٩٤٨، قائلة:

"كنت أسمع إنه عائلات كاملة كانت تضيع، وما يلاقوها بالطرقات، وناس كتير بقولوا إنه خطفوا فلان ما نعرف وينه (لا نعرف مكانه)، حتى سمعت من أبوي إنه لما هربوا من حيفا، واحد يهودي إجا خبرهم إنه الليلة بده يصير مجزرة/ يمكن كانت هاي كذبة؛ لحديت (إلى أن) ما يخرجوا أكبر عدد ممكن، لأنه كان فيه تخطيط، وإحنا مش عارفين إنه التخطيط هو الخروج من البلاد، وفقدانها، حتى كان أخوي اللي أزغر (أصغر) مني بولدين يقول: أهلي مجانين، ليش تركوا حيفا؛ لكن الخوف، لكن الخوف والرعب هو المسيطر. بذكر إنه واحد من سكان حيفا؛ بس ما بذكر شو عيلته! حرقوه هو والمنجرة سواء، كانت جنب الجريني، مكان اسمه الجريني، حرقوه هو والمنجرة سواء، وبذكر كمان شخص عزيز ورفيق لوالدي، أحمد الحاج، هو قلائل من اللي معهم بكالوريوس من الجامعة الأمريكية. كان عضو في البلدية. هادا نسفوه هو وسيارته، كان عنده فولز فاكن، وبذكر أبوي قال إنه لم أشلاءه وحطهم بسلة، وأعطاهم لعيلته، عيلته كانت معنا بصيدا، أعطاهم لعيلته اللي بقيت بحيفا ودفن هناك، هاي حصلت، دب الرعب في الناس، وهربوا عالدول العربية".[١٨]

وعلى الرغم من كل محاولات التهجير، والحديث المضخم عن المجازر والمذابح؛ تحدثنا الراوية سميرة خوري، التي بقيت مع عائلتها، مع بعض العائلات الفلسطينية في البلاد، عن الصمود في الأرض ورفض التهجير. وقد كان لعصبة التحرر الوطني دورٌ كبيرٌ في هذا الصدد، فقد أعلنت شعار مقاومة التهجير، والنضال بكل الوسائل لتحقيق هذا لهدف؛ ما جعل الرجال يلاحقون بعض من هاجروا ويعيدونهم من الجبال. كما كان هناك دور مميز للنساء، في النضال بكل الوسائل لمقاومة التهجير. دخلن البيوت لإقناع السيدات بضرورة البقاء، وتكذيب الشائعات، وتحملن الضرب وألوان العذاب، من أجل تحقيق هدفهن. تؤرخ الراوية من خلال شهادتها؛ لمجازر وحشية حدثت في عيلوط وعيلبون، من قضاء الناصرة وطبريا:

"نيجي نحكي في البيوت، ونقول للناس: وين كل وحدة في حارتها وفي جيرانها؟ لأ يا جماعة ترحلوش، لأ خليكم قاعدين في البلاد، يقولوا لنا: شوفي شو صار في (...) في دير ياسين شو صار في (..) ماله! وهاي القرى! نقولهن: ما يكون، إحنا هون إن قتلونا ننقتل في بيتنا، مش أحسن؟! نقاوم، ليش يقتلونا؟ مش رح يقتلونا؛ لأنه صرنا شايفين إنه القوة مع الجيش الإسرائيلي، مع الهاغانا؛ اللي دايرين، وحتى لما أجوا فاتوا الناصرة فاتوا بحطات وعقل حمر، حتى إلي عم انقتل عمي، ابن عم أبوي اللي ماخذ (متزوج) أخت أبوي؛ كانوا ساكنين جنبنا، وفكّر هو إنّه هذا الجيش جيش العربي! إطلع، طلع هيك علشان يتأكد يشوف

مين؛ لأنه إحنا جايين من منطقة معزولة: الاشلي كان اسمها، جايين من تلا (من جهة لاشلي، شو جاب العرب من هاي الجهة؟ مش ممكن! صرنا نقول: يا عمي، هذولا (هؤلاء) صاروا في الناصرة، احتلوا الناصرة، تطلعوش من بيتكم، تخافوش (لا تخافوا)، وعمي طلع بس باب الدار، يعني انقتل باب الدار، وكنا مش عارفين كيف بدنا ندفنه. فاتوا اليهود بهذا الشكل، وخلص أعلنوا منطقة عسكرية، منع تجول. صار اللي يطلع من باب بيته يطخّوه (يطلقوا عليه النار)، اللي يطلع على ساحة بيته، وطخوا بطلع (حوالي) ٧- ٨ اللي طلعوا على ساحة البيت؛ يعني المهم إنه أخذنا إذن، ودفنا عمي، وصرنا محتارين شو نعمل؟! بس قلنا – تهدئة خواطر: خليكم في البيوت، مش رح يصير إشي عليكم وترحلوش، حتى أكثر من هيك؛ فيه شباب تبعون عصبة التحرر الوطني، وقفوا عملوا (بركاده) على مدخل الطرق (حاجز)، فيه ناس صارت تطلع على الجبال، من الجبال يرجعوهن (يرجعونهم) ، عشان هيك أكثر بلد حافظت على سكانها هي الناصرة والقرى اللي حوالينا، مع إنه كانوا يفوتوا: فاتوا على عيلوط،[١٩] جمعوا الشباب وحطوهم وطخوهم: بيجي عشرين واحد انقتلوا في عيلوط في عيلبون[٢٠] أربعين واحد انقتلوا ليش؟ بقولك: هذول شافوا كيف انقتلوا! كيف هذولا اللي أعطيتك أساميهن (أسماؤهم)! من عيلوط، فيه ناس: سلوى هذه سلوى سلامة، بتعرفي، ممكن يحكوا لنا كيف انقتلوا هذول الشباب؟ كيف كل هاي الشغلات؟ المهم إنه إحنا حالاً بس احتلوا الناصرة، وبديت يخططوا منع التجول؛ صار إيش يعملوا؟ فتحت المدارس في ٩/١ فتحت المدارس، قالوا: فيه تهدئة خواطر، مش الحياة بدها تسير؟ فيعملوا منع تجول في الليل، وفي النهار الناس تقدر تطلع، تروح على المدرسة، أما ما حدا بقدر يطلع يشتري؛ لأنه فيه كان حكم عسكري؛ بدك تأخذي تصريح، طب في خلال هذه الفترة بعدها يعني ما لحقتش تبدأ المدرسة (بعد أن بدأت المدارس بفترة قصيرة)، أجوا بدهن يرحّلوا الحارة الشرقية، هلا اللي إحنا فيها هذه الحارة اسمها: الحارة الشرقية، لذلك أوعوا يا ناس! إيش صاروا؟ صرنا إحنا نتردد على عصبة التحرر الوطني. لأ، لما فاتوا اليهود؛ أخذوا محلّ بطّل سرّي، صاروا يجتمعوا فيه، بس بعدهم اسمهم عصبة التحرر الوطني. فيه بيت لواحد شيوعي؛ على ظهر بيته كان فيه غرفة، أخذوا الغرفة هناك، وصاروا يجتمعوا، هناك كان فيه ساحة ينعقد فيها، كان فيه مؤتمر العمال العرب، مؤتمر العمال العرب من سنة الثمانية وأربعين مؤتمر العمال العرب، كان تديره النقابة اللي هي تابعة للعصبة، يعني بتأيدها وبتدعمها عصبة التحرر الوطني، صار فيه شعبية كمان لعصبة التحرر الوطني، وبديت تظهر يظهر الاسم الحزب الشيوعي. إسّه أجوا يلمّوا هذول الناس، إيش عملنا إحنا؟ أجوا (....) في المدرسة أجوا الصبايا ينادوني تعالي تعالي، طوّقوا الحارة الشرقية، طلعنا على الحارة الشرقية، وضربنا إحنا كمان طوق من النسوان إنه ما تطلعوش، تطلعوش من بيوتكم، صرنا شايفين إنه فيه كثير ناس طلّعوا رجالهم، أخذوهم بدهم يرحلوهن، بدوا (بدأوا) في الرجال،

وين حطّوهن؟ في المسكوبية،[٢١] في ساحة كبيرة، هاي دائرة، كانت دوائر حكومية، فيه ساحة كبيرة اسمها المسكوبية، حطّوهم هناك، قلنا: خلص، هذولا للترحيل، إحنا النسوان أخذناهن، وحطيناهن في الساحة، تبعة عصبة التحرر الوطنية، جبنالهن (أحضرنا لهم) أكل وملابس، اللي مش لابسه طالعين بقمصان النوم؛ جبنالهن ملابس ولبّسناهن، وبعد ما طعميناهن، قلنا لهن: يا الله على المظاهرة، وين المظاهرة؟ نطالب في إطلاق سراح رجالنا، صرنا إحنا رجالنا، مش رجالنا، أخذناهن كلياتهن مع الرجال، اللي من الحارات الثانية، كلنا نسوان، وقفنا قدام المسكوبية، قعدنا هناك قدام المسكوبية، فيطردونا في الخيل البرابيج (الكرابيج) يطردونا في الميّه السخنة (المياه الساخنة) في سيارات الميّه السخنة، يزتّوا علينا، يجوا يعني بكل الطرق بالعصي بالضرب، إحنا مرحّلين وقاعدين، فإيش أجوا يعملوا؟ أجوا حطّوا هالرجال في الشاحنات، وأجوا بدهم يرحلوهن. قلنا: لا يمكن يرحلوهن إلاّ على جثثنا، كل ما أجوا يطلع الشاحنات من بوابة المسكوبية ننام على الأرض، ننام على الأرض، وكل ما أجوا يشوفونا ننام على الأرض، يرجّعوا الشاحنات. ضلّينا على هالحالة هاي من العشرة الصبح للساعة أربعة بعد الظهر، لحتى أطلقوا سراح الرجال، وطلّعوا الأغلبية من الساحة. منهن خلّوا عدد قليل جداً اللي هن لاقوا سلاح عندهن في بيتهن، تفتيش؛ لأنه قلبوا الطحين على السكر، لاقوا سلاح خلّوه عندهن، هذول فش يطلعوهن، قلنا: طيب على الأقل الأغلبية طلّعناهن، بنكمّل مواصلة لنضال للبقيّة، إسّه هاي أحد الأشياء، علمنا إنه إحنا بالنضال ممكن نكسب حقوقنا، إذن خلينا نكمّل".[٢٢]

الهوامش:

[١] كان أول من ضخم عدد شهداء دير ياسين وحددهم بـــ ٢٤٥ شهيداً: موردخاي رعنان، قائد إيتسل (الأرغون) في القدس، تم ذلك في مؤتمر صحافي، عقده مساء يوم الجمعة في ٩ نيسان/إبريل، كما أكدت الإذاعة البريطانية: (BBC) هذا الرقم. أما العدد التقديري الأقرب إلى الدقة فكان: مئة شهيد، معظمهم من النساء والشيوخ والأطفال (الخالدي. ١٩٩٩: ١٢٤ - ١٢٥).

[٢] تأتي شهادة الرواة، ضمن مشروع التأريخ الشفوي، الذي بادرت إلى تنفيذه وزارة المرأة (إدارة المرأة/ وزارة التخطيط- سابقاً)، والذي اشتمل على الفترة السياسية، منذ الثلاثينيات حتى أواسط الستينيات.

[٣] مقابلة مع لطيفة محمود درباس (١٩٢٧) من بلعا (طولكرم). أجرت المقابلة الباحثة نداء أبو طه بتاريخ: ٩٨/٩/٢٧. ص.١١.

[٤] مقابلة مع هدى حنا (١٩٢٢) من صفد (تسكن سوريا). أجرت المقابلة الباحثة بثينة الكردي بتاريخ: ١٩٩٨/١١/٩. ص.٥.

[٥] مقابلة مع أم كايد (١٩٢٦)، تسكن الأردن. أجرت المقابلة الباحثة سناء محرم بتاريخ: ١٩٩٩/١/٢٧. ص.٦.

[٦] تقع إلى الغرب من القدس، شرد سكانها وسلبت أراضيها العام ١٩٤٨، أقيمت على أراضيها جامعة ومستشفى هداسا، بالإضافة إلى مستوطنة (عين كاريم).

[٧] من القرى الفلسطينية المدمرة. تقع إلى الجنوب الغربي من القدس.

[٨] السّلف: أخ الزوج، والسّلفة: زوجة السّلف.

[٩] قرية قضاء القدس.

[١٠] موقع بالقدس قريب من باب العامود.

[١١] مقابلة مع زينب عقل (١٩٢٤)، القدس. أجرت المقابلة الباحثة منى محاجنة بتاريخ: ١٩٩٩/٤/٧. ص. ٢-١٤.

[١٢] الخالدي. وليد. دير ياسين: الجمعة، ١٩٤٨/٤/٩. بيروت. مؤسسة الدراسات المقدسية، ومؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩. ص.٦٠.

[١٣] يمكن قراءة تفصيلات أكثر عن هذا الموكب، حيث طاف اليهود بالأسرى الفلسطينيين على مرحلتين، في كتاب: الخالدي. وليد. مصدر سبق ذكره. ص. ٨٦ - ٨٧.

[١٤] مقابلة مع بهجت أبو غربية (١٩١٦)، الأردن. أجرت المقابلة الباحثة سناء محرم بتاريخ: ٩٨/٨/٢٠. ص. ٨ و٩.

[١٥] مقابلة مع سميرة صلاح (١٩٤٦)، لبنان. أجرت المقابلة الباحثة سهير الأزم بتاريخ: ١٩٩٨/١٢/٢٢. ص. ٢ و٣.

[١٦] مقابلة مع صبا الفاهوم (١٩٢٩)، الأردن. أجرت المقابلة الباحثة سناء محرم بتاريخ: ١٩٩٩/٢/٩. ص. ٥.

[١٧] مقابلة مع عفاف الإدريسي (١٩٢٨)، غزة. أجرت المقابلة الباحثة تغريد عبد الهادي بتاريخ: ٩/٨-١٧/٨/-٢٣/٨/-١٩٩٨/٩/٣م. ص. ٢٣.

[١٨] مقابلة مع عبلة الحسن (١٩٣٤)، لبنان. أجرت المقابلة الباحثة خديجة عبد العال بتاريخ: ٩٨/٩/١٤. ص. ٣، و٤.

[١٩] قرية فلسطينية تقع إلى الشمال الغربي من الناصرة.

[٢٠] قرية فلسطينية قضاء طبريا.

[٢١] المقصود سجن المسكوبية في القدس (توجد مسكوبية في الناصرة).

[٢٢] مقابلة مع سميرة خوري (١٩٢٩)، الناصرة. ص. ٩ و١٠.

شهادات عن تعامل المرأة القروية مع التهجير خلال العام ١٩٤٨

ربيحة علان علان

تشكل المادة التالية الفصل الثاني من رسالة ربيحة علان علان بعنوان: "دور المرأة الفلسطينية الريفية اللاجئة في الحفاظ على العائلة (١٩٤٨–١٩٦٢)". وقد قدمت استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في جامعة بيرزيت بتاريخ ٢٠٠٥/١/١٣. ويتناول هذا الفصل من الرسالة بعض الجوانب من تعامل القرويين مع واقع التهجير في العام ١٩٤٨. واختزل هذا الفصل (بما في ذلك إغفال المراجع والهوامش)[١] لمقتضيات التحرير، وللضرورات التي يمليها حجم دورية دراسات المرأة، وضماناً لتعدد المساهمات فيها.

في أعقاب صدور قرار التقسيم في ٢٩-١١-١٩٤٧، وإعلان بريطانيا عن قرارها سحب إدارتها وجيشها من فلسطين، وإنهاء الانتداب ١٥-٥-١٩٤٨؛ بادرت تنظيمات الحركة الصهيونية في فلسطين إلى العمل العسكري لتحقيق أكبر قدر ممكن من تفريغ الأرض العربية من سكانها والاستيلاء عليها. "صار اليهود يطلعوا يهجموا، وصار أهل البلد يشتروا أسلحة. كان حوالي ٢٠ واحد مسلحين معاهم بواريد شروهم من مالهم الخاص". كان هذا ما ذكرته المبحوثة نعمة عن ردة فعل رجال قريتها عقب قرار التقسيم. إنه مثال على حال القرى الفلسطينية التي بدأت تعد نفسها للدفاع ومواجهة المخطط الصهيوني. لكنه استعداد متأخر وضعيف مقارنة مع الاستعداد الصهيوني المستمر منذ سنوات، حيث راكمت المنظمات الصهيونية الخبرة والإعداد. طبيعة الهجرة اليهودية إلى فلسطين جعلت نسبة القادرين على العمل العسكري أعلى مما هي عليه في المجتمعات "الطبيعية". ففي إحصاء للوكالة اليهودية أجرته في نهاية العام ٤٧، بلغ عدد الذكور اليهود الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و٥٠ عاماً نحو ١٨٥ ألف شخص. ولذا كان بإمكان منظمة الهاغاناة الصهيونية في اليوم التالي لصدور قرار التقسيم دعوة فئة الأعمار بين ١٧ و٢٥ عاماً إلى الخدمة العسكرية، وعينت أماكن حشد هذه القوات في ألوية مقسمة وفق خطة مدروسة. وعلى الرغم من الكم الهائل من الأسلحة المتطورة التي كانت بحوزة المنظمات الصهيونية على أرض فلسطين، فقد بادرت هذه بحملة لجمع تبرعات مالية قيمتها ٢٥٠ مليون دولار

من يهود أمريكا. هذا إضافة إلى دفع الصناعات العسكرية الصهيونية لمزيد من إنتاج الأسلحة وعقد صفقات شراء أسلحة من الخارج.

في حين لم تنتفع، إن لم تكن قد تضررت، القرى الفلسطينية من جيش المتطوعين الذي شكلته الجامعة العربية باسم جيش الإنقاذ، والذي دخل الأراضي الفلسطينية في ٨/ ١٩٤٨/١. ولم يكن بمقدور جيش الجهاد المقدس الفلسطيني الذي شكلته الهيئة العربية العليا بقيادة عبد القادر الحسيني أن يغطي حاجات الريف الفلسطيني العسكرية، بل كان هو بحاجة ملحة إلى دعمه بالرجال والسلاح نتيجة لضعف تمويل ودعم هذا التنظيم من القيادات العربية. ولم تدخل الجيوش العربية "المخلصة" فلسطين إلا بعد أن كانت القوات الصهيونية قد نفذت أجزاء مهمة من مخططها وشردت غالبية الفلسطينيين عن قراهم.

ويستعرض هذا الجزء الصعوبات التي واجهت القرويين الفلسطينيين خلال هذه الحرب بهدف إلقاء الضوء على دور المرأة القروية في الحفاظ على عائلتها خلال هذه المرحلة الخطرة، ونخص هنا المرأة التي أضحت لاجئة. كما يتابع هذا الجزء ما أخرجه القرويون اللاجئون معهم من بيوتهم، مبيناً دور المرأة القروية اللاجئة في السنوات الأولى للجوء.

قضية التسليح والتنظيم والتدريب

كانت قضية توفير السلاح من أهم المشاكل التي واجهها الفلسطينيون، وبخاصة القرويين. واعتمد الاحتلال البريطاني سياسة متشددة في منع تسليح الفلسطينيين خلال ثلاثين عاماً من وجوده على أرض فلسطين. لكن قرار التقسيم واندلاع المعارك وفر جواً من ضعف المراقبة وبعض التغاضي من حكومة الانتداب فيما يخص مسألة حصول الفلسطينيين على السلاح. وكانت بريطانيا تدرك أن حجم التسليح الصهيوني يفوق قدرة التسليح لدى الفلسطينيين وحتى الجيوش العربية. واستغل القرويون الإعلان عن انتهاء الانتداب للسعي نحو تسليح أنفسهم، لكنه كان سلاحاً قديماً وقليل العدد، وذخيرته غير متوفرة. تقول أم فواز: "واللا ما معانا سلاح ولا إشي؛ كل البلد يبقى فيها عشر برودات من هذولاك اللي بيطيروا فيهن العصافير، البلد كلها عشر برودات!!". وكان سعر السلاح قد ارتفع ارتفاعاً حاداً وقت الحرب. ولذا، نجد القرية ككل تشترك في توفير عدد محدود من قطع السلاح، وغالباً من أموال أهالي القرية. وبسبب فقر معظم القرويين نجد أن الحمائل في القرية الواحدة تتحمل كل منها مصاريف بندقية أو اثنتين مع تقديم مقاوم من أفراد الحمولة. هذا لا يعني عدم وصول بعض قطع السلاح لأهالي القرى من مصادر أخرى. كأن يكون المقاوم ضمن تنظيم كالجهاد المقدس، أو متطوعين آخرين يحصلون على بعض الدعم من جهة

عربية، إلا أن بعض المتطوعين كان يضطر للاعتماد على دخله الخاص لتوفير السلاح. بعض أفراد البوليس العربي التابع لشرطة الانتداب البريطاني قام بالهرب بسلاحهم، أو ادعى بأنه سُرِق عند إعلان قرب نهاية الانتداب. والبعض من الفلاحين عمد إلى خطف السلاح من أفراد الجيش والبوليس البريطاني.

تُجمع الروايات الشفويّة للرجال والنساء على حد سواء على الدور الكبير للمرأة القروية في توفير التمويل المادي لشراء الأسلحة في الريف الفلسطيني. كانت مصاغ ومدخرات النساء وممتلكاتها الأخرى من وفر ثمن أغلب قطع السلاح في يد المقاومين القرويين، غير أنني لم أجد في رواية مبحوثة واحدة أو ما يدل في الوثائق المكتوبة على قيام المرأة القروية بالمشاركة في معارك الحرب مستخدمة سلاحاً نارياً، على الرغم من ظهورها في "الفزعات" وعمليات الدفاع داخل القرى المحاصرة والقرى التي تعرضت للمذابح والعدوان الدامي؛ مستخدمة طاقاتها البدنية واللفظية ومشاركة بالسلاح الأبيض كالحجارة والعصي والفؤوس، وجامعة ما تجده من سلاح ناري خلف الموتى وتسليمه للمقاومين من أبناء جلدتها. كما قامت بدورها المهم والمؤثر في رفع معنويات المقاومين بالزغاريد والهتاف والتحميس.

تستبعد "العوايد" الفلاحية الفلسطينيّة المرأة من مجال استخدام السلاح الناري، وتميل إلى تحييد المرأة في حال وقوع نزاع مسلح؛ إلا أنني لا أجد أن هذا هو السبب الوحيد لعدم مشاركة المرأة بالسلاح الناري، فهناك أسباب قوية التأثير أهمها قلة السلاح بيد الفلاحين وحداثة توفره النسبي لدى البعض؛ كونه بقي ممنوعاً خلال فترة الاحتلال البريطاني. ومع ارتفاع ثمن السلاح، كان قلة من الرجال يحصلون عليه؛ فغالباً ما كانت تتوفر قطعة سلاح واحدة أو ما يقاربها لكل حمولة، ويبقى معظم رجال الحمولة بلا سلاح، لذا كان من "الطبيعي" وتمشياً مع العادات والتقاليد وظروف الحياة القروية أن يكون الرجال أقرب إلى دور حامل السلاح الناري من النساء. كما لعبت مشكلة التنظيم والتدريب التي عانى منها الفلسطينيون إبان صدامات العام ٤٨، وبخاصة في الريف الفلسطيني؛ دوراً في استبعاد ظهور المرأة عن ساحة المقاومة بالسلاح الناري، وفي ضعف مشاركتها في مجالات ممكنة ودون اعتراض من "العوايد"، كتموين المقاتلين بالغذاء. وهو ما قامت به إبان الثورة الفلسطينية الأولى ٣٦-٣٩. فمع ثلاثين عاماً من الاحتلال البريطاني القامع لثورات الريف المتتالية والمفرق لصفوف السياسيين الفلسطينيين، لم يكن ممكناً للفلسطينيين ترتيب صفهم الداخلي وإيجاد قيادة موحدة بسهولة مع بدء عمليات الحرب، وبخاصة مع تضارب مصالح أطراف عربية داخلية وخارجيّة. ولذا، لم يظهر في فلسطين تنظيم موحد وقيادة عامة شاملة قادرة على رص الصفوف وبناء خطط بعيدة الأثر، وتدريب القادرين على حمل السلاح لمواجهة عدو فتي مدرب ومعد بخطط إستراتيجية منذ سنوات. لقد ظهرت تنظيمات محليّة

في كثير من القرى والمدن والأحياء الفلسطينية، وبخاصة القرية من نقاط التماس مع العدو، في حين بقيت القرى البعيدة عن هذا التماس في حالة أسوأ من حيث التنظيم أو الاستعداد، وكان القادرون منها "يفزعون" نحو مناطق القتال غالباً دون تنظيم أو تدريب، ومنهم من كان يفزع وهو لا يملك سلاحاً.

برزت "الفزعة" -كتحرك جماعيّ عفوي يقوم بها القرويون لمساعدة المحتاجين وقت النزاعات- كالشغل الطاغي على الأعمال والمشاركات العسكريّة للريفيين في هذه الحرب، ومع أن أغلبيّة الفزعات الخارجيّة كان يقوم بها الرجال دون النساء، فإن النساء القرويات شاركن في الفزعات داخل القرية وحولها عند تعرض القرية وأبنائها لخطر مباشر. لكن هذا الشكل غير المنظم للريفيين كلفهم خسائر بشريّة كبيرة، ولم يكن ذا ثمار كافيّة لردع قوة عسكرية منظمة بحجم قوة عدوهم؛ وفي ذلك تقول المبحوثة حمدة: "بيني وبينك، إهل زمان بقت الحمولة، الحمولة، قال إيه!! يعطوهم برودتين كل حمولة فيها برودتين، قالوا هي اليهود أجونا من تلا (جهة) السبع من عند المقحز إفزعوا لاقوا اليهود، والله في ولاد عم إلي أربعة شباب وطعم شباب، شو راحوا، دبو حالهم في هالترك وراحوا حوالي بيجي عشرين ثلاثين واحد كل واحد معاه شويّة فشك وبرودته إشو لقوا القوة والهاغانا والدبابات والسخامات ... طخ طخ طخ خلصوا الفشكات اللي معاهم والله ... بيطلع ثلاثين واحد روحوا في الترك ... ما حدا ملص منهم تا يجيبهم، فزعوا من البلد بعد ما راحت الهاغانا راحوا جابوهم".

افتقدت غالبية الفلسطينيين، وبخاصة الفلاحين إلى التدريب العسكري، فحتى القلة التي امتلكت سلاحاً كانت في الأغلب لا تعلم شيئاً عن التنظيم العسكري وخوض المعارك. يقول سعيد محمد عطية وهو مقاوم من قالونيا: "إحنا ادربنا لحالنا، كنا نطلع ع الجبل، هذا قبل ما صار الهجوم ع لبلاد، كنا نطلع ع الجبل ونصير نحط (نضع) علام ونصير نضرب ع لعلام تعلمنا احنا على ايدينا فش واحد علمنا".

كما كان الاستعداد الميداني في الريف ضعيفاً. وبقيت العديد من القرى دون عملية تحصين أو بناء مواقع خاصة للاستحكام إلا من بعض "السناسل" والاستفادة أحياناً من جدران البيوت؛ والقليل من القرى عملت تحصينات واستحكامات بما امتلكت من إمكانات بسيطة. يقول أبو عمر من العباسية (زوج أحد المبحوثات) "بقت العباسيّة مفتوحة داير ما ايدور استحكام والتراب طالع لبرة (لخارج) اتراب البحش طالع لبرة، كل لمسلحين في الاستكامات هاي- زي الخندق- داير ما ايدور، ولمسلح بيفر داير ما ايدور في قلب الاستحكام وبيبينش ع اليهود (لا يبدو للعيان لليهود)... بقا بلدنا كل عيلة عليها كل نفر متر، كل نفر عليه متر في الحفر كل نفر متر في الارتفاع، ولمن يطلع ترابه لبرة بيصير كأنوا مترين". ومن محاولات القرويين الخاصة أيضاً في تحصين قراهم ما تذكره أم سعيد العنباري

من أن زوجها الذي كان قبل الحرب يعمل في البوليس البريطاني قدم خبرته لأبناء قريته أبو شوشة في التدريب على السلاح، وفي الاستفادة من الألغام التي تركتها العصابات الصهيونية قرب القرية، فقام بزرع هذه الألغام حول القرية كنوع من الحماية.

شكل قدوم المتطوعين العرب بعد قرار التقسيم إلى فلسطين، وعلى رأسهم جيش الإنقاذ والأخوان المسلمين من سوريا ومصر، وجماعة هارون بن جازي من شرق الأردن وغيرهم، وكذلك دخول الجيوش العربية أواسط أيار ١٩٤٨، عاملاً مطمئناً للريفيين أول الأمر. لكنه سرعان ما ظهر في غير صالح الفلسطينيين على الأقل بسبب حالة الفوضى وقلة النظام، وعدم وجود قيادة حقيقية موحدة لكل هذه الجهات، وتضارب مصالحها وتنافسها. ومع وجود هذه الفوضى وعدم التنسيق بين المسلحين استطاعت العصابات الصهيونية النفاذ لعدة قرى منتحلة شخصية جهة عربية ما، والحصول على معلومات خطيرة عن عدد المقاومين ومواقعهم وغيره. كما استطاع "المستعربون" بث الشقاق بين الجهات العربية المختلفة والمشاركة في إرهاب السكان نفسياً ودفعهم للخروج من قراهم. واستطاعوا الوصول إلى مسلحين داخل القرى والقضاء عليهم دون أن يتدخل المسلحون الآخرون في القرية نفسها في الدفاع عن إخوانهم نتيجة انعدام التنسيق والتعاون.

واجه المقاومون من القرى مشكلة كبيرة في هذه الحرب مرتبطة بسوء التنظيم؛ ألا وهي مشكلة التموين الغذائي. وكان القرويون بطبيعتهم حريصين على تخزين ما أمكنهم من مواد غذائيّة. كما توقع بعضهم ظروفاً مماثلة لما حدث في أثناء ثورة ٣٦، فخزن المزيد من الغذاء. تقول المبحوثة زينب: "أبويه راح باع ذهباتها لإمي وجاب وحط في الدار، وما خلاش الواحد إشي.. بيقول بلكي مش عارفين بتسد لإنها سادة ست تشهر هذيكا السنة سنة الــ ٣٦ خافو زيها تسكر". وعندما كان المقاومون يتواجدون داخل القريّة كانت نساء القرية توفر لهم التموين الغذائي. في بعض القرى شكل هذا التموين ضغطاً كبيراً على النساء وأهالي القرية عموماً لتزايد عدد المقاتلين المتجمعين من عدة مناطق في قرية معينة بهدف هجوم أو صد هجوم معاد. وكان سكان القرى الفلسطينيّة في وضع اقتصادي ضعيف. فعلى سبيل المثال قرية صغيرة مثل قالونيا كان عدد المسلحين فيها يصل أحياناً إلى ٤٠٠ مقاتل لقربها من باب الواد والقسطل، وهي مناطق مواجهات عسكرية. وكان تزويدهم بالسكن والفراش والطعام والشراب يقع على عاتق أهالي القريّة. وفي القرى التي تعرضت للحصار، وكان السكان والمقاومون داخل القرية، قدمت المرأة القروية مساهمات رئيسة وهمة في توفير التموين للمقاومين.

تقول إحدى نساء الفالوجة: "إحنا كنا نساعد الجيش (المصري)، كنا حوالي ٢٥ وحدة في حارتنا (حارة عقيلان) كنا نعجن ونخبز، كانوا يجيبوا لي القمح وأنا أغربله وأنظفه وبعدين هم يطحنوه، بعد ما يطحنوه آخذه وأعجنه وأخبزه، وظليت على كدة طول

ما احنا محاصرين، كانت الطيارات ترمي علينا في اليوم سبعين قيزان". وفي رواية أخرى من الفالوجة أيضا: "اليهود أخذوا كل المنطقة ويهجموا عليها، ع بلدنا تيوخذوها تيذبحوها ما قدروش سنة وحنا محصورين، إحنا وياهم نطحن على الطواحين، هاذا همة أول ما ظربوا البلد بالطيارات ظربوا البابور، بابور الطحين صرنا نطحن على إيدينا، ونعجن ونخبز ونطعم الجيش، صارت زي مجاعة عنا، ... والله إمي يخش (يدخل) الجندي، كن قال بدي بيض يا حاجة، تقوله: هاذا كو الخم، ويشلح هالطاقيّة عن راسه ويروح والله الواحد من المدفعيّة يدبها بيظ (بيض) ويظله رايح لا حدا يعرف غلا ولا حدا يعرف بيع ومشترى. والله إمي ... راحت على مطبخ الجيش إلا بتقول يا خوي طيحني لجمال عبد الناصر، الله بيقول شو حامله يا حجة قالت حاملة يا خوي شويّة برغل، قالها شكراً يا حجة، يم مسك هالجرن عن راسها وطيحه، قالت: ميت ألف صحة وعافيّة، بعدها بيجي بنهارين ثلاثة كان عندها ملح، والملح كان مفقود، قالت: يما اجعلني أموت أنا أوكل ملح والجيش ما عندوش ملح، هذا الجيش أبدى منا، خليه يملح الطبيخ".

وعندما كان أهالي بعض القرى يقررون التوجه إلى خارج القرية للاحتماء من هجوم متوقعٍ، وكان المقاومون يبقون في القريّة لصد هذا الهجوم، نجد في روايات بعض القرى أن عدداً من النساء كان يبقى لتقديم التموين الغذائي للمقاومين ورفع معنوياتهم. تقول المبحوثة "أم فايق": "بقى في نسوان يساعدن الثوار، خالتي مرة أبوي وأخرى وحدة من بلدنا إلهم بيارة وإلهم أرض، وأخرى وحدة مرة عمي وأخرى وحدة من نسوان عمي، هذوله اللي بعرفهن أربعة ظلين، والله أبو فايق قال إنها هاذي المرة - إسمها حُسن- اتقول هيك والطخ (إطلاق النار) عليها وهي اتطارد (تجري) في الشوارع ... وتصرخ واتقول هيك في شاشتها- تنفظ فيها - قال اتك الفشك اللي يمرق (يمر) عن راسها ... بقين هذول النسوان يطبخن ويطعمنهم، ظلن عشان يطعمن الشباب، بعدين اتقول: يا بيارتنا يا دارنا يا ولادي.. يا بيارتنا يا دارنا يا ولادي ... واتصرخ كان حياة أبو فايق يخرفني (يحكي لي)". وفي حال خروج النساء من القرية كان مخزون المرأة القروية وإنتاجها الغذائي مصدراً للتموين الغذائي لمن بقي في البيوت والقرية وللمقاتلين والجيوش المتمركزة في القرى أو قربها، فقد بقي في كل القرى مخزون الطعام المحفوظ في البيوت وأعداد كبيرة من الدواجن.

في ثورة ٣٦ استفاد الثوار سابقاً من قدرة النساء القرويات على توفير الطعام وإيصاله لمواقع الثوار بسرية وكفاءة كبيرة. كما كان الاتفاق الفلاحي في ثورة ٣٦ يقضي بأن يتم تقديم الطعام للثوار في القرى التي ينزلوا فيها، وفي كل وقت. لكن في العام ٤٨ أصبح المقاومون يغادرون إلى أماكن غير محددة ولأوقات غير محددة وسط مخاطر شديدة وتواصل للأعمال القتالية وزمام المبادرة ليس بأيديهم. كما اتسعت جبهات القتال، الأمر الذي لم يوفر فرصة للنساء في السعي خلف المقاومين لتموينهم بالطعام. ولم يعد هناك

قيادات ملزمة للسكان بتقديم المعونة للمقاومين كما كان في ثورة ٣٦، فكان بعض القرويين لا يأبهون بتقديم التموين الغذائي لمقاومين من خارج القرية.

ومن المشكلات التي ارتبطت بسوء التنظيم مشكلة إسعاف الجرحى وندرة الخدمات الطبيّة. وكان عدد الجرحى والقتلى يزداد يوماً بعد يوم، فساهم بعض المتطوعين من أطباء وغيرهم (ومتطوعات قلة من المدن) في محاولة المساعدة، والمرأة القروية شاركت مشاركة محليّة في قضية إسعاف الجرحى ودفن الموتى. نرى ذلك بوضوح في القرى التي تعرضت لعدوان وحصار ومذابح كدير ياسين، والفالوجة، وأبو شوشة.

عانت القرى الفلسطينية أيضاً من ضعف وسائل الاتصال والمواصلات بين أجزائها، فكانت المعلومات في الغالب تتوفر للسكان من "بعضهم البعض"، أو عن طريق جريدة أو مذياع عادة ما يتواجدان في مضافة المختار "بس مبتجبش المزبوط" (لا تقول الحقيقة) برأي الرجال وهي "للزلام مش للنسوان" كما تقول النساء، ما جعل المرأة أكثر من الرجل في القرى عرضة للشائعات حول مجريات الحرب.

قضية أمن المدنيين أو التهجير ومنع العودة

مع تصاعد المواجهات كانت القرى الفلسطينية القريبة من ساحة المواجهات أو التي تجري على أرضها مواجهات تتعطل فيها مناحي عديدة من الحياة العامة. تقول المبحوثة زينب "شغل فش، آه واللا صار زي إضراب، سكرو سكرو بطلوا يخلوا حدا يروح ولا يجي، وكل واحد خاف على حالا (نفسه)...". وكانت المرأة القروية كما تظهر المقابلات الشفويّة تستمر في نشاطها اليومي داخل القرية كجلب الماء والحطب وتتفقد الطابون والعمل الزراعي، الأمر الذي جعلها أكثر عرضة للقتل من بين غير المقاومين. فكثيراً ما تعرضت نساء للقتل برصاص العصابات الصهيونية وهي تجلب الماء أو تقوم بعملها في الحقل. دفع تواصل الأعمال الحربية، وتوقع العديد من القرى الهجوم عليه، وشح السلاح والتناقص الخطير في حجم ذخيرة المقاومين من القرى إلى البحث عن الأمان بأشكال عدة. التصرف الفردي للعائلات أو لمجموعة متقاربة من العائلات في ظل غياب دور قيادي منظم وضابط لحركة السكان كان منتشراً، ما أثر سلباً على مستقبل العديد من القرى الفلسطينية.

كان التجمع مع العائلة الممتدة أو الحمولة أو الجيران في مكان اعتقدوا أنه أكثر أمناً من المحاولات الأولى للريفيين للبحث عن الأمان. فنرى النساء (وعائلاتهن) اللواتي كن يسكن على أطراف القرية أو في البيارات وفي البيوت الجديدة –التي انتشر بناؤها في السنوات الأخيرة للانتداب– يذكرن عودتهن إلى بيت العائلة الممتدة التي تسكن في داخل

التجمع الرئيس للقرية. وتقول أم عمر (إحدى المبحوثات): "أهلي بقوا ساكنين في البيارات ولمن صار في خوف روحوا وسكنوا في البلد، ورحلوا أهلي وأنا ع البلد، صرنا نخاف صرنا نروح ع بياراتنا بالسرقة". وتقول أم طلال (إحدى المبحوثات): "... نقلت أنا من الدار البرانيّة ورحت ع دار عمي عند حماتي، أنا وزلمتي وولادي، قعدنا عندهم شهرين ونص جوا البلد. يا خيّ اللي بيصير عليهم بيصير علي، صار الطخ علينا ... وقمت حملت الولد ورحت ع دار أبوي اللا إمي بطقطق عليها يوم صار الطخ مسكرة، قالت أنو هاظ (من أنت؟)؟ قلت أنا يما افتحيلي، أخذت الولد اللا هي بتقول: الله يسخمك حاطا رجليه لفوق وراسو لتحت امدندلتي!! وولادي يرمحوا معي خوف، خوف، وأخذت غراضي (حاجاتي) ورحت ع الدار اللي في البلد أمن".

تمثل شكل أخر من أشكال البحث عن الأمان في تجمع عائلات تربطها علاقة نسب أو قرابة في بيت من بيوت الحمولة يتوفر فيه شرط البعد عن مناطق الهجوم المتوقعة. تقول أم محمود (إحدى المبحوثات): "كلهم يجوا من العصريّة (فترة العصر) يباتوا عنا من الطخ". ومنهم من توجه للمبيت ليلاً في القرى المجاورة، مثل عائلة أم جميل (إحدى المبحوثات) التي ذكرت: "مهم بقوا ... يجوا يضربوا في الليل ويشردوا (يهربوا) إحنا في البلد بقا معانا خلقت هالبرودة ... يجوا لمن يحسوا فيهم يطخوا وراهم طلقتين ثلاث يشردوا اليهود، يضربوا وراهم كن يشردوا هـــ يخلوهم لنص الليل بقوا الشباب يطلعوا حرس في لبلاد- يومن يحسوا فيهم يقولوا أجوا من الشقة هاذي همة مثل ما اتقولي يصيحوا، إحنا يا أهل البلد إنام في دار هيذ في طرف البلد واللا نقطع على بلد اسمها "يالو" إنام ... في أوقات يطلعوا (الناس) في أوقات ما يطلعوش يباتوا (يناموا) في الدور بس ينجمعوا هيذ في دار، وبعيدة عن البلد وبعيدة عن الشقة (الجهة) اللي بتيجيها اليهود".

وهكذا لجأت بعض العائلات القرويّة إلى مناطق قريبة من قريتها طمعاً في الأمان؛ ولكن هذا اللجوء مؤقت كما تظهره الروايات وأغلبه للاحتماء ليلاً، تقول هيجر العالم (ابنة المبحوثة زهرة العالم إحدى المبحوثات): "ع وعيي أنا صاروا اليهود ايطخطخوا (يطلقوا النار)، صار أبوي بدل إنام في الدار يوخذنا انام في البيارة بيارة جيرانا ابعيدة حوالي ٢٠٠ متر".

تظهر المقابلات أن القرويين الذين تحركوا للبحث عن الأمان خارج القرية وقريباً منها لم يعتبروا هذه هجرة على الإطلاق، بل اعتبروها عملية مؤقتة لا تتعدى الأيام حتى أنهم أطلقوا عليها اسم "الترفيع" وليس الخروج، فيقولون "رفعنا لعيال" و"بقوا عيالنا مرفعين"، أي أنهم وضعوهم في مكان "مرتفع" أي "عال" بعيد عن الخطر. إن بساطة ما حمل أهالي القرى معهم أثناء تحركهم خارج القرية- في المراحل الأولى للحرب بشكل خاص- تؤكد قولهم هذا، فلا نراهم يحملون معهم سوى حاجيات بسيطة لا تعدو كونها غطاء للنوم

وبعض الغذاء. إنها تشبه -في أفضل الحالات- تلك الحاجيات التي اعتاد الفلاحون على حملها في مواسم التعزيب في الكروم. تقول أم فايق (إحدى المبحوثات): "جيت تأقيم لسرير قالتلي خالتي اللي هي مرة أبوي قالتلي: لأ يا خالتي إحنا بدنا نطول؟!! لأ، بكرة بنرجع لا تقيمي". وكانت المواشي والحيوانات الأليفة تخرج معهم عندما يكون الخطر شديداً. أما عملية حمل النساء لمصاغهن ومدخراتهن ومدخرات العائلة المالية فالمرأة بالعادة تحمل هذه الأشياء معها حرصاً عليها من السرقة. ومع ذلك نجد العديد من النساء وقد تركن مدخراتهن في مكان ظننه آمن في بيوتهن؛ باعتبار أنهن عائدات قريباً.

اعتقد أهالي القرى في بداية الأمر أن الرجال سيتعرضون أولاً ودون باقي أفراد الأسرة لاعتداء العصابات الصهيونية، لكن مجريات الاعتداءات أقنعت القرويين بأن الخطر بات يمس كل أفراد العائلة، وبخاصة النساء، خلافاً لما في الأعراف الفلاحية الفلسطينيّة، حيث يتم تجنب الاعتداء على النساء والأطفال والمسنين ومن في حكمهم من غير المحاربين في حالة النزاع المسلح. وقد يكون هذا السبب الذي دفع الكثير من الرجال -على سبيل المثال من قرية أم الزنات في منطقة حواسة قرب حيفا عندما وقعت المذبحة هناك- للهرب تاركين نساءهم خلفهم. تقول أم طلال (إحدى المبحوثات): "لما صارت المشاكل قاموا الزلام شردوا ع حواسة التحتا -كل واحد سلامتك يا راسي- مهو قالوا الزلام بيتقتلوا والنسوان بيظلين". لكن سرعان ما وجد أهالي القرى أنفسهم أمام عدو لا يستثني أحداً من العائلة أو ممتلكاتها، لذا قام هؤلاء الرجال وأقرانهم في قرية أم الزنات التي تعرضت للإرهاب بعد حواسة بمدة بـــ "رفع" معظم أفراد العائلة، وبخاصة النساء والأطفال عندما توقعوا هجوماً على قريتهم.

لم تكن فكرة الخروج المؤقت للحماية من الأعمال الحربية جديدة على القرويين فهم يستذكرون تجربة العديد من القرى في آخر حرب سبقت حرب العام ٤٨؛ ألا وهي الحرب العثمانيّة البريطانية (أثناء الحرب العالمية الأولى). تقول أم عمر (إحدى المبحوثات): "حياة عمي بقا في الدار مرضيش يطلع (رفض الخروج)، بعيد عنك عنا (عندنا) دواب وبقر ومش راضي يرحل ... صار كل واحد يوخذ عيلته ويطلع ثاني واحد صار يشوفوا يقول: هيي ليش إحنا قاعدين، والله إحنا حماي قال خذ يا بو عمر خذ هلولاد واطلع فيهم هيك تلا (باتجاه) اللد أربع تيام بتقعدوا، سنة تركيا قال طلعنا أربع تيام وعاودنا إرجعنا ما ظلينا مهاجرين ... روح أقعد فيهم أربع تيام (أيام) وبترجعوا. واللا ليش (لماذا) أنا كنت أطلع من نص المطار من اللد وعلى البلد ع دارنا مشي أطلع مشي من الصبح أحلب البقرة وأزبل الطابون وأكنس وأنظف وآخذ إبريق الحليب على راسي ورد أروح على اللد أقولهم خذوا واشربوا واسقوا جيرانكم، طلعت معاي هالقد صرة طحين عبيتهن من الكيس وحملتهن على راسي، قلت هذول مؤونة أربع تيام، هذا أول ما اطلعنا، وعجنت منهن ورحت خبزتهن في فرن اللد ...

آه قال أربع تيام طلعوا سنة تركيا وانتوا زينا (مثلنا) بتطلعوا أربع تيام وبترجعوا...".

نجح المقاومون في مناطق عدة في المرحلة الأولى من الحرب في صد هجوم العصابات الصهيونية على قراهم. قرى عديدة شهدت قدوم عائلات قرى أخرى تعرضت للهجوم ليتم لاحقاً رد العدوان عنها ولتعود لأصحابها، الأمر الذي عزز فكرة العودة المؤكدة بعد صد العدوان أو توقف الأعمال الحربية.

عائلات بعض القرى كانت تخرج يومياً للمبيت في مكان قريب ولتعود لقراها للعمل في الصباح التالي. هذا في القرية التي لم تتعطل فيها الحياة العامة، أما في القرى التي أصبح فيها الوضع صعباً بالنسبة للعمل اليومي الحقلي فقد ظل أفرادها يترددون على حقولهم كلما أمكن ذلك، لمنع تلف المحصول الزراعي ولسقي الشجر ولزراعة البذار للموسم القادم، معتقدين جازمين "بخروجهم" المؤقت.

تقدم لنا المقابلات الشفوية مشاهد تظهر تفاوتاً بين نشاط المرأة والرجل على مدار اليوم خلال هذه الفترة الخطيرة. فالمرأة القروية تظل على تواصل مع نشاطها اليومي بصورة أكبر من الرجل، ويعود ذلك إلى تنوع الأدوار الموكلة اليها، بينما كانت أدوار الرجال أقل تنوعاً ومرتبطة بشكل رئيس بالعمل خارج المنزل الذي تعطل إلى حد بعيد بسبب الحرب. تقول أم طلال (إحدى المبحوثات، وهي من قرية كفر عانة) عن نفسها وقد لجأت إلى قرية دير طريف:

"وبعدين قلت هايختي؟ قالت: نعم؟ قلتلها بدنا نروح إنخطط يما للذرة والسمسم رحت ع البلد مرقت (مررت) عن كنب بيت نبالا، وأخذت أختي حامل السطل إذرة مشان إنخطط إذرة ...، أكريت (اشريت) جوز (اثنين من) خيل من العباسيّة، بتت في العباسيّة هناك بقوا اخوالي في العباسية، وقلت بنام أنا واختي عند دار خالي، رحت يوم بتت عند دار خالي قلتلهم شوفولي جوز خيل إيروحوا يخططولي الوطا (الأرض)، راحوا شافولنا جوز خيل ورحت معاهم، رحت وريتهم الموارس، وجيت بتت في دار الطنايب من العباسية. إسمهم دار الطنايب من خوال إمي دارهم ع البيادر، رحت عليهم أنا وختي تا روحنا العصر جوز خيل وراه شورين، رحت خططت وجيت وبتنا والصبح روحت، أبوي حرثلنا إياهن ...".

وتقول أم عمر المقابلة (إحدى المبحوثات، وكانت تعود يومياً إلى قريتها العباسية): "احنا قعدنا في أربع تيام في اللد، أنا كنت أطلع من اللد ع بلدنا (العباسية) أحلب البقرة وكنس الدار وأزبل الطابون مشان يظل حامي تا نرجع بعد أربع تيام". وأم عيسى من بيت نبالا أخرجها الفزع الناجم عن هجوم أولي على القرية وهي تقوم بغربلة قمحها فانتقلت ببعض حاجياتها إلى جبل قريب، واستمرت في عملية الغربلة، وطحنت حبوباً وعجنت الطحين، وشرعت في العودة إلى القرية لتخبز عجينها في طابون بيتها. تقول أم عيسى:

"عجنت وقلت بنعاود والطابون محنا زبلنا الصبح قلت بنرجع نخبز عجنت، وأنا في الغرس خمر العجين وأنا قاعد أغربل قلت بدي أروح أخبز في الطابون اللهمه (فوجدت أنهم) أخذوا البقر وراحوا تامنهم (حتى) يدرسوا الزلمة وابنه .. قاموا أجو أنا لسّه عند الزتون بدي أروح أخبز إللا هم راجعين، اللهو بيقول: القلل (القنابل) بيجن من الخربة الشمالية بيحطن في النوادرات، والنادري اللي بتيجي القلة فيها بدهرب (تشتعل) النار فيها...".

وفي حال بعض القرى التي امتنعت عن نقل عائلاتها خارج القرية، ووقعت القرية فريسة الإرهاب من هجوم ومذبحة وحصار وطرد، استمرت المرأة تسعى لإتمام أدوارها الحيوية في عائلتها على الرغم من خطورة الوضع في القرية، بل كانت تشارك في الفزعات لسد الهجوم عن القرية، وتحرض على المقاومة مستنجدة بذوي الهمم والقدرة لزيادة صفوف المقاومين. وكان لها تأثير على دفع أفراد من الجيوش العربية لنجدة القرية من هجوم العدو.

أبرزت المراجع التي وثقت حصار الفالوجة مدى مساهمة المرأة "الفالوجية" في التموين الغذائي للمقاومين. وكذلك في الفزعات والتحريض وإسعاف الجرحى ودفن الجثث وغيره. وفي القرى التي تم حصارها (قرية أبو شوشة، على سبيل المثال) برز من خلال المقابلات الشفوية دور فاعل للمرأة القروية، فنراها المدافعة عن عائلتها، المحرضة على المقاومة، المسعفة للجرحى. ولم أر للرجال القرويين أدواراً أقوى من أدوار النساء في مسألة التصدي لتبعات المذبحة، أو الحصار على أهالي القرية. فالمقاومون الذين كان يمسك بهم العدو كانوا يذبحون، وأما الرجال غير المسلحين فإما أن يذبحوا أو يؤسروا، وعليه شهدنا حالات عديدة لفرار رجال من وجه العدو تاركين أسرهم تحت مسؤولية نسائهم. كما كانت المرأة المنجد لمن يبقى حياً من الجرحى وللرجال المختبئين. وكانت تتولى دفن الجثث وجمع شمل الأسرة، ومن يقدم لها الخدمات من طعام وشراب وكساء وما شابه ... ولا شك أن أدوار النساء في حماية الأسرة وسط عمليات الحصار والمذابح في القرى؛ هي أدوار مثيرة للاهتمام لما لها من تأثير وفاعلية في صمود أهالي القرى.

القرويون الفلسطينيون شديدو التعلق بقراهم، ولذا عندما اضطر بعضهم للتحرك بعيداً عن بيوتهم اختاروا على الدوام المكان الأقرب لقراهم ليعودوا إليها في أسرع وقت ممكن، وليظلوا على تواصل يومي معها. تروي عايشة عيشة في مقابلة معها عن والدتها الأرملة، من عنابة، التي أخرجت عائلتها عند الخطر:

"إمي ما نامتش معنا في لمغارة، قالت يما خليكو هان (إبقوا هنا) أنا بروح أطبخ في الدار وبعجن وبجيبلكو (أحضر لكم) خبز، فعلاً راحت إمي طبخت وخبزت وجابت علينا في نفس اليوم. بقوا اللي بدو يرجع ع البلد يرجع لسا ما طردوناش من البلد بس شاردين من خوف ما يسووا الإشي البطال. بس مرة بقت ضاربة علينا الطيارات مناشير قالت اطلعوا

إجلوا من البلد، إمي حطتنا الصبح في لمغارة وقعدت عنا شويّة وقالت بدي أروح أعجن وأخبز وأجيبلكوا، وما معانا إلا فرشة ولحاف والبقر. إمي تروح ع البلد واتجبلنا (وتجلب لنا) كل شيء والبقر عنا في لمغارة يروح أخوي يرعيهن وأنا أقعد في الولد لصغير، وقعدنا بيجي أسبوعين وصاروا الناس يرحلوا يحملوا ويرحلوا انقلها يما ... اتقول خليهم يرحلوا الله يسهل عليهم أنا داري بدشرهاش (لن أتركها) وخلت المصريات (النقود) وكل شيء ما بالهاش البلد تنهد (تدمر)، انقولها يما بيرحلوا.. اتقول: مالنا ومالهم".

لقد تنبه بعض أبناء القرى إلى أن في خروج القرويين خطراً مؤكداً على عودتهم إلى قراهم، وأن المشروع الصهيوني القاضي بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين؛ ليس مجرد سيطرة عسكرية واحتلال كالاحتلال البريطاني، بل احتلال يقضي بطرد الفلسطينيين من أراضيهم. تقول سارة حمّاد (وهي زوجة مقاوم من ساريس):

"ليلتها وهمه (وهم) يقاوموا أخذ فشك حمل صندوق من هان وصندوق من هان، في نسوان بدهن يطلعن؛ قلهن بدكن تطلعن ... والله عمركن ما رح ترجعن، تطلعنش ... ست أشهر يقاوموا الآن لحد الآن السيارات ... قاوموا ساريس، لمن قاوموا الجمعة، هاذا قام حياة أبو محمد رايح يجيبلهم سلاح من عين سينيا ... فشك للبرود اللي معاهم ظلوا يقاوموا لوجه الصبح، وجه الصبح خلص معهم الفشك، قام واحد لحماي قلو: يا نافع خلصنا فشك؟؟ قلو: هيو جاي ... وأبو محمد حملوا الفشك ع الجمال لما أجا [صرنا في بيت محسير] قال ليش راحت ساريس ؟ قالوا ما اقدرنا عليهم أجوا من أربع طرق مقدرناش عليهم.. وإحنا لما بقوا يقاوموا بقينا في البلد [في ساريس]، ولمن حسينا اليهود دخلت مهما صاروا ينسفوا الدور على طول حماتي كانت في الدار والدار عليها حطب، تبحر في الدور وهمه ينسفوا فيهن من الشباك ينسفوا على طول تبحر منها وغربة منها وشرقة منها وقبلة تلاقيهم بينسفوا لمن نسفوا وخلصوا صاروا قبال الدار ولعوا النار في الحطب ... إحنا (النسوان) لمن حسنا بدهم يدخلوا البلد طشينا زي ما اتقولي على الجبال هيك، الوحدة طلعت مفرعة متلحكش على خلقة (غطاء الرأس) واللا شريطة طلعت مع ولادها ونمنا في هالجبال، وبعدين رحنا على بيت محسير ... بقوا الشباب ميخلوناش (لم يسمحوا لنا) نطلع من ساريس ظلينا لمن احتلوها، لمن دخلوا البلد اليهود إحنا بدينا نطلع مهمة الشباب خلصوا السلاح واطلعنا مع بعضنا. يعني ثلاث اختيارات (عجائز) تأخرن في البلد ثنتين قاموهن عند بعض وطخوهن وين؟ في عينيهن، ووحده نسفوا الدار عليها".

وهكذا يتبين أن بعض المقاومين كانوا ضد قرار عائلاتهم بالخروج لخارج القرية. وهناك نساء رفضن الخروج وقلن: "بيتي قبري" أو أخرجن عائلاتهن وعدن إلى البيت في القرية، وكذلك كان حال بعض الرجال. لكن وفي النهاية كان الاتفاق على الخروج أو البقاء يتم بموافقة الأعضاء الأكثر تأثيراً في العائلة الواحدة، سواء أكانت المرأة أم الرجل،

وبالتالي تتحرك العائلة أو تبقى بناء على اتفاق عائلي. غير أن هناك قرى خرج أهلها في جو من الإرهاب أصاب العائلة مباشرة، وأرغم أفرادها على الرحيل عن القرية، بحيث حصل تشتت أفراد من العائلة الواحدة. وعلى الرغم من ذلك نلاحظ في حال القرى التي تحرك سكانها قبل بدء الهجوم المعادي عليها؛ أن خروج النساء منها كان عاملاً رئيسياً في تفريغ القرية شيئاً فشيئاً من سكانها، وكان ميسراً لعمليات العدو في اجتياح القرية واحتلالها وطرد ما تبقى من سكانها. فالمرأة لا تخرج دون إخوتها أو أطفالها بعكس خروج الرجال الذي لا يصاحبه بالضرورة خروج أفراد من العائلة، لذا كان خروج النساء مسبباً– أو مسبباً به في حال الرغبة في إخراج الأطفال– لخروج أغلب أفراد العائلة إن لم يكن جميعهم. وتقول أم أنيس (من قبيبة ابن عواد) في مقابلة معها:

"وباقي هجرتنا الأخيرة والله لو قعدت الناس في لبلاد وذبح زي هيكد [زي مذبحة الدوايمة] شو بدهم يذبحوا اليهود؟؟ بذبحوا النص، بذبحوا الثلث، والباقي بظل بس تياسي فينا، تياسي فينا باقيين نسمع في اليهود سمع واللا اليهود لو بقينا نشوفها زي هيك واللا وحياتكي ما اطلعنا، بس بقوا يقولوا الجيش الهاغانا بيسخم وبيعمل، عاليوم لو طخونا اليهود ومتنا في لبلاد ومطلعناش دايما بقول وبتمنى".

ما حمله القرويون المهجرون معهم

عندما استفسرت من المهجرين القرويين عن الأشياء التي حملوها معهم من قراهم خلال عمليّة التهجير، وجدت أن منهم من لم يحمل شيئاً على الإطلاق، ومنهم من حمل شيئاً واحداً أو أشياء كالتالي:

سرير لطفل رضيع، قطعة ملابس واحدة تضاف إلى ما حملت أجسادهم (مثل عباءة تغطي فيها الأم طفلها)، كيس أو صرّة ملابس –أهمها كسوة المرة– كيس طحين صغير، صنيّة، باطية، كروانة، ماكنة خياطة نسائية –وكل المبحوثات في هذه الرسالة تحدثن عن ماكنة خياطة تدار باليد أي صغيرة الحجم، ويمكن حملها باليد– مقص خياطة، خيوط، قطعة قماش تحتاج لإكمال "تطريزها" أو خياطتها"، طاحونة يدوية (جروشة)، غربال، لجن، بوشة سمنة، تنكة جبنة، بريق شاي، دلة قهوة قديمة، مطرة زيت، طعام مطبوخ، عدد من أرغفة الخبز، عجين، واحدة أو بضع من الحيوانات المنزلية التالية: بقر، غنم، حمار، بغل، جمل، ومن الدواجن واحدة إلى بضع منها، قطعة أو عدة قطع من الفراش مثل فرشة، لحاف، وسادة، مصاغ (فضة أو ذهب) ومدخرات العائلة إن وجد، بعض الغلال حبوب من المحصول الزراعي: قمح، شعير، ذرة، سمسم ... تراوحت بين كيس إلى عدة أكياس،

بعض الوثائق المهمة للعائلة كرخصة بناء البيت وملكية الأرض (الكوشان)، ومفتاح البيت. قلة أخرجوا عربة تجرها البغال وسيارة لم يمتلكوها وتمكنوا من إخراجها. أحد الرجال أخرج ما احتواه دكانه من قريته إلى قرية مجاورة، بعض المقاومين الناجين احتفظوا بالسلاح الخاص بهم أو ما غنموه خلال الحرب.

وعلى الرغم من وجود مسميات لأشياء أخرجها مهجرون آخرون –من غير المبحوثات والمبحوثين في هذه الدراسة– كالصاج مثلاً الذي كان يستخدم كفرن خبز متنقل في بعض القرى الفلسطينية، فإن ما ذكر أعلاه يمثل إلى حد بعيد ما تم إخراجه من ممتلكات أهالي القرى المهجرين معهم خلال عمليات تهجيرهم. إن قراءة في طبيعة وكميّة الأشياء المذكورة أعلاه تدلل على ظروف عمليات التهجير، ونظرة القرويين المهجرين إلى ما توقعوه عن الفترة، والوضع الاقتصادي للمهجرين قبيل عمليّة التهجير وإلى حد أكبر وضعهم بعيد هذه العملية، وأثر تقسيم الأدوار تقليدياً بين أفراد العائلة القروية على ما خرج معهم.

ومن خلال الروايات العديدة التي سجلها هذا البحث، وما ظهر في بعض أدبيات النكبة، يتبين أن العديد من اللاجئين من القرى التي تعرضت لهجوم مفاجئ، أو لحصار، أو لمذبحة، أو الطرد بالأوامر العسكرية المباشرة، خرجوا معدمين أو شبه معدمين. عند الهجوم العسكري المفاجئ للعصابات الصهيونية قلة فقط من القرويين أسعفها الحظ لحمل شيء ما، بينما لم يكن بمقدور الغالبية حمل شيء مطلقاً، واهتمت ما أمكنها بالنجاة لشخوصها ولذويها. وفي القرى التي تعرضت للمذابح، خرج الناجون غالباً معدمين. فمن فرّ من المقاومين بقي يحمل قطعة سلاحه أحياناً، ومن فر من المدنيين بعيداً عن أعين المعتدين كان يحمل بعض الطعام والملابس والمصاغ. وأما من أمسك بهم المعتدون فقد نكلوا بهم كما حدث مع ناجي دير ياسين الذين طافت بهم سيارات العصابات الصهيونية لتشهر بهم وتشيد بانتصاراتها في قتل العزل من الفلسطينيين. وفي قرية أبو شوشة تم حصار القرية حصاراً شديداً في أعقاب المذبحة، ثم جمع السكان وطردوا معدمين وتحت التهديد بالقتل. وكما ذكرت مبحوثة من قرية أم الزنات أنها لم تستطع –من قساوة عملية التهجير وظروفها– أن تحمل شيئاً باستثناء حملها لمصاغها ومدخرات عائلتها. تقول أم فريد:

"حطونا (وضعونا) في هالدار؛ قالولنا بدكم إتروحوا على إم الفخم هيك اليهود بقوا يقولوا: "على إم الفخم عند عبد الله أبو الطبيخ – عن الملك– واللي بقدر يقيم (يأخذ) غراض من دارو يقيم، وأنو بدو يحمل كتاب الله. إطلعنا من الدار في الثياب اللي علينا، والله غير الثوب اللي عليّ طلعت في كلياتنا، كل أهل البلد، (هذا الـــ.. تبعنا سبع دروب عليه) وهذوله اليهود مثل هان والعين التحتا هاذي ترمبيلات وهاكمي الزلمة إلوا ناس يفتشوا على هالدرب إحنا بدنا نيجي على هالدرب هاي، على البير اللي بدوا يوخذنا على بلاد غاد،

وبيفتشوا، البنات إلهن بنات والزلام إلهن زلام (رجال)؛ طلعونا وفتشونا وقالوا مع السلامة، قالوا من إربحنا إحنا ملكمش إشي (ليس لكم أي شيء)، وإن إربحتونا إنتوا إنشا الله قشة صحار من احسرتوها بتوخذوها يم هيك يخرف بينا، والله باب دكانة محيي إنو يخرف بيهم الزلمة هيك، من إربحتونا كل شي بيرجعلكم ومن اربحناكم إحنا ولا إشي يم هيك قللنا. وأنو بدوا يحمل إغراض من إم الزنات تنا وصلنا عارة وعرعرة، محنا إطلعنا مثلاً من قبل الظهر ظلينا لقدام (لعشا) تاوصلنا عارة وعرعرة، أول ما جينا على عارة ... أنا اولادي مش معايي ولادي وديتهم ع الوعر عند إمي ... بس هزموا الناس هزموا على إجزم، يعني اللي ما صدقش يعني طلع على سماكة أجا على إجزم قريبة علينا ولمن سقطت إم الزنات قبوا قبلي، مهي قبلي بقت سلم يجوا على إم الفحم يجوا على عارة يجوا على عرعرة ... ولادي دشرتهم وراي في الوعر مع إمي ومع مرت خالي، وذهبي معي والمصاري، اللي بقا معها قرشين مزنرا فيهن، اللي معاها مصاري مصاريها معاها ظلن معاي، في ناس من جماعتنا من قرايبها لأم عمر والله مصاري الله معاهم يا قشيلي، والله دشروهن وراحن".

الناجون الذين تمكنوا وسط عمليات تهجير (هجوم مفاجئ، مذبحة، حصار وطرد) من حمل شيئاً حملوا القليل القليل من الحاجيات الأساسية الخفيفة الوزن كالمصاغ والمدخرات والملابس والطعام. وعندما نتتبع عدد القرى التي هجّرت بهذه الطريقة نستنتج حجم المأساة الاقتصادية التي حلت بأهالي القرى.

وفي القرى التي توقعت الهجوم عليها، والتي على ما يظهر من خلال هذه الدراسة أن سكانها قد رأوا أو سمعوا بمآسي قرى مهجرة من قبلهم فحاولوا أخذ بعض الحاجيات معهم قد أخرجوا – من أراد منهم الخروج لأن هناك قرى توقعت الهجوم، ولكن رفض سكانها أو بعضهم الخروج– حيواناتهم المنزلية من الأبقار والأغنام وما شابه وبعض الغلال والحاجيات المنزلية كبعض الفراش، وأواني الطعام وبعض الطعام.

تعرض لاجئو القرى الذين توجهوا إلى المدن أو القرى التي لم تكن قد احتلت بعد لعملية تهجير ثانية أو لأكثر، وفقدوا كل شيء في المرة الثانية أو معظمه. فعدد من النساء اللواتي قابلتهن ذكرن أنهن وعائلاتهن خرجن من قراهن بسيارة محملة بحاجيات من منازلهن وتوجهن إلى قرية أو مدينة فلسطينية أخرى؛ ظناً أنها أكثر مناعة، فما كان إلا أن تهجروا مرة أخرى في هجوم مباشر أفقدهم ما أخرجوا من قريتهم الأم ليتحولوا إلى معدمين تماماً. هذا إضافة إلى من فقد أشياء له خلال عمليات التهجير نتيجة لحالة الفزع وسط الأعمال العسكرية ضدهم وصعوبة الطرق وظروفها كإطلاق النار على سيارات المهجرين.

تقول أم سعيد:

"إبن خالتي معاه ترك (سيارة شحن)، حمّل عيالو وطلع، أبوي بيقوله يا عمي بترجع خذ بنت خالتك معاك، قال بدي أرجعلكم، لما ما ليقيش طريق، يدور هيك يلاقي جبال

يدور هيك يلاقي جبال معرفش يمرق سيارتو، دشر سيارتو أول ما قدحوا السيارة من لعجال (اليهود) دشر السيارة واندب وسبح في الواد والسيارة محملة فراش أطول من دارنا، وفي الليل أخذ جمال من بدرس، ونزل على السيارة وحمل فراشو إلو ولحمولتو وأجا". في حالات مشابهة قامت العصابات الصهيونية بإطلاق النار على حيوانات (أبقار وأغنام ...) المهجرين.

وتقول الحجة ف.ح: "إلي ابن عم طلع بعدنا، إحنا اطلعنا قولي اليوم وهو ثاني انهار؛ بقا عندهم بقر، سايق البقر، وطالع بدو يلحقنا، بين بيت جبرين وبين بلدنا، إلا اليهود وهو سايق البقر حامل إلو ولد على حضنو وأمو ومرتو شاردات قدام قبل ما يلحق، وانتو يا اليهود شوفوا ابن عمي بيسوق في البقر طخوا ع مين؟ طخوا ع البقر؛ قتلوا كل البقر".

وتقول الحاجة عزيزة:

"إحنا ماشين هان والطيارات يدبين عند الفرن (يقع الفرن حوالي خمسين متر عن بيت الراوية) ورماح، الناس فوق بعض، يخبطوا على بعض، والطيارة كنها اتهبك تهبيك (أي مجرد تُخيف الناس) وإلا لو بدها تقتل قتلت كل اللي طلعوا، وطخ، وبعدين الطيارة اطيح قنابل فوقنا. اللهو زلمتي وين دار فقير محمل كيس قمح ومطرت زيت، كام دار ناحية بيت نبالا ولمن استلحقوا في اليهود حطهن وهزم براسو، لما هزم براسو كام حط مطرت الزيت وكيس القمح بلزق. قال ثاني يوم تنو يروح ايجيبهن؛ ثاني يوم رجع ملقهنش؛ مسروقات، مهمي استلحقوا فينا اليهود. وهو يوم اطلعنا يناقل في قمح وحنا اناقل في التبن؛ اللهمي هالناس بيقولوا "يا بيبي (بصراخ قوي) إهزموا.. إهزموا...".

قراءة في مدلولات ما حمله القرويون عند التهجير

أثرت رؤية القرويين للعمليات العسكرية ومصيرهم عقبها –التي أسفرت عن تهجيرهم في نهاية الأمر– فيما أخرجوا معهم من قراهم. تقول الحاجة أم فايق: "هاجرنا وبقيت جايب بنت. هاجرنا وعمرها ست أشهر، هاذي لما هاجرنا جيت تاقيم لسرير قالتلي خالتي اللي هي مرت أبوي، قالتلي: لأ يا خالتي إحنا بدنا إنطول؟ لأ، بكرة بنرجع لا اتكيمي". وبذلك لم تخرج أم فايق معها سوى القليل من ملابس الأطفال التي تحملها معها كل أم عندما تخرج في مشوار قصير ليوم أو بضع أيام، بينما والدها الأكثر خبرة وأكثر مالا ولديه دكان يخشى عليه خلال فوضى الحرب أن يسرق أو يتعطل عمله فقد أخرج محتوياته لبيعها في القرية المجاورة. تضيف أم فايق:

"ما أخذنا معنا ولا إشي، حد الله ولا إشي، أواعينا اللي علينا وأواعي ولادي اللي بدي

ألبسهم؛ وكله ظل، ما أخذنا لا فراش ولا طناجر ولا اصحون ولا شي في دار الدنيا، اللي علينا بس وغيارات ولادي، أبوي آه -نعم- أبوي شاطر. شد على العرباية وناقل بيجي ثلاث نقلات من الدكان؛ كل شي نقل، حتى الملح نقله، وحطهن في جلجولية، أخذهن مشان يبيع مش خوف عليهن؛ بس الدكانة مليانة؛ كلك اللا بيظلن ... وأبوي حظر حرب تركيا زمان ومجرب لحروبات أخذهن، ناقلهن، ينقل ويحمل معاي ولادي خطرات؛ وخطرات يرجع يقول ما تخافيش يابا احنا في اذيالك، يودي على بلد أختي في جلجولية".

ترى أم فايق أن تجربة أبيها في حرب تركيا أو معرفته بها أكسبته خبرة في ظروف الحروب، وفي الحقيقة فإن هذه التجربة عند الفلاحين؛ أي تجربتهم في فترة الحرب العالمية الأولى كانت من الأسباب التي جعلت أهالي القرى يطمئنون للعودة، لأن منهم من هاجر وعاد خلال الحرب العالمية الأولى، وبذلك لم يحمل أهالي القرى معهم وهم يخرجون للأمان من عمليات حرب ٤٨ سوى القليل القليل. تقول أم طلال:

"وأطلعوا -أهلي- كل أغراضهم يعني لغراض العاطلة أطلعوها ولغراض لمنيحة دشروها في البلد ... أبريق القهوة والدلة ولجرونة وكل إشي جديد خلوه؛ دفنهن أبوي بحشلهن في الأرض ودفنهن من خوف ما حدا يسرقهن. وأخذوا خلق المحماس العتيق ومن الدلة أخذوا إبريق قهوة - مهي الدلة بيطلع خمس أباريق قهوة- دفنهن؛ والفناجين السادة أخذ بيجي أربع خمس فناجين والباقي دفنهن؛ جرن كبير جديد دفنه وأخذ العتيق ... قال حياة أبوي: هنة سبع تيام وبنرجع؛ سبع تيام".

وبالمنطق نفسه أخرج معظم أهالي القرى أشياءهم عندما كان بإمكانهم أن يختاروا ما يخرجون. فكان بعض الطعام وأدوات بسيطة تستخدمها النساء في إعداد الطعام وبعض الفراش بكمية مشابهة لتلك التي كانوا يخرجونها عندما يخرجون للتعزيب في الكروم في مواسم نضج الثمار. وعندما ارتفعت المخاوف خلال المراحل المتقدمة من هذه الحرب، وبعد أن خرج معظم أفراد العائلة إلى مكان آمن، وأصبحت القرى معرضة أكثر للسرقات نتيجة للفوضى الأمنيّة، أخرجوا معهم المصاغ والمدخرات وبعض الغلال والحيوانات المنزليّة كلما أمكنهم ذلك. والمقصود بالحيوانات المنزلية الأبقار والأغنام والخراف والحمير والبغال والجمال وما شابه، أما الدواجن فلم يحركها أهالي القرى معهم أينما ذهبوا، ولم يأخذوا منها إلا ما يكفي لطعام يوم أو بعض أيام. فقد أخرجت بعض النساء دجاجة أو عدة دجاجات هي لغذاء العائلة لعدة أيام. والسبب في ذلك أن الحيوانات المنزلية كبيرة الحجم كالبقر والغنم والجمال وما شابه هي حيوانات ثمينة، وتعني للريفيين اقتصادياً الشيء الكثير، وكثيراً من كانت هذه الحيوانات مصدر دخلهم الرئيس. وكانت هذه الحيوانات تتعرض للقتل والسرقة بسبب الهجمات الصهيونية. وكان أهالي القرى يجمعون على ضرورة حمايتها فكانوا يخرجونها عادة مع أفراد العائلة إلى أماكن الاحتماء بعيداً عن الهجمات

المعادية، إلا إذا بقي أحد من العائلة في البيت في القرية، فكان يهتم بها ويحرسها. فهذه الحيوانات تحتاج لعناية مستمرة على مدار اليوم الواحد، وتحتاج لكمية من الطعام والماء، وكانت سهلة السرقة أو الضياع إذا ما تركت دون حراسة، وبذلك تكون خسارة القروي فادحة لفقدانها. أما الدواجن فيمكن تركها لوقت طويل نسبياً دون حاجة لعناية يومية بها فهي تتحرك في أنحاء البيت، بل في القرية فتأكل وتشرب مما هو متوفر، حيث لا تحتاج كمية كبيرة من الطعام والماء وتلتقط بقايا الحبوب التي تعمر بها أراضي القرى، ومن ثم لها ميزة مهمة وهي أنها تعتاد بيت صاحبها فلا تفارقه طويلاً وتعود في النهاية إلى مبيتها في بيت صاحبها. وبما أن القرويين كانوا يرون خروجهم كخروج مؤقت، فهم لم يهتموا بإخراج الدواجن. وهذه كانت في أغلب الأحيان ملك للمرأة، والمرأة منشغلة بما هو أهم؛ حياة عائلتها وإخراج ما هو أكثر إلحاحاً وأهمية، لذا بقيت الدواجن في بيوت الفلاحين. بينما نجد الرجال انشغلوا في إخراج الأبقار والأغنام التي هي بالمجمل ممتلكات للرجال وتؤثر بشدة على دخل العائلة لذا حتى ما كان منها ملكاً للنساء كان رجال العائلة يهتمون به. ويمكننا القول إن الدواجن التي زخرت بها بيوت الفلاحين بقيت في البيوت، وذهبت كما ذهب سائر ما بقي في القرى من ممتلكات.

تعكس الأشياء التي أخرجها أهالي القرى المهجرون معهم بدرجة ملحوظة الوضع الاقتصادي لعائلاتهم قبيل عملية التهجير وبعيدها. وهذا ينطبق على العائلات التي تمكنت من اختيار الأشياء التي تخرجها. فقد امتلكت أغلب النساء القرويات كميات بسيطة من المصاغ، وأخريات لم يمتلكن أي مصاغ (فضة أو ذهب) وقت التهجير، أو كان قليلاً للغاية، وذلك لأن منهن كن من عائلات فقيرة أو كن قد صرفن هذه المصاغ لشراء سلاح لأحد رجال عائلتها المقاومين، أو للتموين خلال فترة الصراع، أو في بناء بيت جديد. فقد ذكرت أغلب القرويات المبحوثات أنهن بنين وعائلاتهن بيتاً جديداً قبيل الحرب. وكذلك بالنسبة للمدخرات، حيث أغلب القرويين لم يمتلك مدخرات نقديّة إلا ما هو قليل، والذين امتلكوا منها كمية جيدة كانوا من الموظفين السابقين في البلدية ومعسكرات الجيش البريطاني والبوليس العربي في حكومة الانتداب، وممن يمارسون مهنا تدر مبالغ نقدية، ومن التجارة، ومن مقدم بيع محصول العام، أو ضمان الأرض لمن أسعفهم الحظ في ذلك. والوضع الاقتصادي للعائلة ظهر أيضاً في عدد الحيوانات التي أخرجوها وفي كمية الغلال التي حملوها، وفي وسائل النقل التي استخدموها. ولعبت وسيلة النقل أيضاً دوراً مهماً، فيما تمكن أهالي القرى من حمله. وظهر من خلال المقابلات الشفوية أن أغلبية المهجرين خرجوا سيراً على الأقدام وسط الهلع والخوف الشديدين، وحملوا ما استطاعوا من حاجيات على رؤوسهم وظهورهم وفي أيديهم.

نسبة أقل من المهجرين توفرت لديهم فرصة النقل على الحيوانات كالحمير والبغال

والجمال ... ولم تكن كل العائلات تمتلك مثل هذه الحيوانات، لكن من امتلك منها كان يمتلك واحداً أو اثنين بالعادة. وكان الجمل وسيلة نقل جيدة واستطاع من امتلك جملاً أو استأجر جملاً أن يحمل كمية أكبر من حاجيات عائلته، بل ويساعد جيرانه وأقاربه، وكذلك من امتلك عربة تجرها الحمير أو البغال. وأغلب أهالي القرى امتلك حماراً واحداً، وهو يقدر على حمل قدر ضئيل من حاجيات العائلة. وغالباً ما قطع المهجرون مسافات طويلة وهم يسيرون على أقدامهم حتى في حال توفر وسيلة نقل كالحمير والبغال والجمال، فقلما كانت تكفي لحمل أغراضهم أو بعض منها. وعندما تكون هناك فرصة تعطى الأولوية للأطفال أو كبار السن من غير القادرين على السير أو للجرحى. وفي فرص أقل بكثير استطاعت بعض العائلات أن تركب في عربة تجرها البغال.

تقول الحاجة حمدة: "بقت تمشي علينا الليل واحنا نمشي، يوم يوم نمشي في إجري ببوج انملع، انقطع على راسي شاشة قديت منها وربط الببوج ومشينا مشي فش سيارات ليل نهار مشي والولد يعيط على ايدي".

كانت نسبة من امتلكوا سيارات من سكان القرى قليلة للغاية، واستخدمت عادة في عملهم في البيارات وفي نقل المنتجات الزراعية. هذه السيارات لم تسلم كلها لأصحابها عند التهجير، فكثير منها تعرض للسلب أو التدمير على يد العصابات الصهيونية، ومنها ما صادره رجال الجيوش العربية واستخدموها في تحركاتهم. وما نجا من ذلك استخدمه القرويون في نقل الكثير من حاجياتهم وأهليهم. البعض لجأ إلى استئجار وسيلة نقل كجمل أو سيارة. ويظهر بوضوح أن الأجرة كانت مرتفعة قياساً بالدخل في تلك الفترة. ويظهر من الروايات أن أصحاب وسائل النقل تلك استغلوا حاجة المهجرين لهذه الوسيلة لرفع الأجرة. تقول أم فايق أنها كانت تدفع "ذهبة" واحدة كأجرة كل مرة للجمّال حتى ينقلهم، وعندما وصلت المخيم لم تكن تملك شيئاً من مصاغها. وتقول المبحوثة زريفة أن عائلتها اشتركت مع الجيران في دفع أجرة السيارة التي ستنقلهم وحاجياتهم. وأشارت أم عمر إلى مدى حرص "حماها" على حاجياتهم التي أخرجوها وهو يقول دائما "هذولة حطينا فيهم ٢٥ ليرة تنقلناهن لهان"، أي دفع مبلغاً كبيراً كأجرة لصاحب السيارة حتى قام بنقلها.

المصاغ والمدخرات والوثائق المهمة التي حملتها النساء

تبين أن المرأة القروية – في جميع مقابلات هذه الرسالة– كانت هي الحامل للمصاغ والمدخرات والوثائق المهمة في كل عائلة، سواء أكانت الزوجة أم الأم أم الأخت أم الحماة ... وحتى الرجال الذين كانوا يحتفظون بمدخراتهم بأنفسهم أوكلوا مهمة حفظ مدخراتهم

وأوراقهم المهمة خلال عملية التهجير للمرأة. وبرزت المرأة بالفعل كالأكثر حرصاً وكفاءة في حفظ هذه الحاجيات، فهي تحملها على جسدها (في الحزام - "تتزنر فيهن تزنر"- أو تضعها وسط ملابسها الداخلية- تقطبهن بالخيطان على سروالها وشلحتها الجوانية"- أو بمكان أو طريقة تكون عصية على السارق انتشالها، أو على أن تسقط منها وسط فوضى التنقل- "تحطهن في لوقاة ع الراس. وقد تضعها المرأة وسط كيس أو صرة ملابسها ... وهكذا. والرجال كانوا مطمئنين لحفظ المرأة للمدخرات لأنهن بالعادة أقل عرضة للقتل والسلب، فالرجال مقاومون بعيدون عن عائلاتهم في العادة، أو هم عرضة للقتل أو الأسر من العدو كما يتنقل الرجال فرادى في كثير من الأحيان، فيكونون عرضة للصوص، كما أن غياب الرجال متوقع بشكل أو بآخر، أما المرأة فهي ملتصقة بعائلتها، وحملها للمدخرات فيه تفويض لها بأن تتصرف بها لمصلحة العائلة إن غاب الرجل طويلاً إن كانت المدخرات ملكاً للرجل. لذا، كانت المرأة هي الخزنة الأكثر أماناً ومتانة في أثناء معمعة التهجير.

واهتمت المرأة القروية بحمل طعام وشراب ووسائل نوم عائلتها. فنراها عندما تسنح لها الفرصة وتنوي التحرك لتأمين عائلتها قبيل هجوم أو وسط حالة أمنية متردية، فهي تطعم عائلتها وتهيئهم من تنظيف (الاستحمام) وملابس وفراش إن أمكن، وتحمل في كيس ما استطاعت حمله من ملابس للعائلة، وتخبز عدداً كافياً من الأرغفة، وتطهو طعاماً للطريق، وقد تحمل دجاجتين أو أكثر لطعام العائلة، وتضع في لجن أو كيس بعض الطحين والسمن والجبن والزيت وما أمكنها حمله. وكذلك تحمل الطنجرة وصحن العجين وما شابه.

الصورة الغالبة تظهر اهتمام معظم الرجال في أثناء عملية التهجير على إخراج الممتلكات المنقولة ذات القيمة الكبيرة؛ كالحيوانات المنزلية من أبقار وأغنام وبغال وجمال، واهتمامهم للمصاغ والمدخرات، ومن ثم اهتمامهم بالغلال. بينما لم ينشغل المعظم لطعام العائلة ولا لحمل الأوعيّة التي تستعملها النساء في البيت، وفي حالات عدة لم يشاركوا في خروج العائلة من وسط الخطر، بل ترك هذا الأمر للمرأة. اهتمت المرأة في كل ما يمكن حمله وحتى ما كان يعتبر من ضمن اهتمامات الرجال، فقد قامت به في حال غيابه وحتى أثناء وجود.

تستغرب أم سعيد من طبيعة الرجال وهي تستذكر زوجها الذي لم يسألها عن سلامتها يوم وجدته، ولا حتى نطق لها "بالحمد الله ع السلامة" بل بدأ بسؤالها عما إذا كانت قد أخرجت معها المدخرات المالية أم لا، وهي التي خرجت من قلب قرية محاصرة بشدة، ومن وسط حقل ألغام تبحث عنه؛ أي عن زوجها، بعد أن لم تجد جثة له بين جثث الرجال الذين ذبحوا في القرية. كذلك تحدثت أم سعيد عن رجال من قرية مجاورة مرت بها وهي تفر من قريتها المحاصرة، فكان أول ما سألها هؤلاء الرجال عن "عرضها إن كان مصوناً؟"، أي ما إذا كان الصهاينة قد اعتدوا على النساء أم لا في قريتها. وهذا مثال من

روايات عدة أظهرت بوضوح ما كان يشغل اهتمام الرجال أثناء عملية التهجير. لقد كانوا يشغلون أنفسهم بأشياء مطلوب من المرأة أن تؤديها كحفظ شرفها في غيابهم وهن يفررن من الموت، وفي حمل مدخرات الأسرة.

كان على المرأة القروية أن لا تغفل عن تلك الحاجيات الأساسية. تقول أم أنور عن حماتها: "بقت شاطرة، وأطلعت الباطية ميخذيتها معها في اللجونة، وطلعت لمقص وتنكت جبنة مرصوصة وبوشة- مطربان سمنة ... ورحنا في الخلا، حماتي حطتا في حظنها خوف ينشم، نيمتا في حظنها وغطت عليه بشريطة واحنا نايمين هالليلة في الخلا من خوف ما الحيايا يشمينا، يشمين السمنة، شلحت حماتي خرقتها وغطتا...".

وبكت إحدى المبحوثات وهي تتذكر حماتها التي احتضنت الوسائد وماتت وهي تقول: "هذول لولادي هذول لولادي"، عندما أطلق العدو عليها النار وسط عملية الطرد الكبيرة التي حدثت في مدينة اللد. فقد أخرجت هذه المرأة الشهيدة "الوسائد" من بيتها في قريتها فلما كانت ملاحقة اللاجئين في اللد أبت أن تتركها.

ومن اللافت أن تحمل بعض النساء معهن العجين، حيث كن قد عجن قبل أن تتعرض القرية للهجوم ولم يتسن لهن خبزه في القرية نظراً لحاجتهن للخروج مسرعات فحملن العجين على أمل أن يخبزنه في مكان آخر ويطعمن عائلاتهن. وقد وجدت في المقابلات العديدة أن هذا الفعل لم يأت فقط من نساء كبيرات السن متمرسات في الحياة، ولكن أيضاً من صغيرات السن، ففتاةَ لَا تبلغ العاشرة من عمرها تحمل العجين وتخبزه في الطريق وتحتفظ بأواني العجن، تماماً كما فعلت نساء أكبر منها سناً. كما حملت الفتيات الصغيرات الدجاج "الحي" وسرن به في الطرقات يتعثرن مرة بعد أخرى فيقعن والدجاج "يقاقي" بين أيديهن، لكن دون أن يفلتنه من أيديهن.

وفّر الخروج ضمن العائلة الممتدة إخراج كميات أكبر مما باستطاعة العائلة النووية إخراجه. وحمل غياب الرجل المرأة عبئاً كبيراً في القيام بالعديد من المهام الرئيسة التي تحتاجها الأسرة، ولذا نجد أمهات لم يستطعن حمل شيء سوى الاهتمام بأطفالهن وقت الهجوم المفاجئ والزوج غائب، بينما في عائلات ممتدة فقد أخرج أفراد آخرون حاجيات لزوجة الأخ كالحيوانات المنزلية التي أخرجها عادة إخوة الزوج، وكالطعام، والأواني، والفراش، كما كانت تفعل الحماة على سبيل المثال.

الهلع وفقدان أو نسيان نساء لأطفالهن

حالة الخوف والجزع الذي تعرضوا له وهم يُهجّرون جعلتهم يوصفون كيف أن هذه الحالة تسببت بنسيان امرأة لطفلها، أو حملها وسادة بدل أن تحمل طفلها، أو فقدانه في الطريق وهي منشغلة بأطفالها الآخرين. وحدثت بالفعل حالات نسيت فيها أم طفلاً من أطفالها، وسط حالة الخوف والفوضى خلال عملية التهجير. وقد ذكر عدد من المبحوثات حدوث ذلك معهن. كذلك ظهرت في المقابلات الشفوية قصص عن نساء ورجال آخرين ممن تركوا طفلاً لهم. ويتمثل القاسم المشترك لهذه الحوادث فيما يلي: معظمها تحدث عن طفل واحد فُقد أو نسي، وأنه في كل الأحوال عاد فرد من عائلة الطفل أو الطفلة وعادة يكون الأم ومن ثم الأب، ومن ثم فرد آخر إلى المكان الذي فقد أو نسي فيه الطفل، وتتم استعادته في الغالب. جميع المبحوثات اللواتي نسين أطفالهن أو تركنهم لسبب ما عدن وتمكن من جلب هؤلاء الأطفال. كما تشترك المبحوثات اللواتي فقدن أطفالهن بكونهن صغيرات السن، أو لديهن عدداً كبيراً من الأطفال. أم فريد، على سبيل المثال، كانت تبلغ من العمر ٢٠ عاماً، وكانت قد نسيت طفليها خلال هروبها من مذبحة حواسة، وقد تركتهما معتقدة أن المعتدين لن يمسوهما، وعندما نبهها زوجها إلى خطر تركها للطفلين (ذكر وأنثى) فعادت وحملت الذكر وتركت الأنثى، وذلك وسط أحداث المذبحة. وتدعي أم فريد أن حملها للطفل دون الطفلة كان نتيجة للفزع أيضاً، وعدم رغبتها في إفزاع الطفلة، بينما كان الطفل رضيعاً ويحتاج لأمه أكثر، ولذلك تركت الطفلة نائمة وخرجت بالطفل. وبينما نجد أن حالة الخوف والفزع الشديد كان بالفعل العامل الذي تسبب بجعل بعض الأمهات وبعض الآباء ينسون أو يتركون أطفالهم، وعلى الرغم من كون الأغلبية كما تظهر المقابلات قد نسي أو فقد طفله وهو في حالة ذهول وجزع شديدين، فإن منهم آباء وأمهات أراد النجاة بنفسه وترك الطفل/الطفلة، معتقداً أن العدو لن يتعرض للطفل، وهو اعتقاد له ما يبرره في العقلية القروية التي اعتادت تحييد الأطفال وسط الاشتباكات الدمويّة. من جهة ثانية نستطيع القول إن تفضيل المجتمع القروي للذكور على الإناث قد لعب دوراً مهماً في دفع لاجئين لتفضيل إنقاذ الطفل الذكر وترك الأنثى، وإن الشيء اللافت للنظر في مقابلات هذه الرسالة أن تفضيل إنقاذ الطفل الذكر، وترك الأنثى كان من فعل المرأة ذاتها، ويظهر أن هذا الفعل قامت به المرأة من تلقاء نفسها، ولم يعرف به الرجل وقت حدوثه، والذي رفضه الرجل عند معرفته به.

إن قصة ترك السيدة رحيلة[٢] من بيت نبالا وهي لا تزال طفلة يبين تفضيل الذكر على الأنثى خلال عملية التهجير، ومن قبل النساء لا الرجال. فقد ولدت أم رحيلة ابنتها التي دعيت رحيلة نسبة لحال الرحيل الذي كان عليه أهالي قريتها بيت نبالا، في وسط الطريق.

تقول رحيلة:

"إمي طلعت من البلد وهي تطلق، وفي الطريق وما كان معها حد قعدت في جهة وولدتني وقطعت السّرة بحجر ولفتني بسروالها وحطتني ع الصنية وظلت ماشية، التقت بستي، إم أبوي، قلتلها ستي: شو جبتي؟ قالت بنت، قلتلها هاتيها أحملها عنك، وبعدين راحت أمي في جهة وستي في جهة، بعد شوي قعدت أمي وصارت بدها اتمصص البنت، وين البنت؟؟ وأجا واحد قريبنا وقال لأمي: كنك مخلفة؟ قالت نعم، قال وين بنتك؟؟ إمي قالت لستي وين البنت؟؟ ستي قلتلها بعرفش، إحنا بإيش وانتي بايش، تروح وين مطروح خلينا في اللي احنا في. صارت إمي تعيط وتصرخ وميت جاه ووجاه لمن ستي قالت وين حطتني، قالت لواحد من قرايبنا هيني حطيتها في المطرح لفلاني ظني تحت الزتونة لفلانية فراح وجابني لإمي".

وتقودنا قصة "رحيلة" إلى دور آخر مارسته المرأة القروية خلال عملية التهجير؛ ألا وهو تقرير مصير أفراد من العائلة. فجدة رحيلة لم تقرر فقط أن تلقي بالطفلة حفيدتها حديثة الولادة في الطريق لكونها أنثى ولتسقط عبء تربية الأنثى عن كاهل ابنها في الظروف القاسية التي يمر بها كل قروي –كما تعتقد الجدة – فإنها أيضاً قررت مصير زوجها أب أولادها. تذكر السيدة رحيلة هذه الحادثة فتقول: "سيدي مرضيش يطلع من البلد في الأول، لمن طلعوا كل الناس ودخلوا اليهود على الدور الظاهر انو سيدي بدا يخاف، بقت عندو ستي، قلها روحي جيبي ولادي يطلعوني من البلد خلص بدي أطلع. سيدي بقا ميقدرش يمشي (جدي لم يعد قادراً على المشي)، ستي حطت الأكل جنبوا وقربتلو المي وطلعت، وفي الطريق شافت زلام مقتلين، ولمن وصلت عمامي ما قالت لحدا روح جيب أبوك، قالت في حالها: أنا مش مجبورة أودي ولادي يتقتلوا، البلد بقت خطرة واللي يروح ينقتل، وبعدين لمن طول سيدي راحوا عمامي يدوروا عليه ما لقهوش ولا عرفنا إشو مصيرو أبداً ... ستي عجزت لمن كبرت وكانت تقعد وتظل تعيط وتقول: هاظا خطيتك يا ستي وخطيت سيدك (جدك)".

الهوامش:

[١] للمراجعة والاطلاع على الدراسة كاملة يرجى العودة إلى الرسالة المشار إليها أعلاه.

[٢] السيدة رحيلة، ولدت خلال التهجير، وأطلق عليها اسم رحيلة نسبة لحال أهلها وقتها، تقيم حالياً في كندا، وكانت في زيارة لفلسطين – مخيم الجلزون – وقامت بزيارتنا وهي قريبة لي، وسألتها حول ما أعرف عن قصة تركها وهي صغيرة فأخبرتني التفاصيل التي طالما تحدثوا بها في البيت، وبخاصة مع جدتها التي كادت تتسبب بفقد السيدة رحيلة وهي طفلة حديثة الولادة، كما تسببت في عدم عودة أبنائها لنقل زوجها العاجز عن الحركة من داخل القرية خوفاً من هذه الزوجة على حياة أولادها، حيث كانت قرية بيت نبالا قد وقعت تحت السيطرة الصهيونية التامة. تاريخ اللقاء مع رحيلة كان يوم الاثنين ٢-٨-٢٠٠٤.

التكيف والبقاء في السنوات الأولى بعد التهجير: دور النساء

حالة دراسية: مخيم الجلزون

حسين مغامس، طالب ماجستير في علم الاجتماع، وباحث مساعد في معهد دراسات المرأة.
فضل الخالدي، ماجستير علم اجتماع، مسؤول الشؤون الطلابية.
د. رنده ناصر، أستاذة في علم الاجتماع.

مقدمة

أصبح سرد الرواية الشخصية للنكبة التي تعرّض لها اللاجئون الفلسطينيون خلال عملية التهجير القسري، والتي هدفت إقصاء مجتمع بأكمله (عربي-فلسطيني)، وبناء مجتمع آخر على أنقاضه (إسرائيلي-صهيوني)، يكتسب اهتمام العلماء في السنوات القليلة الأخيرة (يحيى ١٩٩٨؛ سيقلي ٢٠٠٣؛ صايغ ١٩٩٨). ولكن أغلب المعرفة المتراكمة حول تهجير الفلسطينيين من بيوتهم وأراضيهم هي معرفة عامة تتعلق بعدد المهاجرين، والطرق التعسفية المختلفة التي استخدمت لتهجيرهم، وتوزيعهم الجغرافي وأوضاعهم الاقتصادية والديموغرافية والاجتماعية والسياسية في الأماكن التي لجأوا إليها (خواجة وبلوم ٢٠٠٣؛ سائدمان ٢٠٠٤؛ شلومو ١٩٩٥؛ صايغ ١٩٨٣؛ عاروري ٢٠٠١؛ كناعنة ١٩٩٢؛ يحيى ١٩٩٨).

ومع أهمية هذه المعرفة العامة التي تقدم لنا صورة ضرورية عن حجم الإشكالية والمعاناة التي تعرض وما زال يتعرض لها هذا الجزء المهجّر من الشعب الفلسطيني، فإن هذه المعرفة تبقى بعيدة عن المعرفة الفردية الخاصة المعمقة والحيوية لما حدث فعليا للاجئين في عملية التهجير، وما بعدها. الرواية الشخصية لنكبة التهجير، في نظرنا، ضرورية لأنها تقدم معاني وتفاصيل غنية لعملية التهجير والمعاناة الإنسانية الفعلية التي ترتبت على تلك العملية. وبعض العلماء الآن يدعون أن الرواية الشخصية يمكن أن تشكل مصدراً أفضل للتأريخ من المصادر التي يستخدمها المؤرخون التقليديون الذين ينتجون تاريخاً "غير حيوي، بعيداً، متمركزاً حول الطبقة العليا، وبالأحرى ميّت" (أيال، ٢٠٠٠). إضافة إلى ذلك، فإن الدراسات التي اهتمت بالسيرة الذاتية للاجئين، لم تهتم بالشكل الكافي لدور المرأة ومساهمتها خلال

سنوات التهجير الأولى (وبخاصة السنوات الأربع الأولى التي سبقت مأسسة خدمات وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين)، وفي عملية التكيف والتأهيل والبقاء في ما بعد ذلك. التاريخ والتأريخ والدراسات العلمية والإعلام الوطني الفلسطيني الذي يهتم بأحداث النكبة، لم يهتم وأسقط الفعل المحلي والشخصي النسوي، وبخاصة فعل هؤلاء النسوة من طبقة الفلاحين الفقراء من صفحاته (صايغ ١٩٩٨؛ حمامي ٢٠٠٤).

في دراستها حول دور النساء الفلسطينيات المهجرات في لبنان في رواية التاريخ، ركزت روز ماري صايغ (١٩٩٨، ٢٠٠٢) على بنية الرواية الشفوية للنساء، وأهميتها في الكشف عن المخزون الغني من المعرفة والمعلومات التي ستساعد على إغناء التأريخ وتخرجه من أفقه الضيق الذي وضعته فيه عملية الركون للمصادر الأخرى من المؤسسات الرسمية، التي غالباً ما اعتمدت روايات الرجال. بمعنى آخر، ركزت صايغ أكثر على ضرورة أخذ ما ترويه النساء في قصصهن بعين الاعتبار عند كتابة التاريخ، هذا التاريخ الذي تقول عنه أيضاً إننا لم ننته بعد من كتابته، فلا يوجد حتى اليوم منظور محدد يحتكر ويفرض نفسه كمهيمن وكمصدرٍ وحيد للتأريخ الفلسطيني الحديث.

نحن نتفق تماماً مع ما تطرحه صايغ، بل نحن أساساً ننطلق في بحثنا من تلك الدراسة، ولكننا نعتقد أنه إذا توقفنا هنا ستبقى الصورة ناقصة، وذلك لأن المرأة ليست راوياً جيداً للتاريخ فحسب، بل نعتقد أنها صانعة له وبامتياز في مرحلة عصيبة مر بها الشعب الفلسطيني، والمقصود عملية الاقتلاع والتهجير التي تعرض لها هذا الشعب سنة ١٩٤٨. لقد نقلتنا صايغ خطوة مهمة للأمام حين سلطت الضوء على هذه القصص"الحواديت"، التي تقصها هؤلاء النسوة في جلساتهن للعائلة وللأجيال الصاعدة. ونحن في دراستنا، التي نفذنا الجزء الأول منها في مخيم الجلزون، نحاول أن نتعرف على دور النساء في عملية التكيف والبقاء خلال فترة التهجير، والسنوات القليلة التي تلتها من وجهة نظر النساء أنفسهن، وذلك لإظهار مركزية دور النساء في تاريخ العائلة وتاريخ القضية الوطنية بشكل أوسع مما أظهرت صايغ، وبخاصة الجزء الذي عالج رواية النساء من الجيل الأول، هؤلاء النساء اللواتي وجدت الباحثة أنهن يعتبرن التهجير بداية لتاريخهن. بالتحديد، نحن نهدف إلى أن نؤكد، من خلال البحث الأمبيريقي للحصول على القصة الذاتية لهؤلاء النساء، على ادعاء فليشمان عن الدور الأساسي الذي لعبته النساء الفلسطينيات في الأحداث التاريخية الكبرى في بقاء المجتمع الفلسطيني. تقول فليشمان (١٩٩٤: ٧) إن النساء "تلعب دوراً كبيراً في هذا النوع من التاريخ (الأحداث المنفردة الكبرى). وبالإمكان أن نأخذ أحداث سنة ١٩٤٨ مثالاً على ذلك. فلولا الدور الذي لعبته النساء الفلسطينيات في أعقاب النكبة تثبيتاً لهويات العائلات وتماسكها، كان من الممكن أن يفقد المجتمع الفلسطيني ذلك التماسك الهش الذي استطاع الاحتفاظ به. النساء الفلسطينيات هن جزء لا يتجزأ من تاريخهن، ليس فقط

باعتبارهن ضحايا غير فاعلات، ولكن لكونهن مشاركات ناشطات أيضاً". ولكن ما قامت به فليشمان هو دراسة النشيطات في الحركة النسوية، وليس دراسة المرأة العادية، الفقيرة، والمهجرة، ودون أي مصدر ومقومات للحياة.

من الواضح أن المرأة الفلسطينية، بغض النظر عن وعيها الأيديولوجي السياسي أم الجندري، شاركت بمهام عدة، وبطرق شتى من "أجل أن تحمي استمرارية الحياة العائلية الخاصة، وتقوم بانجاز متطلبات هذه الحياة"، كما أظهرت بتيت (١٩٩١: ٢١٦) عن النساء في مخيمات لبنان بعد هزيمة العام ١٩٨٢. ولكن بتيب أكدت أن النساء قمن بهذا من "خلال طرق محددة للمرأة ثقافياً" (٢١٦). نحن نعتقد ونحاول أن نظهر، اعتماداً على معرفتنا الشخصية للأدوار التي قامت بها النساء القريبات لنا، أن المرأة الفقيرة والمهجرة قد لعبت أدواراً تجاوزت ما هو مفروض أو مرسوم لها ثقافياً في ظل ظروف النكبة الصعبة من أجل الحفاظ على حياة أفراد عائلتها، وهو ما أدى إلى الحفاظ على "التماسك الهش" (فليشمان ١٩٩٤) في المجتمع الفلسطيني بشكل عام.

نهدف من دراستنا إلى الكشف والغوص في ثنايا هذه القصص والحكايات التي ترويها النساء اللواتي عايشن التهجير، سنبحث من خلال الاستماع المعمق لهن في دورهن في تلك السنوات المفصلية في تاريخ الفلسطينيين، نتعرف على طبيعة هذا الدور اقتصادياً وإدارياً واجتماعياً، ونسأل، هل كان دورها مسانداً؟ كما ينعكس ذلك في معظم الدراسات السابقة التي أرّخت لتلك المرحلة (يحيي، ١٩٩٨)، أم أن دورها كان محورياً، أساسياً (بعض الدراسات حاولت الإشارة لأهمية دور المرأة في تلك المرحلة، ولكن تم التركيز على هذا الدور في حال غياب الرجل المعيل "الزوج، الأب، الأخ"). نحن نعتقد أن دور المرأة كان مركزياً مع وجود الرجل وليس في غيابه فقط، وسنحاول إظهار ذلك من خلال روايات النساء.

مصداقية قصص النساء المُهجرات

وجدت روز ماري صايغ (١٩٩٨) حين بدأت دراستها أن الأفكار السائدة والمهيمنة في مجتمعها الذي لا نراه يختلف كثيراً عن مجتمعنا، وجدت بل اصطدمت بتغيب رواية النساء وإهمال هذه الرواية حتى درجة الاستسخاف. فهي حينما طلبت من أحد الأساتذة الشبان ترشيح لائحة من المهجرين للاستماع لرواياتهم، قدم لها لائحة من عشرين اسم تغيبت المرأة منها. وفي السياق نفسه، وجدت حمامي (٢٠٠٤) أن صوت النساء مغيب إلى حد كبير من روايات نكبة الـ ١٩٤٨ المنشورة في الإعلام الفلسطيني والدراسات

العلمية عن النكبة والقرى المدمرة من قبل الإسرائيليين. وأظهرت كيف أن هذه المصادر تهمل دور النساء بالكامل إلا في مواضيع تتعلق في العرض والشرف، والزي، والأعراس. أيضاً، وعلى صعيد الاعتقاد السائد بين الأفراد العاميين، فقد أشارت فليشمان (١٩٩٤) إلى الاعتقاد الذي يؤكد إن المرأة غير قادرة على التعبير عن الأحداث التاريخية، وعلى أنها لم تفعل شيئاً للقضية. ولذلك ستطرق دراستنا إلى دور النساء، وبالتحديد دور النساء الفقيرات، في جميع أحداث النكبة والتهجير والتكيف فيما بعد.

هل يعود السبب لنمط الذهنية التقليدية السائدة التي تهمش المرأة تاريخياً حتى تسقطها تماماً من حساباتها؟ أم أنها العقلية نفسها التي تعتبر التاريخ كموضوع أكثر جدية من أن ترويه النساء؟ هل الرجال أكثر صدقاً وأقوى ذاكرة؟ أم أن وراء الأكمة ما وراءها؟

خلال عملية التحضير لهذه الدراسة، فاجأتنا قصة لها أكبر العلاقة مع موضوعنا هنا. نحن نعلم أن أحداث التهجير والطرد تم توثيقها وفحصها مئات، إن لم يكن آلاف المرات من قِبل العديدين؛ سواء أكانوا مؤرخين، أم سياسيين، أم حتى دارسين عاديين، ما فاجأنا أن رواية بعض الرجال للأحداث تختلف تماماً عمّا روته لنا هؤلاء النساء: (على سبيل المثال لا الحصر وجدنا التناقض التالي في رواية أحداث التهجير لقرية تدعى بيت نبالا قضاء الرملة). رواية الرجل وجدناها موثقة في نشرة أصدرتها جمعية بيت نبالا في الذكرى الخمسين للنكبة بعنوان أسبوع بيت نبالا، تقول النشرة بالحرف:

"وبعد يوم واحد من انسحاب الكتيبة العربية، انتهت الهدنة، حيث تم احتلال اللد والرملة والقرى المجاورة لبيت نبالا، وبدأ قصف القرية من أراضي دير طريف التي سقطت ولجأ أهلها إلى بيت نبالا، ومع اشتداد القصف العشوائي للقرية، اضطر أهلها إلى الرحيل يوم الاثنين في ١١-٧ في شهر رمضان".[١]

بينما في مقابلة مع "أم علي"، من بيت نبالا والساكنة في مخيم الجلزون، اتضح لنا أن هذا ادعاء ليس كلياً معبراً. فقالت "أم علي" بكل عفوية "خفنا خوف" ولما سئلت إذا ما قصف أحد عليهم وإذا قاوموا هذا القصف، أجابت "أم علي" وبكل تأكيد "لا لا لا، دير طريف وحنا وكلنا شردنا وما واحد ضرب علينا". ولما سئلت مرة أخرى إذا تشردوا لحالهم وبدون قصف، قالت: "لحالنا، بكوا يطقعوا ورانا يعني يطخطخوا ورانا بس، هزمنا، شو نسوي؟ مش داروا يقولوا ... شو بعرفك انتي؟ في دير ياسين بسوّوا، وفي دير ياسين بعملوا، والحمد لله خفنا وطلعنا".[٢]

وليس خفياً على أحد أن رواة القصة الخاصة بأهل هذه القرية كما القرى والمدن الأخرى مصدرها رجالها أساساً، فهل يميل الرجال إلى إعادة بناء الذاكرة لتكون أكثر قبولاً الآن، رواية تخضع لمفاهيم الرجولة والشهامة والشجاعة وتستبعد الثغرات وما قد يعتبرونه جبناً وانتقاصاً من صورتهم التي يريدونها. إظهار هذا التناقض في قصص الرجال والنساء

يجب على الإطلاق ألا يعني أن العصابات الإرهابية الصهيونية لم تستخدم أبشع أنواع الإجرام من أجل ترويع ما لم تقتلهم من أهالي القرى والمدن. ولكن هناك بعض القرى والمدن التي لم تتعرض مباشرة إلى الاعتداء الصهيوني، وأهلها رحلوا خوفاً من أن يتلقوا ما تلقاه غيرهم في أماكن أخرى.

لسنا نخجل من تاريخنا، ولا يجب البحث عن سبب أقوى من الرعب الذي زرعته عصابات الموت الصهيونية في قلوب الفلسطينيين في تلك الأيام لنبرر هجرتنا، بل نعتقد أن الخطر الأكبر هو في تغيير الرواية الفعلية، لأن الآخر سيسهل عليه إيجاد الثغرات فيها ودحضها، ومن ثم نبدو وكأننا نزور التاريخ في الجزئيات، وسيكون صعباً إقناع العالم بأننا لم نروِ الرواية كاملة.

نحن نعتقد مع صايغ أن للمرأة ما تقوله، وهي كما نعتقد أيضاً ليس لديها الكثير لتخفيه قصداً، ولهذا حين قابلنا بعض النساء من أهالي هذه القرية لم يدعين ما ذهبت إليه رواية الرجال، وأنهم تركوا أرضهم خوفاً على حياتهم وأعراضهم، وهذه الرواية الأكثر قرباً لِما حصل فعلاً.

نحن إذاً نرى أن رواية المرأة لما حصل لاعتبارات ذكرناها للتو، هي رواية أكثر عفوية، وبالتالي لا بد أنها الأصدق والأَنسب للتاريخ، وإن عارضنا مُعارض فلنقل أن روايتها كما رواية الرجل من الممكن الأخذ بها وليس إهمالها.

المنهجية

تعتمد دراستنا لجمع المعلومات أساساً على التاريخ الشفوي الكيفي باستخدام وسيلة المقابلات المعمقة مع مجموعة من النساء الفلسطينيات ممن عايشن النكبة، اللواتي لم تقل أعمارهن عن ١٥ سنة حينذاك، أي أن الحد الأدنى لعمر هؤلاء النساء الآن ٧١ سنة، ولأغراض البحث حاولنا البحث عمن هاجرن وكن متزوجات قدر الإمكان. قررنا قبل النزول للميدان والتقاء هؤلاء النساء أن نقلل تدخلنا في مجريات اللقاء ما أمكن، فكان مخططاً أن نطلب من النساء سرد أدوارهم وتجاربهم الحياتية من أجل سد متطلبات حياة العائلة في الفترة ما قبل وخلال وما بعد التهجير. ولكن عندما واجهنا صعوبة في الحصول على معلومات كافية تعكس عمق أدوارهم، ولمسنا ابتعادهن عن رواية مساهماتهن التي يعتبرنها هامشية مقارنة بدور الرجال، قررنا أن نلجأ إلى استخدام بعض الأسئلة المحددة وأسلوب الإلحاح من أجل إقناع النساء أن كل ما قمن به من عمل له أهمية عظمى في بقاء عائلاتهن وقضية وطنهم.

بدأنا بالبحث عن تلك الفئة من النساء عن طريق المعرفة الشخصية لأعضاء فريق البحث؛ اثنان من فريق البحث هما من أبناء مخيم الجلزون، وبالتعاون مع جمعية المسنين في المخيم. أردنا أن تتوزع هذه العينة القصدية على أكبر قدر من التنوع من حيث المكان الأصلي الذي تم تهجيرهم منه، كذلك أردنا أن تشمل المجموعة نساء من أصول مدينية وأخريات من أصول ريفية.

في نهاية العام ٢٠٠٤، وبداية العام ٢٠٠٥ أجرينا مقابلات مع ١٢ امرأة. ثلاث منهن من أصول مدينية، ومتوسط أعمارهن ٧٥ سنة.

اعتمدنا في المقابلات في البداية طريقة ترك النساء اللواتي تمت مقابلتهن تروين تجربتهن بأقل قدر من التوجيه والأسئلة، ولكن اتضح لنا سريعاً أن النساء كما هو المجتمع الذي تنتمين له لا تولين أي اهتمام لدورهن في تلك المرحلة، وغالباً ما يمارسن بغير قصد التعتيم عليه. لذلك، كان لا بد من الإلحاح في السؤال عن طبيعة دورهن حينذاك وإنعاش ذاكرتهن للدخول في تفاصيل لم يتعودن الحديث عنها أبداً. وغالباً ما استغرقنا ذلك أكثر من نصف ساعة من بداية المقابلة كي تبدأ هؤلاء النسوة الحديث حول تلك الأدوار دون استخفاف.

دور النساء في التكيف والبقاء والبناء خلال السنوات الأولى للتهجير (أهمية التفاصيل)

من المتعارف عليه أن تسليط الأضواء على ظاهرة ما يضخمها حتى تتجاوز حجمها الطبيعي، والعكس صحيح، بمعنى أن إهمال ظاهرة أو مسألة ما يقزمها حتى يصعب رؤيتها. وهذا ما نعتقد أنه حصل لدور المرأة الفلسطينية في عملية التأريخ الشفوي بشكل عام. فالكثير من القضايا في تاريخنا المعاصر استولت على اهتمام الدارسين والباحثين، ونقصد النواحي السياسية بالتحديد، وبالتالي تم تهميش دور النساء في حياة الفلسطينيين خلال السنوات الأولى التي تلت النكبة، وسواء أكان هذا بحسن نية أم سوء نية، فقد جرت العادة والاعتقاد أن هناك أولويات للتأريخ، والنتيجة أن هذا الجيل من النساء (جيل النكبة) يودعنا اليوم حاملاً معه أسراراً وحكايات ستكون خسارتنا عظيمة إن لم نكشف عنها اليوم.

من الواضح أن النساء استبطن الأيديولوجيا السائدة وبتن يسلكن طواعية تجاهل أنفسهن وتصغير أدوارهن، كما يحصل عندما تستهجن المرأة توريث ابنتها من مال الرجل (الزوج أو الأب) فمثلاً، قوبلنا بابتسامات ساخرة من قبل النساء حين سألناهن عن دورهن في تدبير أمور الأسرة خلال السنوات الأولى بعد التهجير، وأبدين ممانعة وعدم قناعة

بضرورة الحديث حول هذا (الصغائر)، واستهجن سؤالنا، فهن كما هو حال مجتمعهن استبطن[٣] النظرة ذاتها لأدوارهن واستخففنها، وكن يقلن عادة: يا بنيي خليها على الله" أو "ربك عانّا ودبرنا حالنا".

ولكن الذي كان يحدث بعد ذلك، وبعد شعورهن باهتمامنا الحقيقي بتلك الأعمال والأدوار، كن يبدأن التكلم والاسترسال بوصف الأعمال الشاقة التي قمن بها من أجل سد متطلبات الحياة الأساسية لهن ولأسرهن. تصوروا أن عبارة مثل "طبخت الطبخة للولاد" كانت تتطلب عملاً شاقاً قد يمتد لثلاث إلى ست ساعات، فالوقود هو الحطب، والحطب لم يكن متاحاً بتلك السهولة التي نظنها، لأن أعداد اللاجئين الهائمين في الجبال "كالنمل" كما تروي معظم النساء "لم يتركوا لا أخضر ولا يابساً"، فكان على المرأة العمل والبحث لساعات طويلة منذ الصباح الباكر لجمع ما غابت عنه أعين الآخرين: تقول أم راسم:

"والله مثل ما بقلك نجمع الحطب ونبيعه مقابل رغيف خبز للولاد، وكان عندي شوية نحل اطلعتهم معانا من البلاد، والله كنا جيب الحطب من مسافات طويلة من عين كينيا ومن عند المزرعة ومن جبل عند الطيرة على روسنا، كل يوم ثلاث أربع نقلات مش بس أنا كل نسوان المخيم".

وتضيف:

"بس أهل جفنا بكو (كانوا) أحسن من أهل سردا وأبو كش، إذا لاكوك (وجدوك والمقصود أهل سردا أو أبو قش) محزّم حزمة من حطب الخشب يخلصوها (يأخذوها) منك، حزمة الحطب يوخذوها...، بتعرف وين بكينا نروح؟ في واد بقولوله الصوان (يبعد ٣ كيلو عن مخيم الجلزون) لسه تحت منّه بقينا نروح نجيب حبة النتش، بكينا (كنا) مع أذان الصبح نسري عالحطب".

وتقول هاجر:

"بقينا نبيع حبة هالترمس نجيب ربع ليرة ("١٥" قرش) يعني ما بقاش مصاري (نقود)، كانت الوكالة تطلع حبة الطحين (قليل من الطحين) أتساعد الناس، وإحنا (نحن) نسرح على الزيتون. أه والله بقينا نروح نحطب من وادي موسى ومن رام الله نجيب الحطب، ونخبز على النار".

وكذلك الماء، فقد كان توفير بعض الماء الصالح للاستخدام البشري له قصة أخرى، تقول "أم طارق"، وهي سيدة في أواخر السبعين من عمرها، إنها كانت تذهب إلى عين الجلزون التي تبعد عن سقيفتها مشي ساعة لإحضار "تنكة ماء" (أي ١٥ لتراً) لتجد العشرات من النساء ينتظرن دورهن. وبعد عناء كانت تملأ تنكتها وتحملها فوق رأسها عائدة للبيت، وكم من مرة زلت قدمها لطبيعة الطريق المنحدرة نحو بيتها ليذهب تعبها هباء. وماذا عن المواد اللازمة للطهي؟ أجمعت السيدات التي قابلناهن أن الطبخات التي

استحدثنها لمواءمة شح الموارد كانت تعتمد أساساً على البقوليات من عدس ورز مسلوق في كمية كبيرة من الماء، ليعم على الأفواه الجائعة، والكثير من الوجبات كانت تعتمد على ما تعف عنه المواشي وتتركه للبشر. تقول "أم حسن"، التي كانت في العشرينات من عمرها عند التهجير: "أي يخلف على الله إللي ما خلق الغنم توكل كل شي، كان ما لقينا اللظا (ما يقتاتون به)".

وماذا عن الخبز؟ الأسرة المحظوظة كانت تجد رغيفاً واحداً في يومها. تقول "أم طارق":

"ما كانش أوليتها (في البداية) لا طحين ولا عجين، منين يا بنيي؟ وذا بدك تشحد مين معاه يشحدك؟ والله بقيت أروح أخدم في البيوت في جفنا للعصر عشان (حتى) أزم لرغيف وروّحه (أخذه) لولادي، والله بقيت أتحير لمين ولا مين أطعميه، علي بقا (كان) ابن ٤، ٥ سنين، ولا للزلمه (زوجها)، ولا آكل أنا اللي ميته جوع، بلاكن شو بدي أسوّي، والله كثير مرات بقيت أقسم الرغيف عيومين".

كان تحضير الطعام وحده بغياب الأواني والأدوات يحتاج لعقليات مدبرة أرادت الحياة حين أريد لها الموت، فلم تتوفر الأواني إلا ما ندر، والموقد البسيط سبق (البابور) الذي كان أمنية بعيدة المنال، ناهيك عن الكماليات مثل الملاعق مثلاً.

وعن تدبير الطعام تقول "أم عادل":

"بقينا نحط حجر من هان وحجر من هان وتحط القدرة .. كانت قدر فخار...ويطبخ الواحد خبيزة ... مهندبا .... يروح يلقط من السهل ... يلقط ورق دوالي يلفه من دون لحمه ... نتفة الرزات ونتفة الجريشه ... ما كانوش يوكلوا الا الجريشه ... يعني الناس مرقوا سنتين تلات ...".

وعن دور النساء اللاجئات في توفير الدفء لأسرهن، وبخاصة الأطفال والمسنين في تلك السنوات التي كان شتاؤها قاسياً، فهؤلاء أتوا من مناطق ساحلية ذات مناخ مختلف، فلم يعرفوا الثلوج والرياح القوية، واعتادوا على درجات حرارة لا تتدنى تحت العشرة شتاء، أما هنا في الجبال فالطقس قاسٍ جداً، وبخاصة بغياب المسكن الثابت، وأبسط وسائل التدفئة مهما كانت. تقول "أم حَسن":

"ساعات الفجر ينيي بقت تصير السكعة (البرد) تقص المسمار في الشتا، وبقا لا نار ولا بخار، بقيت وحيات ربي أزقهم (أولادها) تحت خلقي (ثوبي) على لحمي أشدهم وأصير انفخ جوّا قبة الخلق، ولا كيف بالك عشنا؟".

ولإلقاء الضوء على كافة الآليات التي لجأت لها النساء للتكيف والبقاء سيلزمنا وقت لا تتيحه المساحة المتاحة هنا؛ توفير الملبس لم يكن مسألة عادية، ولكن النساء تعلمن تصغير ملابس الكبار للأصغر، وترميم البالي منها بالترقيع، وعالجن أكياس الطحين التي

كانت توزعها الوكالة ليحولنها إلى سراويل للرجال وملاءات نوم وأغطية وحقائب مدرسية وغيره.

وتحدثت النساء عن غسيل الملابس بالحجارة، والتغسيل بالتراب، وتطهير الجروح بعصارات الطيون (نبات بري)، وتحدثن عن مكافحة القمل والبق والأوبئة، وتحدثن عن دورهن واهتمامهن بتعليم الأبناء والبنات، أخبرننا كيف كن يوفرن القرش على القرش دون علم أزواجهن ليواجهن الأيام والمجهول ... وأخبرننا أيضاً أنهن فوق كل هذا كن ينجبن كل سنة أطفالاً كي تستمر الحياة.

إننا نعتقد الآن وبعد الاستماع لرواية هؤلاء السيدات العظيمات، أن بقاء أطفالهن على قيد الحياة حينذاك كان ضرباً من المعجزات. وبدون الجهد الجبار الذي قامت به النساء على جميع الأصعدة في حياة عائلاتهن، وبخاصة حين كان رجالهن (أزواجهن، وآبائهن، وأخوتهن) يشعرون بالمهانة والذل، ويعانون الصدمة حتى استسلم معظمهم لليأس والركون والانتظار، لما كانت قد تحققت هذه المعجزات؛ و"كان من الممكن أن يفقد المجتمع الفلسطيني ذلك التماسك الهش الذي استطاع الاحتفاظ به".

تجاوز النساء الفلسطينيات لتقسيم العمل الجنسي في التجمعات الجديدة (المخيمات) في السنوات التالية للنكبة

يبدو لنا جلياً الآن أن معظم النساء المهجرات (حيث لم نجد من مشاهداتنا أي فروق تذكر بين الريفيات والمدينيات) شاركن بفعالية في آليات التكيف والبقاء لهن ولعائلاتهن، ومن ثم البناء في المخيم. وكشفت لنا روايات هؤلاء النساء عن تفاصيل غنية حول هذا الدور.

وجدت النساء بين ليلة وضحاها أنفسهن في واقع حياتي صعب، واقع فيه النساء تحملن المسؤولية الكبرى، وذلك لأن الرجل كان، كما ذكرت إحدى النساء، "حاضراً غائباً" يعاني من صدمة عميقة في ذكورته ورجولته بعد ضياع الأرض. ويبدو أن هذه الصدمة طالت الرجال أساساً، كونهم وفي مجتمع تقليدي يتحملون وحدهم مسؤولية الأمن وحماية الأرض والعائلة. فالأب حينما يوصي بصون الأرض يوصي الذكور وليس الإناث. ولكون الأغلبية منهم تركت البلاد هرباً بتأثير الدعاية الإرهابية الصهيونية ومذبحة دير ياسين، ولم يشاركوا فعليا في المعارك والدفاع عن الوطن، لم يتحمل أغلبيتهم هذه الحقيقة، وقد أشارت معظم النساء إلى حال أزواجهن حينذاك، فالزوج تائه قليل الكلام، محبط وكأنه فقد عقله.

وبالمقابل لم نلمس من روايات هؤلاء السيدات أنهن عانين الصدمة ذاتها، لكون المجتمع لم يحملهن، ولم يحملن أنفسهن بالتالي هذه المسؤولية، على الرغم من كون الرواية السائدة التي نعتبرها ذكورية أيضاً، تحمل النساء مسؤولية من منحى آخر، فغالبا تقول الرواية أن الرجال هربت خوفاً على عرضها بعد ما سمعوه من قصص الاغتصاب والخطف التي يمارسها اليهود ضد النساء. وبالتالي، بات مطلوباً من النساء التصرف والمبادرة، العمل والتدبير، وحتى التفكير عوضاً عن الرجل. ويبدو أنه ليس صحيحاً ما تذهب إليه الكثير من الروايات الدارجة من أن النساء تحملن المسؤولية في ظل غياب الرجل الجسدي (السفر أو الوفاة). فقد ثبت لنا أن الرجل كان موجوداً جسداً ولكنه غائبٌ فعاليةً بسبب الصدمة. قالت "أم موسى": "شو بدنا نعمل؟ لا شغلة ولا عملة، الزلمة قاعد ما في شغل". وحين سألنا عن كيفية تدبرهم في هذه الحال قالت:

"والله مثل ما بقلك (أقول لك) نبيع حطب للفرن، الحطب من عند عين كينيا (تبعد أكثر من ١٠ كيلومتر) والمزرعة (٦ كيلومتر) ومن جبل عند الطيرة على روسنا كل يوم ثلاث أربع نقلات. وشو بدنا نسوّي (ماذا نستطيع عمله)؟ بدها تعيش الناس. وفي البنى، كنا نجيب الحطب ونبيعة للفرن. مشايخ تقول اشغلنا في بيع اللحمة، كنت أوقف في نص السوق وأبيع اللحمة للناس مع زوجي، وأخرى من باعن البيض واللبن وربو (قاموا بتربية) الجاج والأغلام وكن نزرع ونحصد والله اشتغلنا أكثر من الزلمة عشان نقدر نعيش ونعيش أولادنا ونعلمهم. رحنا نحوش مصاري من الشغل بدون معرفة الزلمة نحوش المصاري للأيام الجاية علشان نبني ونعلم الأولاد، كنا نحط القرش فوق القرش عشان نعيش لأنه بكرة بكبروا الأولاد. والله النسوان تعبو وشتغلو أكثر من الزلام والله اتعبنا في حياتنا".

وتقول "أم نصار": "يوم ما قعدنا في عمواس، أهل عمواس ما بدهمش (لا يريدون) يقعدونا بالدار، مش قادرة أتصرف أبيع الغنم اللي معي، قلت والله أنا بعرف شيخ في بيت نوبه، بكره بدي أروح عليه أشوفه، رحت عليه قلتله يا شيخ حسن أنا قظيتي (قضيتي) هيك هيك، قال الله أكبر يا "أم إبراهيم" هاي الدار إلك وللبقر تعالي،......، قعدنا في يجوز صرنا نفلح وندرس ونحصد وظلينا في يجوز لما مات الزلمة (زوجها)". فالزلمة كان موجوداً هنا، ولم يكن لا مسافراً ولا سجيناً، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان واضحا أن من يدير الأمور هي عايشة وليس زوجها رحمه الله.

فعلياً، النساء المهجرات التي قابلناهن قمن بجميع الأعمال المتاحة، وأبدعن بخلق ما هو غير متاح لسد متطلبات الحياة حتى الأعمال التي تعتبر تقليدياً من مهمات الرجال مثل الحراثة ورعاية المواشي والبناء وحتى أعمال التحجير. كما لاحظنا، وكما وجدت صايغ (١٩٩٨)، أنه ما أن تجاوزت النساء اللحظات الأولى من المقابلة وتخطين عنصر الخجل من التكلم عن أنفسهم وأهمية أدوارهن، حتى أصبحن يعتبرن أنفسهن محور الحياة

لعائلاتهن، أو حتى محور التاريخ لعائلاتهن. تقول "أم إبراهيم":

"أنا أمي ملهاش حدا غيري، كانت أمي حامل في أنا عندما توفى أبي، ٥ أولاد وكل أخوتي ماتوا "الجبر على الله "واحد قتلوة الإنجليز. طيب، أمي كانت تحرث وتذري وتحصد وكانت أمي أكبر زلمة ما يساوي زيها (مثلها) وتبذر حتى كبر أخوي، أخوي أبو محمد، أنا بقيت أشطر منه. بقت أرعي وأدرس وراء البقر. كان عمري "١٢، ١٣" سنة. أخوي ما بعرفش. بقيت أدرس وأروح أرعي البقر ومجموعة من البنات أكبر مني. النسوان زمان كانت تحرث وتدرس وتلقط زيتون ويروحوا عالبيارات. وأنا يوم ما أجيت على المخيم، جبت معاي سيارة حب عدس وقمح. بعدين صرنا نروح على الزيتون ونلقط، والله أني بنيت دار في قرية جفنا أنا وحياة أبو سليم الله يرحمه قال يا "أم إبراهيم" تشتغلي معاي في البناء. والله بنيت أنا وإياه دار، وأنا انقله حجار. في قرية جفنا، بقوا يعطونا ثلاث قروش في اليوم. بعدها أنا اشتغلت في مدرسة الجلزون نائبة أمسح وأنظف، كانوا يعطونا ٦ ليرات، فتحوا بعدها مستشفى تابع للجيش قالوا بعطوا الجيش مصاري كثير، رحت واشتغلت عندهم فترة طويلة. في أول الهجرة كان كل الاعتماد على النسوان، كنت اشتغل في أي شيء، مكانش (لم يكن هنالك) في مصاري مع الناس، كيف بدها تعيش من المساعدات بكفيش هذا الشي، الأيام الأولى كثير كانت صعبة. إحنا اللي شفناها شو، كل أيامنا سود، خصوصاً لما اطلعنا من بلدنا وتركنا الأرض والرزق والبيت وكل أشي".

نحن نتكلم عن السنوات الأولى التي نعتبرها سنوات حاسمة ومفصلية في تاريخ الشعب الفلسطيني المُهجر الحديث، ولا نتحدث عن السنوات التي تلتها، حينها عاد الكثير من الرجال لرشدهم وعادوا ليتحملوا مسؤولياتهم مما خفف العبء عن النساء، ولكن لم ينته دورهن في رسم صورة الواقع حتى اليوم.

الكثير من النساء اللواتي قابلتهن أشرن إلى تحسن الأوضاع بعد سنوات عدة من التهجير، وعزين ذلك إلى أمور عديدة من أبرزها عودة الرجل ليعمل. وغالباً ما كانت تلك العودة للعمل تحت ضغوط منهن، وحث متواصل لرجالهن للالتفات للحاضر، وترك الماضي وصدمته للزمن.

بعض النساء أشار لعدم توفر فرص عمل للرجال حينذاك. وعندما سألناهن حول عدم مشاركة رجالهن لأعبائهن الأخرى، كن يعتبرن ذلك ليس من عمل الرجال. ولكننا تفاجئنا بأن "أم طارق" خرجت وحدها من مخيم الجلزون إلى الخليل لشراء بغل للحرث، حيث اضطرت للمبيت في كراج الباصات، فهل هذا جزء من عمل النساء؟ أم سعيد تقف وسط السوق تقطع اللحم وتبيعه، وهذا أيضاً هل هو من ضمن التقسيم الجنسي لعمل النساء؟ أم حسين خرجت لتتسول الخبز لأبنائها من رام الله ... سيدة أخرى كانت تقوم بضمان أرضٍ وقطف زيتونها من جفنا. وغيرهن ومثلهن الكثيرات الذي قمنا بأعمال تقليدياً تعتبر أعمالاً

للرجال، وكلهن كان أزواجهن معهن ولم يكونوا غائبين.

وليس هذا فقط، فكثير من النساء عبرن عن المعاملة السيئة التي تلقينها من أزواجهن لا لشيء إلا لأنهن حثوا رجالهم على توفير الأموال لشراء "شقفة (قطعة) أرض علشان نبني في المستقبل بدل ما انظل في سقايف الزينكو"، أو لأنهم قاموا بتوفير الأموال من أجل تعليم أبنائهم (أم ناصر). في أغلب الحالات، منعت النساء من قبل أزواجهن من توفير الأموال وشراء الأراضي أو المواشي أو من حيازة ملكية ما لتعيل العائلة وتحسن من وضعها الاقتصادي. وكثيراً ما تعرضن للضرب من قبل هؤلاء الأزواج الحانقين لمجرد إثبات رجولتهم المفقودة المطعونة، تقول "إم علي":

"والله بكيت أتمنى أشتري أرض تنفع لولاد بس لختيار بدوش (لا يريد)، بس أفتحلوا السيرة هاي يهب في بدو يذبحني".

وتقول "أم ناصر"، المدينية الأصل "كنت آخد شوية مصاري من هون ومن هون وحوشهم، مصرفش ولا قرش، أنا ما يهونليش أشتري حسنة (أي شيء للأكل) أحطها بتمي، أحوشهم ... في خوف من أن يعرف الزلمة ... والله كان يضرب لما يعرف، ولكن ضليت احوص لحتى بنيت البيتين هدولاك". ورداً على سؤال الاستعجاب من الباحثة، "انتي اللي بنيتيهم؟" قالت: "آه أنا، ولا جوزي إشي بأى (كان) يتعرف علي". وتقول إجابة عن سؤال عن دورها في السنوات الأولى: "معملتش، والله طلبوني أدرس أنا بس ما رضيش الزلمه بتاعي، بقت الزلام زمان تحكم، اليوم بحكموش".

خلاصة

توصلنا في هذه الدراسة لثلاث ظواهر لم تتطرق لها الدراسات السابقة بشكل كافٍ بالنسبة لدور المرأة الاقتصادي والاجتماعي في حماية المجتمع الفلسطيني خلال أحداث النكبة الفلسطينية. **أولاً**، وجدنا أن المرأة كان لها دور أساسي وليس فقط مساند لدور الرجال في عملية الحفاظ على العائلة، وبالتالي في بقائها وتكيفها بعد فقدان كل مقومات الحياة من أرض، ومال، وغذاء، وماء، وملبس، وحتى فقدان بعض أو كل أفراد الأسرة، كما أظهرت دراسة صايغ (١٩٩٨). المرأة أخذت على عاتقها تلبية جميع حاجيات عائلتها، حتى لو تطلب الأمر العمل خارج الحيز المسموح لها تقليدياً أن تتواجد به (تقسيم العمل التقليدي)، وقامت بأعمال مخصصة تقليديا للرجال، كحرث الأرض وتضمينها، والجزارة، والسفر إلى قرى ومدن خارج مكان سكنهن لدواعي العمل والتجارة. من هذه المقابلات نستنتج أنه كان للمرأة المهجرة دور أساسي في معركة صراع البقاء ولم يقتصر دورها على

المساندة في صنع تاريخ عائلاتهم، وبالتالي في صنع التاريخ الوطني كما أظهرت دراسة صايغ (١٩٩٨).

ثانياً، وجدنا أن هذا الدور الأساسي الذي قامت به النساء المهجرات لم يقتصر على النساء اللواتي خسرن أزواجهن أو رجالهن (الأخ، أو الأب أو الابن)، بسبب الوفاة أو السجن أو السفر. ووجدنا أن جميع النساء اللواتي قابلناهن (١٢ سيدة) قمن بدور أساسي في الحفاظ على بقاء وتكيف ورعاية أسرهن، حتى هؤلاء اللواتي أتين من المدن، وكان عملهن يقتصر على وظائف منزلية بحتة قبل التهجير. هؤلاء النساء قمن بجميع الأعمال المنزلية، وبأعمال خارج المنزل بينما رجالهن يتسامرون في المقاهي أو "على السناسل" ينتظرون العودة إلي بيوتهم وأراضيهم في حالة من الذهول والضياع. لقد كان هؤلاء الرجال المطعونون في رجولتهم المتخيلة موجودين جسداً غائبين فعاليةً، بل إن بعضهم شكل عائقاً في طريق المرأة بمنعها من العمل خارج المنزل أو بالحيلولة دون وسائل تدبيرها البسيطة في توفير المال للقادم من الأيام.

امرأة واحدة فقط كان لديها الحرية في التصرف في اقتصاد العائلة، وهي الآن لديها أملاك واسعة تورثها لأبنائها. هذه المرأة ادعت أن زوجها كان بسيطاً وغير قادر أن يقوم بالأدوار المنوطة به وتغاضى عما تقوم به ويتعارض والثقافة التقليدية السائدة، وبالتالي لم يستطع منعها من التصرف بحرية في بناء اقتصاد عائلتها، (حالة "أم طارق").

ثالثاً، نفترض، وهذا بحاجة إلى دعم علمي، أنه من الممكن للمرأة أن تكون مصدر أكثر مصداقية لسرد رواية التاريخ من الرجل، وذلك لأنها في المجتمعات العربية التقليدية غير مطالبة بالدفاع عن الأرض والشرف. وهي إن تعرضت للاعتداء لا تتعرض للوم الذي يتعرض له الرجال، وهي لهذا بقيت في منأى عن اللوم وتعذيب الضمير، ما سمح لها بالتفكير المتزن أكثر من الرجل خلال النكبة وبعدها. وهذا السبب نفسه -كما نعتقد- الذي يعفيها من التلاعب بالرواية الحقيقية للتاريخ، فليس لديها ما تخفيه وتجمله وتمرره في مرشح ميولها. فكما ذكرنا سابقاً، يميل الرجال حين يسردون رواية التهجير للابتعاد عن مصطلحات مثل الهرب، والخوف، وينسجون في عميق لاوعيهم وظاهره قصصاً ترضي رجولتهم التي هزتها النكبة في الصميم.

أثبتت المرأة - في ظل أزمة الرجال العميقة، وبالتالي غياب الرقابة المجتمعية التقليدية في ظل ظروف النكبة غير العادية والتهجير والتجويع - أنها الأقدر على القيام بالأدوار الضرورية داخل وخارج المنزل من أجل الحفاظ على بقاء أفراد عائلتها، وبالتالي استمرار مجتمعها وقضيتها. فهي بالتالي صانع أساسي من صناع التاريخ مع الرجال، وناضلت من أجل الحفاظ على أرضها وكرامتها لأنها حافظت على الأجيال القادمة للقضية وللوطن. فالتاريخ والتأريخ الذي يهمل دور النساء الأساسي في أحداث النكبة وجميع النكبات التي

تلتها إلى الآن هو تاريخ غير كامل، وبالتالي لا يصلح لفهم واقع القضية الفلسطينية في الماضي، والحاضر، والمستقبل.

الهوامش:

[1] أسبوع بيت نبالا: ١٩٩٨، ص ١٢.

[2] من مقابلة مع "أم علي" من مخيم الجلزون، شهر ٣-٢٠٠٥.

[3] هنا قد يفيد الباحث والمعني العودة لكتابات ألتوسير حول أيديولوجيا الأيديولوجيا (الأيديولوجيا وأجهزة الدولة الأيديولوجية: مقال لألتوسير نشر في مجلة (La Pansee)، وأعيد نشره في كتاب *Positions*, Editions Socials (1976).

المراجع العربية:

أريكا، واعتماد مهنا. ١٩٩٢. **دراسة عن المرأة والعمل في مخيم الشاطئ للاجئين في قطاع غزة**. القدس: الملتقى الفكري العربي.

أيال، جل. ٢٠٠٤. "الهوية والصدمة"، مجلة **التاريخ والذاكرة** ١٦: ٥-٣٦.

خواجا، مروان. غير منشور. "الهجرة وإنتاج الفقر: اللاجئون في مخيمات الأردن"، **مركز الأبحاث للسكان والصحة، الجامعة الأمريكية في بيروت**.

عقل، محمود. ١٩٩٢. **عين بيت الماء، مخيم اللاجئين الفلسطينيين**. القدس: الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية.

صايغ، ماري. ١٩٨٣. **الفلاحون الفلسطينيون من الاحتلال إلى الثورة**. القدس: مؤسسة الأبحاث العربية.

صيقلي، مي: توسيع حدود التاريخ: الذاكرة والتسجيل الشفوي في إعادة بناء التراث التاريخي الفلسطيني، ورقة بحث قدمت في **المؤتمر الدولي التاسع الذي عقده معهد أبو لغد للدراسات الدولية في جامعة بيرزيت** يومي الجمعة والسبت بتاريخ ٢١ و٢٢/١١/٢٠٠٣.

فليشمان، ألين. ١٩٩٤. **التنظيمات النسائية في القدس في فترة الانتداب البريطاني**. القدس: الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية.

كناعنة، شريف. ١٩٩٢. **الشتات الفلسطيني: هجرة أو تهجير**. القدس: مركز القدس العالمي للاجئين الفلسطينيين.

يحيى، عادل. ٢٠٠٢. **بين انتفاضتين: التاريخ الشفوي الفلسطيني**. المؤسسة الفلسطينية للتبادل الثقافي.

يحيى، عادل. ١٩٩٨. **اللاجئون الفلسطينيون ١٩٤٨-١٩٩٨: تاريخ شفوي**. المؤسسة الفلسطينية للتبادل الثقافي.

غازيت، شلومو "قصية اللاجئين الفلسطينيين، الحل الدائم من منظور إسرائيلي"، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد ٢٢، ربيع ١٩٩٥.

معاري، لينا. ٢٠٠٤. "عمل النساء الفلسطينيات الريفيات في فترة الاستعمار البريطاني: ما بين البعدين

الاقتصادي والثقافي". **دورية دراسات المرأة**، جامعة بيرزيت مجلد ٢.

موريس، بيني. **طرد الفلسطينيين وولادة مشكلة اللاجئين، وثيقة إسرائيلية**، عمان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، ط١، ١٩٩٣.

المراجع الأجنبية:

Peteet. Julie. 1991. *Gender in Crisis: Women and the Palestinian Reisistance Movement.* Colombia University Press. New York.

Hammami.Rema: "*Gendre, Nakbe and Nation; Palestinian Women's Presence and Absence in the Narration of 1948 Memories",* **Review of Women's Studies**, Palestine, Institute of Women's Studies: VOL:2. Pp: 26-41.

Sayegh R., 1998, "*Palestinian Camp Women as Tellers of History",* **Journal of Palestine Studies**, n 2, 42-58.

Sayegh R., 2002, "*Remembering Mothers, Forming Daughters; Palestinian Women's Narratives in Refugee Camps in Lebanon",* in **Women and Politics of Military Confrontation**: **Palestinian and Israeli Gendered Narratives of Dislocation**, Edited by Abdo N and Lentel R., Bergham.

النساء وانتخابات المجالس المحلية

نادية حجل - بقلة

يمثل المقال التالي أبرز نتائج بحث عنوانه "النساء وانتخابات المجالس المحلية: ما بين الفرص والمعيقات"، الذي أعدته الباحثة نادية حجل-بقلة كجزء من متطلبات برنامج ماجستير المرأة والتنمية والقانون بجامعة بيرزيت. وأشرفت على البحث د. إصلاح جاد. والبحث مؤرخ شباط ٢٠٠٥. ولا تشمل الورقة المنشورة هنا الملاحق والمراجع، وقد تم اختزالها بما يتلاءم مع حجم وأهداف الدورية، وبما يعكس، قدر المستطاع، منهجية البحث وتسلسل أفكاره واستخلاصاته.

تقديم

شهد الثالث والعشرون من كانون الأول للعام ٢٠٠٤ التجربة الأولى في التاريخ الفلسطيني، التي تترشح فيها نساء فلسطينيات لمقاعد في مجالس محلية. كما شهد هذا التاريخ التجربة الانتخابية الأولى لهيئات المجالس المحلية في ظل السلطة الفلسطينية. فالانتخابات المحلية السابقة جرت في العام ١٩٧٦ تحت إشراف سلطات الاحتلال الإسرائيلي وسيطرتها. وبعد قيام السلطة الفلسطينية، أصدرت وزارة الحكم المحلي الفلسطينية مرسوماً العام ١٩٩٦ يقضي بتعيين امرأة واحدة في عدد من المجالس المحلية، وقد بلغ عددهن ٥٩ امرأة وفقاً لوثائق وزارة الحكم المحلي. وأشار تقرير التنمية البشرية الفلسطيني للعام ٢٠٠٢ إلى أن ٥٢ امرأة تشغل عضوية المجالس المحلية والبلدية مقابل ٣٥٣٥ رجلاً. ويؤكد الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني (٢٠٠٣) على أن نسبة تمثيل النساء في المجالس المحلية لم تتجاوز ٢٪ على مستوى الأراضي الفلسطينية، ويشير إلى أن أعلى نسبة تمثيل للنساء كانت في منطقة بيت لحم، حيث بلغت ٤,٥٪ مقابل ٠,٥٪ في نابلس، في حين خلت محافظة أريحا وجميع محافظات قطاع غزة من أي تمثيل للنساء في المجالس المحلية. وفي كانون الأول من العام ٢٠٠٤، جرت أول انتخابات فلسطينية لهيئات المجالس المحلية -في ظل السلطة الوطنية- في ٣٦ موقعاً: (٢٦ موقعا) في الضفة الغربية، و(١٠ مواقع) في قطاع غزة، على أن يتم استكمال المراحل اللاحقة للانتخابات لتشمل ما يقارب ١٢٠ مجلساً محلياً في كل من الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة.

وشاركت ١٣٩ مرشحة في انتخابات الضفة الغربية التي جرت في كانون الأول الماضي، وفازت منهن ٥٩ امرأة مقابل ٨٥٢ مرشحاً فاز منهم ٢٥٤ رجلاً؛ أي تمثلت المرأة بنحو ١٧٪ من مجموع المقاعد البالغ عددها ٣٠٦ مقاعد. وقد فازت ٣٥ امرأة منهن على أساس تنافسي مع الرجال، الأمر الذي يعتبر إنجازاً للحركة النسوية الفلسطينية، وفازت ٢٤ امرأة على أساس مبدأ التدخل الإيجابي (الكوتا). ولا شك في أن قرار المجلس التشريعي الفلسطيني في تشرين الثاني ٢٠٠٤ –أي قبيل الانتخابات– بأن يتم تضمين قانون انتخاب هيئات المجالس المحلية للعام ١٩٩٥ بنداً ينص على وجوب تخصيص مقعدين للنساء كحد أدنى في كل مجلس محلي، ساهم في خلق فرص للنساء وتشجيعهن للترشح والمشاركة في العملية الانتخابية. ويظهر ذلك لدى مقارنة عدد المرشحات المسجلات لدى اللجنة العليا للانتخابات المحلية قبل وبعد إقرار مبدأ التدخل الايجابي في القانون الانتخابي، حيث بلغ عددهن ٥٦ مرشحة فقط قبل سن القانون، في حين ارتفع العدد ليصل إلى ١٥٢ مرشحة بعد سن القانون (انسحب البعض لاحقاً)، حيث خاضت الانتخابات ما مجموعة ١٣٩ مرشحة (جريدة الأيام: عدد ٣٢٣٠).

يشكل حصول النساء على ١٧٪ من مجموع المقاعد خطوة أولى في سبيل تحقيق المساواة بين الجنسين. وتستدعي هذه تحليلاً لنوعية الفرص التي أتيحت للفائزات، والمعيقات التي واجهت الأخريات بهدف إدراك الديناميكيات الاجتماعية والسياسية التي في إطارها خاضت النساء هذه التجربة. ولعل الإطلاع على تجربة بعض النساء وتوثيقها يزيدان من تمكين المرشحات القادمات ومن قدرتهن على بلورة إستراتيجيات انتخابية واقعية تأخذ بعين الاعتبار العوامل البيئية المحيطة والمعيقات المختلفة التي قد تواجههن. ولذلك، يهتم هذا البحث بالكشف عن تأثير البنى الاجتماعية والسياسية السائدة على مشاركة النساء السياسية، وعلى الدور الذي تلعبه العائلة وعلاقات القرابة والحزب السياسي في خلق فرص أو وضع معيقات أمام مشاركة المرأة في انتخابات المجالس المحلية، إضافة إلى إلقاء الضوء على الاستراتيجيات الانتخابية التي اعتمدتها بعض المرشحات خلال الحملة الانتخابية من أجل تخطي بعض العقبات التي واجهتهن.

ثمة عوامل أخرى غير العوامل العائلية والحزبية تؤثر على مشاركة النساء السياسية، غير أن تركيز الدراسة على تأثير هذه العوامل دون سواها يكمن في الجدل الذي ساد في الساحة الفلسطينية والصحف المحلية بعد الانتخابات حول الدور الذي لعبته العائلة والحزب السياسي في حسم نتيجة التصويت لصالح مرشحين/ات دون سواهم/هن. وتتمثل الفكرة الأساسية في البحث في اعتبار أن المرشحات اللواتي يقف وراءهن دعم عائلي كبير أو حزب سياسي يتمتعن بفرص أكبر بالفوز من مرشحات لا يتمتعن بهذا الدعم.

وتميزت حقبة ما بعد أوسلو في ضعف جماهيرية الأحزاب السياسية وضعف السلطة

الفلسطينية وقدرتها على تلبية احتياجات الأفراد، إضافة إلى تعزيز دور العشائرية وعلاقات القرابة كشبكة دعم ذات طابع اقتصادي وأمني واجتماعي، حيث استثمر بعض الأفراد علاقاتهم العائلية للحصول على الوظائف والخدمات في السلطة، إضافة إلى سيطرة بعض الأفراد على الأجهزة الأمنية في ظل غياب سيادة القانون، وما نجم عن ذلك من تفرد للسلطة على حساب دورها في خدمة الصالح العام. فقد أشار استطلاع للرأي رقم (١٥) نفذه برنامج دراسات التنمية التابع لجامعة بيرزيت العام ٢٠٠٤ إلى أنه:

- فيما يتعلق بقرار التصويت، أعلن ١٧٪ من المستطلعين أن قرار التصويت مبني على أساس عائلي. كما أعلن ٢٧٪ من المستطلعين أنهم سيقومون باستشارة أفراد عائلاتهم على الرغم من اعتبارهم قرار التصويت قراراً شخصياً؛ أي أن ٤٤٪ أعلنوا أن قرار التصويت سيكون متأثراً بأحد أفراد العائلة مقابل ٤٥٪ أعلنوا أن قرارهم مستقل.
- فيما يتعلق بالانتماء الحزبي، فقد أعلن ٨٤٪ من المستطلعين أنهم لا ينتمون لأي من المؤسسات السياسية الحزبية مقابل انتماء فقط ١٦٪.
- فيما يتعلق بالتوجهات الانتخابية، أعلن ٢٩٪ أنهم لن يقوموا بالتصويت لأي من الأحزاب السياسية القائمة مقابل ٣٨٪ أعلنوا توجههم للتصويت لصالح تيار "فتح"، بينما أعلن ٢٦٪ توجههم للتصويت لصالح تياري "حماس" و"الجهاد الإسلامي". أما التيارات اليسارية، فقد حازت على ٧٪ فقط من توجهات المستطلعين.

الأهداف والمنهجية

ينصب اهتمام البحث على إلقاء الضوء على الدور الذي لعبته كل من العائلة والحزب السياسي في دعم أو إعاقة ترشيح النساء في انتخابات المجالس المحلية، وعلاقة ذلك مع الإستراتيجيات والتكتيكات التي اعتمدتها النساء في حملاتهن الانتخابية. ويترتب على هذا السعي اكتشاف ما يلي:

١. طبيعة الدعم والفرص التي قدمتها العائلة أو الحزب السياسي للمرشحات أثناء عملية ترشحهن للانتخابات المحلية.
٢. طبيعة العقبات التي واجهت المرشحات أثناء عملية ترشحهن للانتخابات المحلية وعلاقتها بالعائلة والحزب السياسي.
٣. مدى مساهمة تبني نظام الكوتا في قانون الهيئات المحلية في زيادة الفرص أمام المرشحات والحد من المعيقات، والإستراتيجيات والتكتيكات التي تبنتها المرشحات

لحشد أصوات المقترعين.

٤. طبيعة التداخل ما بين الحزب السياسي والعائلة ودورهما في حسم المعادلة الانتخابية للمرشحات.

٥. التباينات ما بين المرشحات أنفسهن في طبيعة الفرص والعقبات التي واجهتهن، ومصادر الدعم التي اعتمدن عليها.

تشكل التجربة الانتخابية لكل مرشحة تجربة ذات خصوصية، بحيث تشترك مع غيرها من التجارب الانتخابية للنساء في بعض الجوانب وتنفرد عن غيرها في جوانب أخرى، وبالتالي فإنه يمكن فهم ودراسة وتحليل الظروف التي دفعت بعض المرشحات لتبني إستراتيجيات معينة، وكذلك الكشف عن العوامل التي تمفصلت في خلق فرص لهن أو وضع معيقات أمام فوزهن، وبالتالي الاستفادة من تجاربهن في حملات انتخابية لاحقة. ولكن يبقى هناك حد لا يمكن تجاوزه في تعميم تجربتهن أو الإستراتيجيات التي اتبعنها (في حال الفوز) على المرشحات الأخريات. فعلى سبيل المثال، يمكن تعميم فكرة أن التواصل الجماهيري والمجتمعي يزيد من فرص النساء للفوز في حين لا يمكن تعميم ما إذا كانت فرص الفوز أعلى إذا ما ترشحت النساء في قوائم حزبية أو مستقلة، فهذه لها علاقة بالخارطة السياسية والعائلية والشخصية للموقع الانتخابي. إن ما تسعى إليه الدراسة مرة أخرى هو إلقاء الضوء على تفاصيل هذه الخارطة وتأثيرها على الإستراتيجيات الانتخابية والمعادلة الانتخابية للمرشحات اللواتي تمت مقابلتهن بهدف الاستفادة من تجاربهن.

مجتمع الدراسة والعينة

على الرغم من أن عدد المرشحات اللواتي خضن العملية الانتخابية بلغ ١٣٩ مرشحة، فإنه تم اعتماد السجل الأولي لدى اللجنة العليا للانتخابات المحلية الذي يتضمن أسماء المرشحات في الــ ٢٦ موقعاً (٢٣ قرية و٣ مدن)، والبالغ عددهن ١٥٣ مرشحة، أي قبل انسحاب بعضهن من العملية الانتخابية على اعتبار أن العوامل التي دفعتهن للانسحاب لا تنفصل عن المعيقات التي يسعى البحث إلى دراستها. أما عينة الدراسة، فقد تم تصميمها واختيار أفرادها على أساس غرضي (عينة غرضية)؛ بمعنى أنه تم اختيارها بشكل مقصود ووفق معايير محددة تخدم أهداف البحث. أما تصميم العينة[1] التي شملت ٨ مرشحات، فكان على شكل ثلاث مجموعات، كانت كالتالي:

المجموعة الأولى: تضمنت هذه المجموعة ثلاث مرشحات منتخبات على أن تتضمن المجموعة مرشحات خضن العملية الانتخابية كمستقلات، وأخريات ضمن كتل

حزبية، حيث يتوقع أن هذا التنوع في طبيعة الترشح يخدم أهداف الدراسة من حيث إلقاء الضوء على الأدوار التي لعبتها كل من العائلة والحزب السياسي، تحديداً على أثر الدور الذي لعبته العائلة والصفات الشخصية في دعم المنتخبات المستقلات في الانتخابات البرلمانية الفلسطينية العام ١٩٩٦.

وعلى الرغم من أن اللجنة العليا للانتخابات المحلية قامت بتحديد نوعين من فوز النساء (فوز بدون "كوتا"،[٢] وفوز من خلال "كوتا") فإنه تم اختيار منتخبات من النوع الأول؛ أي منتخبات فزن بعضوية المجلس المحلي على أساس تنافسي مع الرجال، على اعتبار أن تجربة هؤلاء المنتخبات تضمنت تفاعلات أكثر من تجربة اللواتي فزن بفعل "الكوتا"، ما يضيف نوعياً إلى المعلومات التي يتم جمعها. وتتضح من خلال مقارنة وثائق اللجنة العليا للانتخابات المحلية الخاصة بعدد المرشحات في كل دائرة انتخابية، وكذلك عدد الأصوات التي حاز عليها آخر مقعدين في المجالس المحلية مقارنة بأصوات المقاعد الأخرى، ما يلي:

- هناك فرق كبير في عدد الأصوات ما بين المقعدين الأخيرين في أغلبية المجالس المحلية والمقاعد التي سبقتها، ما يدل على أن الفوز كان بفعل "الكوتا" وليس لعوامل أخرى يسعى البحث إلى دراسة مدى تأثيرها.
- فازت النساء بمقاعد بفارق كبير في عدد الأصوات عن المقاعد التي فاز بها الرجال؛ أي أن النساء الفائزات حصلن على عدد أصوات تضاهي المنافسين الرجال، كما في مجلس محلي بني زيد الشرقية، حيث حصلت المنتخبة فاطمة سحويل على المرتبة الأولى من بين ٣٧ مرشحا ومرشحة.
- قلة عدد المرشحات، وبالتالي تدني التنافس بين النساء في الدوائر التي فازت فيها النساء بفعل "الكوتا".

المجموعة الثانية: وتضمنت ثلاث مرشحات لم يفزن في عضوية المجالس المحلية. وقد تمت عملية تحديد عضوية هذه المجموعة بانتقاء مرشحات نشيطات جماهيرياً ومجتمعياً ومعروفات في مناطقهن في محاولة لإضافة معلومات نوعية حول العقبات التي واجهتهن.

المجموعة الثالثة: وتضمنت مرشحتين قامتا بسحب ترشيحهما من الانتخابات، وقد حصلتا على اسميهما من خلال سجل رسمي لدى لجنة الانتخابات مدون فيه أسماء المنسحبات.

وقد اعتمد البحث على المقابلات الفردية شبة المنظمة مع المرشحات لجمع المعلومات، إضافة إلى مراجعة منشورات صادرة عن اللجنة العليا للانتخابات المحلية. وقامت الباحثة بصياغة محاور بحثية مساندة للبحث تم إرفاقها ضمن ملاحق البحث. كما

أجريت مقابلة استطلاعية بهدف التأكد من فاعلية المحاور أثناء المقابلة، إضافة إلى التأكد من أن المحاور تغطي الجوانب البحثية ذات العلاقة بأهداف البحث، وذلك بمقارنتها مع ما أدلت به المرشحة من معلومات.

وفي عملية جمع المعلومات، اعتمدت بالأساس على الاتصال بالمؤسسات النسوية والمرشحات أنفسهن للتأكد من بعض المعلومات الأولية قبل إجراء المقابلات. كما اتصلت مع بعض منسقات المؤسسات الميدانيات اللواتي تابعن الحملات الانتخابية للمرشحات، للتأكد من ملاءمة المرشحات لمعايير العينة. بعض المقابلات تم إجراؤها مباشرة من خلال زيارات ميدانية للمرشحات في المناطق والبعض الآخر تم عبر الهاتف بسبب ضيق الوقت، علما أنه تم تسجيل المقابلات كافة وتفريغها وإضافتها إلى ملاحق البحث. كما أجريت مراجعة لبعض الأدبيات العالمية حول المشاركة السياسية للمرأة، ودور العائلة والحزب السياسي في التمييز ما بين الجنسين، ومدى مساهمتهم في خلق فرص أو وضع معيقات أمام مشاركة النساء في الحياة السياسية.

المرأة، العائلة، والحزب السياسي في السياق الفلسطيني

خلافا للنظريات السياسية الليبرالية الغربية التي ترى الفرد كوحدة أساسية في التنظيم السياسي، تحتل العائلة والحمولة مكانة جوهرية في التنظيم والحراك السياسي في دول الشرق الأوسط خصوصاً، ودول العالم الثالث عموماً، بحيث تتعدى هيكلية العلاقات الاجتماعية الاقتصادية ذات الطابع الأبوي حدود الأسرة والحيز الخاص لتشكل الدعائم الأساسية في التنظيم السياسي والاقتصادي والمجتمعي في الحيز العام. ويتم ذلك بدعم من كل من مؤسستي الدولة والدين، وكذلك الأفراد، كل لخدمة مصالحه. وفي السياق الفلسطيني، تؤكد جونسون وكذلك تراكي على الدور والمكانة المركزية للأسر المعيشية والعائلة والقرابة في التنظيم الاجتماعي وفي تشكيل الهوية، وفي تشكيل وحدات اجتماعية اقتصادية داعمة خاصة في ظل استمرار الاحتلال الإسرائيلي. فالفلسطينيون، وبخاصة الفئات الفقيرة، يقومون بتعزيز العلاقات العائلية والقرابية والاجتماعية بهدف بناء شبكة دعم اجتماعي اقتصادي غير رسمية كإحدى إستراتيجيات التأقلم، وبخاصة في ظل تردي الأوضاع الاقتصادية وارتفاع نسبة البطالة التي تزامنت مع ضعف المؤسسات الوطنية. وتضيف تراكي أن ثمة بوادر لإعادة تفعيل دور العائلات الممتدة بهدف الدعم الاجتماعي والحياة السياسية، وما ينجم عن ذلك من تأثير على تعزيز النظام الأبوي داخل الأسر والعائلات. إن حدة وقوة النظام الأبوي تتفاوت وفق التفاوت الاجتماعي الاقتصادي بين العائلات بسبب عوامل مثل

الطبقة والموقع الجغرافي والثقافة وغيرها. فعلى سبيل المثال، تزيد نسبة الأسر الممتدة في المناطق الريفية عنها في المناطق المدينية. كما أن الروابط العائلية والعادات والتقاليد وتقسيم العمل التقليدي بين الجنسين أقوى في القرى منها في المدن.

أما فيما يتعلق بالأحزاب السياسية، فقد ربطتها مع العائلة علاقة منفعة متبادلة. فالأولى استخدمت الثانية بهدف التعبئة السياسية وحشد الولاء. وقد سعت السلطة الفلسطينية فور نشوئها إلى إعادة إحياء العائلة والعشائرية بهدف استخدام الشبكات القرابية والنسب للتعبئة والتنظيم والحكم (جاد، وجونسون، وجقمان، ٢٠٠٣)، فيما استخدمت الثانية الأولى كوسيلة لخلق فرص والاستفادة من الموارد المجتمعية المتاحة، حيث تشير تراكي (١٩٩٧) إلى الأدوار الفاعلة التي لعبتها الأحزاب الفلسطينية في ظل الاحتلال في تقديم الدعم الاجتماعي والاقتصادي، وبخاصة لأسر الشهداء والمعتقلين والفقراء.

ولطالما استخدم الحزب السياسي العائلة وعلاقات القرابة والنسب بهدف التعبئة السياسية، لكون الأحزاب الساحة الرئيسية التي مورس فيها النشاط السياسي الفلسطيني. وكذلك، سعت العائلات إلى تعزيز علاقات القرابة فيما بينها بهدف تسهيل وزيادة فرص الحصول على الخدمات والموارد من الدولة، وتحديداً إن كان أحد الأقارب يشغل منصباً عالياً في وظائف السلطة. وفيما يتعلق بالنساء، تضيف "لم تتمكن سوى قلة منهن أن تشق طريقها من خلال الهرمية الحزبية وغيرها. ولا بد من الإشارة، مع ذلك، إلى أن ممارسة السياسة من خلال العضوية في المنظمات النسائية والنشاط فيها، سواء أكانت منظمات مرتبطة بأحزاب سياسية أم منظمات مستقلة، قد وفرت لنساء كثيرات فرصاً اجتماعية للتقدم والظهور" (تراكي، ١٩٩٧: ١٣). وتقول اللبدي إن ثمة تأثيرات ايجابية وأخرى سلبية للأحزاب السياسية على المرأة. فمن جهة، تفرق اللبدي ما بين الأحزاب السياسية الفلسطينية المختلفة التي تدفع بعضها لخلق فرص لمشاركة النساء في الهرمية الحزبية، وبخاصة اليسارية منها، ما ساهم في زيادة مشاركة النساء في تلك الأحزاب والانتماء إليها. كذلك ساهمت هذه الأحزاب في تنمية قدراتهن القيادية والتنظيمية والإدارية، وكذلك في تمكينهن وتحسين مكانتهن داخل الأسرة والعائلة والمجتمع. ومن جهة أخرى، ساهمت الثقافة والهيكلية الأبوية داخل الأحزاب في الحد من مشاركة النساء في هرمية الحزب في حين تسارع الأحزاب إلى تجنيد النساء واستخدامهن كجنود احتياط للحزب وقت الأزمات، في حين يصوروهن كأمهات وزوجات وأخوات وبنات في الظروف العادية (اللبدي، ٢٠٠٤: ٦٧-٦٨).

وفي توثيقها للتجربة الانتخابية البرلمانية الفلسطينية، تلقي جاد الضوء على طبيعة العلاقة ما بين الحركة النسوية والأحزاب السياسية. وتشير جاد إلى أن الأزمة السياسية التي عانت منها الأحزاب السياسية والتي تمثلت في التباينات ما بين الأحزاب أيديولوجياً

وتنظيمياً على إثر توقيع اتفاق أوسلو، انعكست بدرجة كبيرة على الحركة النسوية، ولكن ليس إلى درجة الشلل. ففي حين توضح جاد أن الأزمة الحزبية ساهمت في إحداث تصدعات في صفوف الحركة النسوية تنظيمياً وجماهيرياً، والذي انعكس على مشاركة النساء في الانتخابات البرلمانية ١٩٩٦ على مستويي الترشح والتصويت،[٣] فإنها تشير أيضاً إلى أن هذا الضعف الحزبي بعد أوسلو ساهم في بلورة وعي نسوي في صفوف النساء والأطر النسوية، سواء المؤيدة أم المعارضة لاتفاقية أوسلو، بحيث أخذن يطالبن باستقلالية المؤسسات النسوية عن السلطة الفلسطينية والأحزاب السياسية، حيث أخذت تتأرجح علاقة الحركة النسوية بالحزب ما بين الالتزام بقراره تارة، والاستقلالية عنة تارة أخرى. كما سعت الحركة إلى تفعيل الأجندة الاجتماعية الحقوقية للنساء، وكذلك قيام الأطر النسوية بالضغط على الأحزاب السياسية بهدف تضمين مصالح النساء في أجنداتها كما فعلن إبان الانتخابات البرلمانية العام ١٩٩٦ حين قمن بالضغط على أحزابهن لتضمين المرشحات النساء ضمن القوائم الانتخابية للحزب (جاد، ١٩٩٦: ٢٣). وقد ترشحت في تلك الانتخابات ٢٧ امرأة، ٦٥٪ منهن ترشحن من قلب الأحزاب السياسية، الأمر الذي ساهم بدرجة كبيرة في تمكينهن وزيادة قدرتهن على الاتصال الجماهيري والإقناع والتنظيم. وقد فازت خمسة نساء منهن -ثلاث من خلال تنظيم سياسي واثنتان مستقلتان- وقد اعتمدت المستقلات تنظيمياً ومالياً، بصورة أساسية، على عائلاتهن ومكانتها الاجتماعية والاقتصادية، إضافة إلى عوامل ذاتية تتعلق بقدرتهن على الاتصال والحوار الجماهيري والإقناع على الرغم من أن هذا لا ينفي إمكانية التشابك في العلاقات ما بين العائلة والحزب السياسي. وتقول جاد: "يصعب تصور حصول النساء على دعم عائلي دون وجود دعم سياسي في إطار أكبر" (جاد، ١٩٩٦: ٣٢).

وارتبطت الحركة النسوية الفلسطينية كحركة جماهيرية وتنظيمية تعمل في صفوف النساء تاريخياً بالمد الوطني والحركة الوطنية. فالحركة النسوية ممثلة بالاتحاد العام للمرأة الفلسطينية كانت -ولغاية العقد الأخير من القرن الماضي- بمثابة ذراع جماهيري تنظيمي لمنظمة التحرير الفلسطينية تعمل على حشد وتنظيم النساء لخدمة الأهداف الوطنية، حيث غلب آنذاك الهدف الوطني على الهدف الاجتماعي الحقوقي للنساء، على اعتبار أن النضال الوطني يأتي في أعلى سلم الأولويات.

مبدأ التدخل الإيجابي (الكوتا) والمساواة بين الجنسين:

تبرز وجهتا نظر إزاء موضوع تبني نظام "الكوتا" في التشريعات وقوانين الدول. فالبعض يؤكد ضرورة تبني نظام "الكوتا" كإستراتيجية مؤقتة بهدف زيادة تمثيل النساء في الحياة العامة والتعويض عمَّا مضى من تمييز وإجحاف اتجاه النساء، وتخطي الفجوة الاجتماعية والاقتصادية بين الجنسين التي تقف حائلاً دون مشاركة النساء في السياسة على قدم المساواة مع الرجل، حتى لو كانت التشريعات والدساتير تنص على مبدأ المساواة وعدم التمييز بين الجنسين. فهناك فرق بين النص القانوني من جهة، وتطبيقه من جهة أخرى. أما البعض الأخر، فيرى أن نظام "الكوتا" يدفع النساء إلى التقاعس، إضافة إلى أنه قد يدفع بنساء غير مؤهلات إلى مراكز صناعة القرار.

وفي السياق الفلسطيني، تمكنت الحركة النسوية الفلسطينية بالتعاون مع الأحزاب السياسية وما مارسته من ضغوط من تضمين نظام "الكوتا" في قانون انتخابات المجالس المحلية قبيل عقد الانتخابات المحلية في أواخر العام ٢٠٠٤. فقد نص القانون على تخصيص مقعدين للنساء على الأقل في كل مجلس محلي تترشح فيه النساء. ولا شك أن التوافق ما بين مطالب وخطاب الحركة النسوية من جهة، والخطاب العالمي الدافع باتجاه دمقرطة الشرق الأوسط ساهم في زيادة فرص تبني مبدأ الكوتا كوسيلة لتحقيق المساواة، حيث تعرضت القيادة السياسية لضغوط من قبل جبهات داخلية وخارجية، مطالبة بتنفيذ خطوات ملموسة في مشروع الدمقرطة والإصلاح الداخلي.

النتائج والتحليل[٤]

في البداية لا بد من ذكر أن ثمة تبايناً ما بين المرشحات اللواتي تمت مقابلتهن فيما يخص طريقة عرضهن لتفاصيل الحملة الانتخابية. وكانت المرشحات اللواتي تم انتخابهن أكثر ميلاً للإدلاء بالمعلومات على طريقة سؤال وجواب وبصورة مباشرة. ولم تكن المعلومات تتدفق بالاندفاعية ذاتها في الحديث كما في حالة اللواتي لم يفزن، حيث كان لا بد، في أغلب الأحيان، طرح سؤال على كل تفصيلية للحصول على معلومات بشأنها. إضافة إلى ذلك، كان محور مصادر الدعم والفرص الانتخابية أكثر حظاً من ناحية معلوماتية من محور الصعوبات عند المنتخبات. بالمقابل، تغلفت مقابلات اللواتي لم يفزن باندفاعية ذاتية للحديث عن تفاصيل تجربتهن الانتخابية ورواية تسلسل الأحداث مع تركيز دقيق على المصاعب التي واجهتهن وطبيعة التحالفات الانتخابية في الدائرة الانتخابية، إضافة

إلى إبداء تقييمهن ورؤيتهن للحدث. لقد بدا التأثر وعدم الرضا عندهن واضحاً وعميقاً من نتائج الانتخابات، وبخاصة أنهن لا يفتقرن إلى عامل الكفاءة لشغل الموقع الذي ترشحن إليه. فهذا كان واضحاً من السير الذاتية للمرشحات. لقد كان إصرار وعزيمة النساء الثلاث اللواتي قابلتهن ولم يفزن، عالية في خوض الانتخابات حتى أنهن قبلن التحدي، وقمن بالتسجيل قبل إقرار الكوتا وإعادة فتح التسجيل ليوم واحد للنساء. كما أنهن كن منغمسات في العمل الجماهيري والنقابي والمجتمعي والنسوي منذ فترة طويلة تجاوزت عند بعضهن العشرين عاماً. وعلى الرغم من تأكيد كل منهن على أهمية نظام "الكوتا" في ضمان حق النساء للوصول إلى مراكز صناعة القرار فإنهن أشرن إلى عملية إساءة استخدام هذا النظام من قبل الأحزاب السياسية والعائلات، حيث قامت هذه بإفراز مرشحات يخدمن المصالح الحزبية والعائلية قبل المصالح النسوية.

وتسرد المرشحات وقائع تجربتهن بأسلوب وصفي تسلسلي تارة، وبأسلوب تحليلي تارة أخرى لوقائع العملية الانتخابية. وينطبق هذا بشكل خاص على المرشحات اللواتي لم يفزن في الانتخابات، وبالتالي يجب ألا نغفل أن المعلومات التي يتم عرضها تعبر عن وجهة نظر المرشحات وتتضمن رؤيتهن للعملية ككل. وقد يكون هناك وصف أو سرد مغاير لطبيعة وديناميكيات العملية الانتخابية فيما لو تمت مقابلة أعضاء من العائلة، أو التنظيم السياسي مثلاً. وقد حاولت كباحثة - قدر الإمكان - الحصول على حقائق ومعطيات إجرائية من المرشحات لتكون إجاباتهن أكثر قرباً إلى الموضوعية. فعلى سبيل المثال، حين تحدثت المرشحة فاطمة فرعون عن علاقتها مع المرشحة عائشة عودة،[5] التي أخذت طابع الصراع قالت إن دوافع ترشحها هو خدمة مصالح عائلية وليس نسوية، وإنها دعمت من قبل أخيها، وأن امتدادها الجماهيري النسوي ضعيف، وإنها ترشحت بعد إقرار "الكوتا" الانتخابية. ما يجب أخذه بعين الاعتبار هو احتمال اختلاف سرد هذه الرواية فيما لو تمت مقابلة عائشة مثلاً. ولكن، على الرغم من حقيقة إمكانية اختلاف الروايات وفقاً للأفراد الذين تتم مقابلتهن فإن ذلك لا يؤثر على أهداف البحث المتمثلة في دراسة رؤية وتشخيص المرشحات لتجربتهن من حيث مصادر دعم أو معيقات وتمفصلهما في بلورة الإستراتيجية الانتخابية لكل منهن.

الخلفية الانتخابية للمرشحات

يتفاوت العمر والحالة الاجتماعية والتحصيل الأكاديمي للمرشحات اللواتي قابلتهن. فمنهن من يبلغ عمرها ٣٠ عاماً، وأخرى ٦٠ عاماً، وكلتاهما شغلتا منصب رئاسة المجلس

المحلي، ومنهن المتزوجة والمطلقة وغير المتزوجة. ومنهن من أنهت المرحلة الدراسية الثانوية، ومنهن من أنهت الشهادة الجامعية. ويتفاوت الانتماء السياسي لهن ما بين الحزبي والمستقل، مع ملاحظة أن بعض المرشحات ذوات الانتماء الحزبي قد ترشحن كمستقلات. كما وتشير السير الذاتية للمرشحات (سواء اللواتي فزن أو لم يفزن) أن لديهن خبرة في العمل المجتمعي ما بين الحزبي أو النقابي أو النسوي أو الاجتماعي، مع تفاوت فيما بينهن. فمنهن من أمضت تسعة وثلاثين عاماً كمديرة مدرسة، ومنخرطة في معظم لجان البلدة ونشاطاتها، وأحرزت فوزاً ساحقاً، حيت حازت على أعلى الأصوات من بين سبعة وثلاثين منافساً/ة، وكذلك على رئاسة المجلس المحلي، فيما نجد أن أخريات لم يفزن على الرغم من نشاطهن الحزبي والنقابي والنسوي لما يقارب العقدين من الزمن، هذا على الرغم من كونهن معروفات جماهيرياً في مناطقهن على حد قولهن. وتقول المرشحة نبيلة العسلي التي لم يحالفها الحظ "لم أكن صوتاً في صندوق مغلق، وإنما صوت يتكلم، وللأسف لم يتم سماعه كما يستحق". وجدير بالذكر أن بعض المرشحات أشرن إلى فوز نساء نشاطهن أقل على الصعيد المجتمعي والنسوي، وذلك نتيجة دعم حزبي وعائلي.

"المرأة هي أم، وزوجة، وشريكة في النضال، فلم لا تكون شريكة في صناعة القرار؟!". هذا كان أحد الدوافع التي ذكرتها فاطمة سحويل من عبوين. فالدوافع التي ذكرتها المرشحات وراء ترشحهن لعضوية المجلس تؤكد أنهن واعيات لدورهن ولمهام المنصب الذي ترشحن له. وتضمنت هذه التالي:

- القدرة والطاقة على العطاء.
- الحق في الترشُّح ووجود الكفاءة، فالقانون الانتخابي يدعمها.
- تحسين الوضع الخدمي والبنية التحتية للبلدة.
- تشجيع النساء للترشُّح لمراكز صناعة القرار.
- تمثيل النساء في المجالس المحلية، وتحسين الخدمات المقدمة لهن، وتلبية احتياجاتهن واحتياجات الأطفال "لأن الرجل لا ينتبه لهذه الاحتياجات".
- تغيير نظرة المجتمع اتجاه النساء في المجالس المحلية.

الكوتا ونتيجة التصويت:

تفاوت عدد المرشحات في الدوائر الانتخابية في المناطق كافة ما بين (صفر) كما في دائرة العوجا[6] بمحافظة أريحا على الرغم من وجود الكوتا، وعشر مرشحات كما في دائرة الظاهرية بمحافظة الخليل. كما تراوح عدد المنتخبات في كل مجلس من (صفر) كما

العوجا وأربع نساء كما في الدوحة. وجدير بالذكر أن من تمت مقابلتهن قمن بالترشيح للانتخابات قبل إقرار "الكوتا" في القانون الانتخابي، وقد كن متأكدات من فوزهن (باستثناء اللواتي انسحبن)، غير أن تأثير "الكوتا" وانتفاعهن منها في العملية الانتخابية كان متفاوتاً. وتقول المرشحة فتحية ارحيمي من دائرة بني زيد الغربية والفائزة برئاسة المجلس بدون كوتا "لا أنكر إيجابية الكوتا، ولكن كنت حابة أخوض التجربة بدون كوتا. مع الكوتا اقتصر التنافس على ما بين النساء فقط".

أما المرشحة فاطمة فرعون من دائرة العيزرية التي لم يحالفها الحظ، فتشير إلى إن قرار "الكوتا" ساهم في دفع النساء للترشح، كما زاد من فرصهن على مستوى العائلة والحزب السياسي والثقافة المجتمعية، حيث دفعهم القرار إلى فرز نساء للانتخابات. ولكنها تحفظت على نوعية النساء اللواتي دعمتهن العائلة والحزب السياسي، حيث اعتبرت أن أقلية منهن توفر لديهن نشاط وانخراط حزبي أو نسوي. وفي هذا الإطار، تشير إلى تجربة منافستها عائشة من كتلة "فتح" إلى أن أخاها ذا الانتماء الفتحاوي قام بدعمها على الرغم من كونها غير نشيطة لا حزبياً ولا نسوياً، وأن العائلة قامت بترشيحها بعد إقرار "الكوتا"، وكذلك مرشحة أخرى على قائمة "فتح" تدعى "علا" تقول فاطمة فرعون إن التنظيم قام بترشيحها "لأنها توافق على قراراتهم بسهولة". إن الاستقلالية الحزبية قد تكون مضرة بالنساء طالما أن نشاط المرشحة الاجتماعي والنسوي لم يكن كافياً كإستراتيجيه لنجاحها دون دعم الحزب السياسي. وتضيف فرعون إلى أن نظام "الكوتا" لم يقدم لها الدعم، وإنما "أضرها" إذ أنه ساهمت في فرز نساء منافسات من قبل الأحزاب بناءً على توافق المصالح، وليس وفق معيار الكفاءة، ما قلل من فرص نجاحها، وبالتالي عدم نجاحها، وبخاصة أنها ترشحت كمستقلة.

أما المرشحة وجدان العزة من دائرة الدوحة، والفائزة خارج "الكوتا"، فتقول: "أنا شجعت حالي". لقد لعبت ثقة المرشحة بنفسها دوراً أساسياً في نجاحها. وتقول وجدان العزة عن تجربتها الانتخابية: "هذا كان صراع الأقوياء ... أروع شيء أحرزته هو ثقة النساء ... النجاح هو من النساء ... أول مرة بشعر بنفسي وبحياتي ومكانتي لأنه من الناس". وتضيف: "لا بد من دعم النساء وكسر حاجز الخوف وزيادة عدد النساء في المجلس، لأن ذلك يزيد من قوتهن وقدرتهن على الحوار وتلبية مصالح النساء". وتؤكد أنها كانت واثقة من الفوز. وفي تعقيبها على نتائج الانتخابات في الدوحة قالت: "لم يكن المجتمع يرفض وجود النساء، ولكن لم تكن التوقعات أن يكن أربعاً". وبنظرها، ساهم نظام "الكوتا" في تعزيز فرص التصويت للنساء، إضافة إلى تعزيز دعم الأحزاب السياسية للنساء، حيث "تضمنت كل كتلة امرأة واحدة على الأقل". وهي ترى أن "الكوتا" كانت حيوية وإيجابية، حيث زادت من التنافس ما بين النساء والرجال، وتقول: "شعرت أن هناك حرارة وتحرك

في التجمعات كافة؛ نساءٍ ورجالاً، كما أتيح للمجتمع الاختيار ما بين النساء، كما أزال الرتابة ما بين النساء. فمثلاً، عندما ترشحت فتاة من "فتح"، شعرت أنه ممكن يكون خطر علي وهذا حفزني أكثر". أما المرشحة نبيلة العسلي من دائرة أريحا التي لم يحالفها الحظ، فتشير إلى أن "الكوتا" لم تخدمها، إذ أن حزبها لم يدعمها في تضمين اسمها في الكتل الانتخابية، وذلك بسبب خلافات ما بينها وبين الحزب. أما خلود عسّاف من عرّابة، فتضيف أن المعركة الانتخابية كانت على رئاسة المجلس المحلي، وبالتالي تم تضمين نساء في الكتل لا تعارضهن في الرأي لضمان صوتها لمرشح الكتلة لرئاسة المجلس، وأن هذا كان على حساب الكفاءات النسوية.

الدعاية والشعار الانتخابي

هناك تباين في مواقف أفراد العينة فيما يخص موضوع الدعاية الانتخابية. فمنهن من قامت ببلورة شعار انتخابي مباشر وخاص بها وبحملتها الانتخابية، وتحديداً من قبل المستقلات اللواتي ترشحن دون كتلة. فمثلاً، تبنت فرعون الشعار الانتخابي التالي: "لأجلك يا عيزرية، سأبقى وفية". وتقول إن الحملة كلفتها ما يقارب ٤٠٠٠ دولار. أما اللواتي ترشحن كمستقلات ضمن الكتلة، فمنهن من التزمت بالحملة والشعار الخاص بالكتلة، كما هو الحال مع نبيلة العسلي من أريحا. وهناك أيضاً من التزمت بدعاية الكتلة الحزبية، كما هي تجربة سحويل من عبوين. وفي التجمعات السكانية القليلة العدد، لم تكن الدعاية الانتخابية على مستوى تقني وتنظيمي عالٍ مع تفاوت ما بين المناطق. "الكل بعرف كله"، هذا ما كانت تجيب به بعض المرشحات. من جهة أخرى، هناك تجربة ارحيمي وقد شغلت رئاسة المجلس المنتخب في بني زيد الغربية، ولكن لم تقم بأية فعالية دعائية للحملة، ولم يكن لها أي شعار انتخابي خاص بها، وتقول: "كان لي موقف ضدها (الدعاية الانتخابية). البلدة صغيرة، وأهل البلد بيعرفوا بعض، وما كان في حاجة للدعاية، ولاحظت أنها أثرت بشكل سلبي على بعض المرشحين الذين أخذوا يستميلون الناس بهدف التصويت، ما أثر سلبياً عليهم، حيث أن أشكال الدعاية الحديثة لا تلائم أوضاع القرية التي يعرف الجميع بعضهم البعض". وتضيف: "بالنسبة لي، كنت حساسة في هذا الموضوع ... كنت شاعرة أن دعايتي جاهزة قبل أن أدخل الانتخابات". هذا على الرغم من أن بعض التنظيمات السياسية أنزلت اسمها ضمن كتلهم، وكانت ضمن دعاية هذه الكتل, ولكنها تقول: "هم ألزموا نفسهم معي إكراماً لزوجي، أنا ما طلبتش منهم".

مصادر الدعم والفرص

"أنا شجعت حالي". هذه العبارة كانت من أكثر الإجابات المؤثرة عند سؤال المرشحات عن مصادر الدعم المعنوي، ما يعكس حماسهن وإصرارهن على خوض التجربة الانتخابية. وقد تراوحت مصادر الدعم المعنوي والتشجيع للترشح ما بين الأهل وأفراد الأسرة والزوج والمواطنين والحزب والمؤسسات النسوية والنساء والأصدقاء. فرعون أجابت عن السؤال بقولها: "لم يكن القرار سهلاً، ولكني صممت وأخذته كتحدٍّ. اعتمدت على ذاتي وعلى علاقاتي". ولا شك في أن قدرة المرشحات على الاتصال الجماهيري والحوار والإقناع ساهمت في دعم النساء المرشحات.

تعدد نوع الدعم للمرشحات ما بين المادي والمعنوي والإداري التنظيمي للحملة، ومن حيث قوة العمل (المتطوعين). كما تعددت مصادرها ما بين الذاتي والحزبي والعائلي وأفراد من عموم أهل البلدة تربطهم علاقات جيدة مع المرشحات. لقد شكّل الحزب السياسي أحد مصادر الدعم ليس حصراً لمرشحات الكتل الحزبية، وإنما أيضاً لبعض المرشحات المستقلات على الرغم من التباين في حجم الدعم حتى على مستوى المستقلات أنفسهن. فهنالك مرشحات اخترن أن يترشحن كمستقلات نتيجة توتر العلاقة مع الحزب، كما حالة نبيلة العسلي، أو لعدم الاقتناع بآلية تشكيل الكتل الحزبية، كما هي حالة فاطمة فرعون، على الرغم من انتمائهن الحزبي، ما أدى إلى اقتصار مصدر الدعم على أفراد من التنظيم يتفقون مع المرشحة في رؤيتها.

وهناك مرشحات اخترن الترّشح كمستقلات كتكتيك انتخابي لحشد أصوات من مختلف التيارات الحزبية والعائلية، كما في حالة فتحية ارحيمي ووجدان العزة التي أخذت، في حالة الأخيرة، قرارها بعد استشارة ومناقشة الحزب الذي تنتمي إليه، وبالتالي ضمنت دعم الحزب، إضافة إلى أطراف أخرى. وعلى مستوى الدعم العائلي، فبالإضافة إلى الدعم الذي تقدمه في مجال الحملة الانتخابية، فقد لعبت الأمهات والحماوات دوراً في التخفيف عن كاهل المرشحات في الأعباء المنزلية ورعاية الأطفال، وبشكل خاص أثناء فترة الدعاية الانتخابية، كما في حالتي فتحية ارحيمي وخلود عسّاف.

هناك مرشحات سعى التنظيم السياسي إلى تضمينهن في كتلته الانتخابية نتيجة فرصهن العالية في الفوز، وقدم الدعم المادي والتنظيمي والإداري لحملتهن الانتخابية، حيث تكفل بدفع رسوم الترشح وقيمتها مئة دينار، إضافة إلى بلورة وطباعة البرنامج الانتخابي والصور والبوسترات. كما ساهم في تنظيم اللقاءات الجماهيرية للمرشحة كجزء من دعاية الكتلة الانتخابية. المرشحة فاطمة سحويل تقول إن التنظيم تكفل في كل شيء "وأنا فقط بالجهد الشخصي". وجدير بالذكر أن للمرشحة مساهمة فاعلة في بلورة البرنامج الانتخابي للكتلة،

حيث كانت تعقد اللقاءات في منزلها، وساهمت بمحاور العمل والبرنامج الانتخابي مع باقي الفريق. وتقول أنه على الرغم من مساهمة الحزب الكبيرة، فإن الدعم لم يقتصر عليه، فقد دعمتها أيضاً نساء البلدة والأهل والجيران. ومن الواضح من خلال السيرة الذاتية للمرشحة أن كفاءة المرشحة وقدرتها على الإدارة ودورها كمديرة مدرسة فاعلة وتاريخ عطائها للبلدة، ساهمت كلها في بناء الثقة بينها وبين المجتمع نساءً ورجالاً، ما حقق لها الفوز الساحق في الانتخابات.

في حالات أخرى –كما في دائرة بني زيد الغربية– أحرزت المرشحة ارحيمي فوزاً دون دعم نظام "الكوتا" بفعل دعم مشترك من كل من العائلة والحزب السياسي. وعلى الرغم من ترشحها كمستقلة، فإنها حصلت على دعم ليس عائلة واحدة أو حزب سياسي واحد فحسب، وإنما على دعم أكبر عائلتين في البلدة (الريماوي والبرغوثي)، وعلى دعم أكبر حزبين سياسيين في بيت ريما على الرغم من التباين الأيديولوجي بينهما، وهما التيار اليساري والتيار الإسلامي، حيث دعموها من خلال حشد الأصوات لها، وتواجدهم في مراكز الاقتراع أثناء عملية الاقتراع والفرز. وقد ساهمت عوامل عدة في إحداث هذا التوافق حولها، من أهمها التاريخ النضالي لزوجها، وهو معتقل لدى السلطة على خلفية مقتل الوزير الإسرائيلي زئيفي، ما أضفى بعداً وطنياً على حملتها. كما أن انحدار المرشحة من عائلة كبيرة في البلدة، وزواجها من عائلة أخرى كبيرة ساهم في دعم كليهما لها. وبالنسبة لدوافع الدعم الحزبي من قبل تيارين متباينين أيديولوجياً، فإنها تعود إلى أن الانتماء السياسي السابق للمرشحة وزوجها هو يساري، وقد تم اعتقاله مع مناضلين آخرين من الجبهة الشعبية بعد أن تبنى التنظيم السياسي العملية، وبالتالي التزم الحزب في دعمها على الرغم من إعلانها هي وزوجها عن ميولهما الحالي للتيار الإسلامي الذي دفع باتجاه دعم الكتلة الإسلامية لها أيضاً. تقول المرشحة أن المنتخبين في المجلس من الكتلة الإسلامية هم من صوت لها لرئاسة المجلس. وتشير المرشحة إلى الدور الداعم الذي قدمه لها زوجها الذي أدار حملتها الانتخابية بكفاءة عالية من وراء القضبان. وتقول: "هو من اقترح علي الترشح وطمأنني بالنجاح. توقع نجاحي. كان عنده قناعة بإمكانياتي للنجاح. قال لي: عندك حضور اجتماعي ومؤهل أكاديمي ونشاط جماهيري ونسوي وطلابي، وعندك إجماع عائلي ووطني. يعني التيار الإسلامي راح يدعمك، واليسار مش راح يتخلى عنك". وتضيف "وضع زوجي دعمني. كان له حضور اجتماعي ووطني". أما عن دعم الثقافة المحلية، فتقول "المجتمع دعمني وكان بده امرأة لأنه راح يكون ملفت للدول المانحة. ممكن لو كنت رجل كان ما دعمهوش كدي".

شكل كل من التنظيم والعائلة رافداً أساسياً في دعم ما تتطلبه الدعاية الانتخابية للمرشحات من طاقم تنسيقي وتنظيمي لفعاليات الدعاية الانتخابية، وإن بدرجات متفاوتة.

كما قاما بتوزيع الدعوات والبرامج الانتخابية والصور للمرشحات، وتوفير وكلاء للمرشحات للتواجد في مراكز الاقتراع عند التصويت والفرز، وقاما بحشد الأصوات الانتخابية لهن.

لقد ساهم نظام "الكوتا" في تعزيز دعم الأحزاب السياسية للنساء. تقول وجدان العزة إن الحزب قرر دعمها رغم وجود مرشح آخر عن الحزب، إذ كان هناك شبة إجماع في الاجتماعات الداخلية للحزب أن فرص نجاحها أكبر. كما تشير المرشحات إلى الدور الداعم الذي قدمه الجيران والصديقات والمعارف في دعم المرشحة معنويا وإدارياً.

وتشير المرشحة نبيلة العسلي إلى أن زوجها كان داعماً لها خلال الحملة الانتخابية مادياً ومعنوياً، وبخاصة أنها عاطلة عن العمل في هذه الآونة، حيث تكلف بدفع الجزء المستحق عليها -كمرشحة في كتلة المستقلين- من طباعة الكرتات، ومصاريف يومية، وأجرة سيارات، ومقر للكتلة المستقلة. فقد تم تقسيم مجموع التكلفة على مرشحي الكتلة، وقام زوجها بدفع المترتب عليها. كما دعمها أولادها وبناتها والجيران. أما على مستوى تنظيم الجبهة الشعبية الذي تنتمي إليه منذ عشرين عاماً، فتقول إن لديها مأخذين عليه: أولهما، التمييز بين الرجل والمرأة على الرغم من الادعاء أن الأيديولوجيات والأحزاب اليسارية هي أكثر الأحزاب داعمة لحقوق المرأة. وثانيهما أن الأيديولوجية اليسارية، وعلى الرغم من دعمها لحقوق الطبقة العمالية، فإن التنظيمات اليسارية "عندما أتت الفرصة لتضمين أعضاء من هذه الطبقة في مراكز صناعة القرار تخلت عنهم، ودعمت الشخصيات الاعتبارية والدكاترة". تحمّل حزبها تكاليف رسوم الترشح (١٠٠ دينار أردني) وطباعة الصور والبرنامج الانتخابي، ولكن لم يدعمها بالمتطوعين أو بحشد أصوات انتخابية لها. وتقول إن من دعمها هم مجموعة من شباب "فتح" -"وليس الجبهوية"- الذين قاموا بمساعدتها في ترتيب لقاءاتها الجماهيرية وتوزيع البرنامج الانتخابي والصور، في حين التفت الجبهة الشعبية حول المرشح الآخر ودعمته، حيث سخّرت الموارد البشرية والمادية لدعمه، والذي قيل إنه كان سجيناً لدى السلطات الإسرائيلية. وتضيف أنه على الرغم من أن الحزب فرز شخصاً قام بالتسجيل كمندوب/ وكيل لها، فإنها تقول إنه "لم يقدم لها أية مساعدة أو استشارة، وأن آخر مرة رأيته وتحدثت فيها معه كان يوم ما سجلت أنا وياه كمندوب، ولغاية الآن لم أراه". وعلى الرغم من أن المرشحة تقدمت بالاعتراض للامين العام للجبهة، إلا أنه لم يتخذ موقفاً ايجابياً حاسماً اتجاه الموضوع. فالخيارات التي عرضت عليها أكدت لها عدم اكتراث الحزب لترشيحها، كما قالت في المقابلة معها. وبرأي المرشحة، لم تكن الثقافة الحزبية مؤيدة مقارنة بثقافة التجمعات الأخرى (البدوية والريفية ... الخ) التي عقدت فيها لقاءات جماهيرية، "كانوا (الناس) يصفقولي أكثر من المرشحين الذكور".

وفيما يتعلق بدعم النساء للنساء، تتباين وجهات نظر المرشحات حول هذا الموضوع. ففي حين أكدت فاطمة سحويل الدعم الكبير الذي قدمته لها النساء (بالتنسيق والاقتراع)،

وتحديداً الجارات وطالباتها في عبوين، أشارت مرشحات أخريات إلى عكس ذلك. فقد ذكرت عطاف عياد، المرشحة المستقلة المنسحبة من دائرة أبو ديس، أن "الرجل بتفهم مشاكل النساء أكثر من النساء". عطاف عياد لم تفكر باللجوء إلى الحركة النسوية لدعمها لاعتقادها أن "النساء لا تدعم النساء. النساء تدعم فقط الرجال لأنهم يفكروا أن الرجل فقط بقدر إيغير لأن عنده سلطة. النساء بتفكر إن اللي بترشح هي مَرَة فاضية أشغال ومتصببة". وترى المرشحة أن الوعي النسوي عند المرأة في المجتمع الفلسطيني لم يكن داعماً للمرشحات. وترى خلود عسّاف أن النساء تدعم النساء، ولكن بصورة مجردة، ولكن الأمر يختلف عندما كانت النساء يعرفن المرشحات بصورة شخصية حيث كانت المرشحة تسمعهن يرددن "بكفي اللي عندها، شو بدها أكثر". وتقول "النساء تدعم من لا تعرف"، وأن دعم الرجال لها كان أكثر مقارنة بدعم النساء".[٧] وأشارت فتحية ارحيمي إلى دعم إحدى المنتخبات لعضوية المجلس والمحسوبة على التيار الإسلامي، حيث قامت بالتصويت لصالح توليها منصب رئاسة المجلس.

ساهمت شبكة العلاقات الاجتماعية للمرشحات في مناطقهن في دعمهن خلال الحملة. فقد كانت هذه في بعض الحالات بمثابة مفاتيح لعقد لقاءات جماهيرية، وبخاصة للمستقلات. وتشير ارحيمي إلى أن بعض أعضاء حركة "فتح" قاموا بالتصويت لها لأن علاقتها معهم جيدة. من جهة أخرى، تؤثر القدرة الاقتصادية، وتحديداً عند المرشحات المستقلات، على حجم الدعاية الانتخابية، وبالتالي على فرص الاتصال مع الجمهور. ولعل فرعون كانت محظوظة، لأن وضعها الاقتصادي مكّنها من تمويل حملتها، وبخاصة لأن أفراد أسرتها رفضوا دعمها مادياً مع أن نتيجة الانتخابات لم تكن لصالحها. لكن الوضع الاقتصادي لم يكن هو السبب في حالتها، ولكن هذا لا ينفي إمكانية أن يكون كذلك في حالات أخرى.

الصعوبات التي واجهتها المرشحات[٨]

خلافا للواتي فزن ممن قابلتهن، كان محور المشاكل والصعوبات التي واجهتها المرشحات اللواتي لم يفزن خلال الحملة الانتخابية أكثر وأعقد مما واجهته المرشحات الفائزات. وتشير فاطمة سحويل إلى أنه لم يكن هناك صعوبات تذكر، على المستوى الشخصي. فهي تقول: "العملية بحد ذاتها بسيطة، أنا عارفة الناس والناس عارفيني وعارفين نشاطاتي". وتضيف أنه لم يكن هناك معارضة بسبب كونها امرأة، "الكل تقبل ترشحي بصدر رحب في عبوين على الرغم من أنني سمعت بعض الجمل إللي كانت تدل على

استغراب؛ مثل هل يجوز أن تشغل امرأة هكذا منصب؟ كان جوابي: هذه مؤسسة سأقوم بإدارتها كما أدرت المدرسة". لقد ساهمت سيرة حياة المرشحة وإنجازاتها وعطائها خلال الأعوام الماضية في تذليل العقبات التي كان من الممكن أن تواجهها. لكن فاطمة تحدثت عن مشكلة من نوع آخر ذات طابع جغرافي في إطار تنافس ما بين القرى الثلاث التي تشكل المجلس المحلي، وذات طابع تنافسي ما بين المنتخبين حتى ضمن التيار السياسي الواحد، حيث غلب الانتماء الجغرافي على الحزبي. وتقول إن المشكلة لم تتمثل في رجل ضد امرأة، أو ما بين التنظيمات في كل القرى، وإنما في تضارب المصالح ما بين القرى المشاركة في المجلس المحلي، حيث أراد كل من هذه القرى أن يكون المقر للمجلس، ما أدى إلى نشوب خلاف أعاق عقد جلسات المجلس. ولذا لم تعقد أي جلسة بعد الانتخابات لغاية اللحظة (لحظة إجراء المقابلة). خلال فترة الانتخابات كان التنظيم موحداً، ولكن بعد الفوز ظهرت المشاكل وحدثت تقسيمات داخل التنظيم والكتلة الفتحاوية المشكلة من القرى الثلاث.

وشبيهاً لما أدلت به سحويل، تقول ارحيمي: "كنت شاعرة أن دعايتي الانتخابية جاهزة قبل ما ادخل الانتخابات"، ويوم الانتخابات، شعرت أن كل البلد معي. وهللا بعد ما فزت شاعرة حالي تحت المجهر". وتشير ارحيمي إلى بعض العثرات التي واجهتها مثل اعتراض بعض أفراد التيار الإسلامي لتصويت الكتلة الإسلامية لصالحها لرئاسة المجلس بقولهم على حد قول المرشحة: "ما ضلش (لم يبق) رجال حتى تعطوها للنساء". ويمكن إرجاع سبب هذا الاعتراض إلى دوافع سياسية تتعلق بدعم التيار اليساري لها، وكذلك لأسباب ثقافية تتعلق بذكورية المجتمع التي تفترض أن الرجل فقط يحتل قمة أي هرم، سواء مؤسساتي أم عائلي. وقد يكون السبب ناجماً عن مصالح ذاتية لبعض المنتخبين من التيار الإسلامي. كما أشارت إلى أن بعض النساء لم يدعمنها، إذ لاحظت أن مرشحات "فتح" كن يقلن: "شو عملت للبلد حتى يدعموها"، في حين دعمتها مرشحة التيار الإسلامي رائدة الريماوي بالتصويت لها لرئاسة المجلس.

العقبات التي واجهتها وجدان العزة خلال الحملة، تعلقت بمواعيد الاجتماعات واللقاءات مع الجمهور الناخب، حيث كانت تعقد ليلاً، ما اضطرها إلى تنسيق حملتها الدعائية وحدها خلال النهار وليس ضمن نشاط الكتلة. لقد منع وضعها الاجتماعي كمطلقة في مجتمع تقليدي من ذلك. كما أن ضعف قاعدة الحزب السياسي الذي تنتمي إليه في الدوحة دفعها إلى تكثيف فعاليات الدعاية الانتخابية والاحتكاك مع أحزاب أخرى. فحزب المرشحة لم يكن العامل الحاسم في نجاحها خلافاً لغيرها من المرشحين/ات. كما تعرضت المرشحة لاتهامات مثل وصفها "بالكافرة". لقد دفعت شدة التنافس بين الرجال والنساء في الدائرة بعض المرشحين رجالاً ونساءً للوصف "بالكفر"؛ لأن جذور انتمائها السياسي هو

شيوعي، إضافة إلى كونها لا ترتدي الحجاب، حيث كانت المرشحة تواجه هذه الاتهامات خلال لقاءاتها مع المجموعات الإسلامية. أما هي، فركزت على أهمية الوحدة، ونبذ الفئوية، وعلى الطابع الخدمي وليس السياسي أو الحزبي للمنصب الذي تسعى الوصول إليه.

وبالنسبة للعقبات التي واجهتها اللواتي لم يفزن من المرشحات اللواتي قابلتهن، فقد ارتبطت بالعوامل التالية:

أولاً، طبيعة العلاقة والتحالفات ما بين المرشحين/المرشحات وبعض الكتل الانتخابية التي ساد فيها تغليب المصلحة الخاصة، سواء "العرقية" كما حدث في دائرتي العيزرية وأريحا، على حد قول المرشحات، حيث كان هناك تمييز في آلية تشكيل بعض الكتل الانتخابية لصالح السكان الأصليين في الدائرة الانتخابية، وإقصاء السكان المقيمين الوافدين من المناطق المجاورة على الرغم من أنهم –على حد قول المرشحة فرعون– يشكلون نصف عدد السكان في العيزرية. لم يكن مبدأ الكفاءة في فرز المرشحين الحزبيين عاملاً حاسماً، وإنما تدخلت المصالح العائلية ومصالح مجموعات صغيرة داخل الأحزاب السياسية في فرز مرشحات يتوافقن معهن في المصالح، الأمر الذي قد يؤثر على نوعية النساء التي يدعمها الحزب. وعلى الرغم من أنه لا يمكن تعميم هذا الرأي على الكتل كافة والمرشحات كافة في الكتل الحزبية، فإن هذا ما واجهته بعض المرشحات من العينة، وبالتالي لا يمكن تجاهله. فقد ذكرت بعض المرشحات أن قيام الحزب بفرز مرشحات وفقاً لمصالح حزبية قد يقلل من فرص الدعم والنجاح لمرشحات أخريات. وفي هذا الإطار، أشرن إلى ضرورة تفعيل دور المؤسسات النسوية والمجتمعية والحزبية في فرز مرشحات يخدمن المصلحة العامة بهدف ضمان وصول المرشحات الأكثر كفاءة إلى المجلس. وتشير جهاد الشيوخي من دائرة الظاهرية إلى أن آلية تشكيل الكتل بنيت على أساس توافق في المصالح والثمار التي سيتم جنيها بعد الفوز. وتقول إن الكتل الانتخابية الحزبية والعائلات الكبيرة في البلدة هي التي حسمت المعادلة الانتخابية للمرشحات. فقد تكتلت العائلات وفرزت مرشحين ومرشحات للانتخابات، وقامت الأحزاب باستقطابهم، ما أدى إلى فوز مرشحين ومرشحات لسن من داخل التنظيم السياسي، وإنما "لبسوا طاقية" التنظيم يوم الانتخابات. أما عن سبب انسحابها، فتشير إلى أنها قامت بسحب ترشيحها لأن تنظيمها "فتح" لم يضمنها ضمن الكتلة الانتخابية بعد أن حصلت على ضمانات ووعوداً في هذا الأمر. وفي نظرها، كان تشكيل الكتل مبنياً وفقاً للمصالح، ولذلك أرادت الكتل "نساء على مزاجها". أما النساء اللواتي لديهن بعد نسوي وهناك إجماع حولهن من قبل الحركة النسوية، فلم يتم تضمينهن في الكتل الانتخابية. وفي دائرة أريحا تقول العسلي إن المجلس ذهب بأكمله لكتلة "الوحدة والتغيير" التي تم تشكيلها على أساس عشائري، على أن تتضمن أهالي أريحا الأصليين؛ أي أنه تم فرز مرشحين من كبار العشائر "الريحاوية"، ومن ثم ألحقوا الانتماء

الحزبي فيما بعد. وقد تعهدوا على أن يسخروا موارد العشائر البشرية والمادية لدعم مرشحي الكتلة دون غيرهم.

ثانياً، الجدار الفاصل الذي كان من بين الأسباب التي دفعت المرشحة عطاف عياد (من دائرة أبو ديس) إلى الانسحاب، حيث تقول إن موقع المنزل خلف الجدار الفاصل في أبو ديس شكل عبئاً على حركة تنقلها اليومي.

ثالثاً، إصرار الأحزاب السياسية على استقطاب المرشحين/ات بغض النظر عن قناعاتهم/ن. وفي هذا المجال، تقول عطاف عياد: "أنا حبيت أن أكون مستقلة، وما كان في مكان للمستقلين". لقد تدافعت الأحزاب والكتل الانتخابية إلى استقطابها على الرغم من أنها أصرت على رغبتها وقناعتها في أن تكون مستقلة. وقد حاولت الكتل دفع رسوم الترشيح عنها، وبخاصة التيار الإسلامي. وتقول: "حماس ضمنتني في قوائمها بدون أخذ رأيي". كما سعت الأحزاب السياسية إلى استمالتها عن طريق زوجها الذي توجهوا إليه بهدف إقناعها. وتضيف أن انتشار إشاعات تدعي أنها محسوبة على التيار الإسلامي قد عرضها "إلى الانتقاد من قبل أحزاب أخرى". كما حركة "فتح" حاولت تجيير استقلالية المرشحة لصالحها من خلال بث إشاعات مثل "كل مستقلة هي فتح". هذه الاعتبارات ساهمت في دفعها إلى الانسحاب، فهي تعتقد أن "النساء في الكتل كن للتجميل وكمالة عدد" و"صفر حافظ منزلة".

رابعاً، معيقات مادية وتتضمن رسوم الترشح للانتخابات ومقدارها مئة دينار، إضافة إلى تكاليف الدعاية الانتخابية من صور، ويافطات، وبرنامج انتخابي، وتكاليف اللقاءات الجماهيرية، وأجرة مقر للحملة، وغير ذلك. وتحملت الكتل الحزبية هذه التكاليف عن المرشحات الحزبيات ولبعض المستقلات، في حين تحملت مستقلات أخريات العبء المادي للدعاية الانتخابية، واضطرت بعضهن إلى الاستدانة. وفي حالات أخرى، تكلف الزوج جزءاً من تكاليف الحملة الانتخابية عن زوجته. وتكبدت المستقلة فرعون شخصياً كامل تكاليف الحملة الانتخابية وقدرها ٤٠٠٠ دولار، إذ ترتب على قرارها الترشح كمستقلة بمعزل عن الدعم العائلي والحزبي أن تكثف من جهدها الدعائي مع الجمهور الناخب. لقد رفض أفراد أسرتها تقديم العون المادي لها قائلين "أنت اخترت فتحملي".

تجدر الإشارة إلى أن ملفات بعض المؤسسات[٩] تتضمن حالات لنساء رغبن بالتسجيل للترشح، ولكن لم يتمكنَّ من ذلك بسبب عدم توفر الإمكانية المادية لديهن لتسديد ديون مترتبة عليهن للحصول على براءة الذمة المالية من البلدية، لإرفاقها مع طلب التسجيل كما ينص قانون الترشح للمجالس الحكم المحلي. وهناك حالات لم تقم بالتسجيل لأن ترشحها كان يتطلب قانونياً الاستقالة من عملها إن كانت تعمل في إحدى الأجهزة الأمنية. لقد شكل هذا عائقاً أمام نشيطات نسويات من حركة "فتح" اللواتي يعملن في التنظيم، ولكن يستلمن

رواتبهن من الأجهزة الأمنية، ما أعاق ترشحهن لأن ذلك يتطلب التضحية بالوظيفة.[١٠]

خامساً، ضعف الدعم الحزبي للمرشحات: ما كانت تحتاجه المرشحة من حزب نشطت به فترة طويلة (كما في حالة العسلي) لا يقتصر على الجانب المادي فحسب، وإنما ينبغي أن يشمل الإرشاد، وحشد المتطوعين والأصوات الانتخابية، الأمر الذي يقوم به دائماً تنظيم المرشحة، حيث اعتبرت بعضهن أن التنظيم لم يدعم كوادره بشكل متساوٍ، وإنما كان هناك تمييز لصالح المرشح الرجل.

سادساً، حدوث خروق للقانون تتعلق بالإجراءات المسموح بها داخل مراكز الاقتراع، إضافة إلى وجود علاقة نسب ما بين مسؤولي مراكز الاقتراع والمرشحين/ات، ما يهدد حيادية وديمقراطية الانتخابات.

سابعاً، تشتت أصوات التنظيم على أكثر من كتلة انتخابية، ما قلل من فرص فوز المرشحين/ ات الحزبيات. كما حدث مع خلود عسّاف من عرّابة، حيث "ذوبان الحزبية في العائلة، وحيث الكفاءة لم تعد المعيار". وخلود عسّاف كانت مرشحة في كتلة "فتح"، وهي تعتقد أن الخلاف بين عائلتها ورئيس البلدية السابق ذي الانتماء الفتحاوي (ففي نهاية المطاف هي بنت العائلة) أثر على نسبة التصويت لصالحها.

ثامناً، الثقافة المحلية: ساهمت الثقافة الذكورية السائدة من الحد في حركة بعض المرشحات في ساعات متأخرة في المساء كونهن نساء، وبخاصة إن ترافقت مع وضع اجتماعي مثل الطلاق، حيث يرسم المجتمع الذكوري انطباعاً سلبياً عن المرشحة. هذا كان وضع وجدان العزة من الدوحة التي اضطرت إلى أن تنسق دعاياتها الانتخابية بشكل منفصل عن مرشحي كتلتها بسبب توقيت عقد الفعاليات، ما زاد من أعبائها. وفي حالة ارحيمي لرئاسة مجلس بني زيد الغربية، تردد عن أفواه بعض أفراد التيار الإسلامي عبارات مثل "ما ضلش رجال في البلد حتى تعطوها للنساء". وتقول المرشحة إن هذه العبارات كانت تتردد من أفواه نساء أيضاً.

تاسعاً، عامل الوقت: لم يكن هناك وقت كافٍ لإدارة الحملة الانتخابية في حالة فاطمة فرعون. فعملها في مديرية التربية والتعليم، وعملها في جمعية الشروق النسوية، كانا يستحوذان على معظم وقتها. وتقول: "لو كنت متفرغة لكان العمل أفضل".

عاشراً، الانتماءات المختلفة للنساء ما بين العائلي والحزبي والنسوي ساهمت في نشوء بعض الخلافات بين المرشحات. فعلى سبيل المثال، أشارت نبيلة العسلي إلى علاقتها مع المرشحة يسرى الولجي بقولها "كانت زي الضرة إلي". ويسرى هي إحدى المرشحات في كتلة أخرى قامت بالاعتراض على وجود اسم نبيلة العسلي (المرشحة) في الكتلة بحكم أنها من تنظيم آخر وليس من حركة "فتح". وكانت تأمل سحب ترشيح نبيلة، حيث قالت لها "انسحبي وسأدعمك في انتخابات التشريعي والنقابات" نقلاً عن لسان نبيلة.

الإستراتيجيات والتكتيكات التي استخدمتها المرشحات

من الضروري أن يتم أخذ الخارطة والبيئة السياسية والعائلية والثقافية للموقع الانتخابي بعين الاعتبار في عملية رسم خطوط الإستراتيجية الانتخابية للمرشح/ـــة لضمان أعلى الفرص للنجاح. فلكل موقع انتخابي خصوصيته. ولا يقل عن ذلك في الأهمية في رسم الإستراتيجية الانتخابية علاقة المرشحة بالموقع الانتخابي بما يتضمنه من أحزاب سياسية وعائلات مختلفة وأفراد وغير ذلك. وتباينت السمة الانتخابية التي اعتمدتها النساء ما بين مستقلات ومنتميات لكتل حزبية في المواقع المختلفة بناءً على دوافع تأرجحت ما بين اعتبارات التكتيك الانتخابي عند بعض المرشحات والقناعة الفكرية والانتماءات الحزبية عند أخريات. ففي بعض الحالات –كما في حالة كل من فتحية ارحيمي ووجدان العزة– ترشحت النساء كمستقلات لضمان حشد أكبر عدد ممكن من الأصوات من التيارات السياسية والعائلات المختلفة في الموقع الانتخابي على الرغم من الانتماء السياسي لكل منهما. لقد جنت الإستراتيجية التي تبنتها المرشحة فتحية ارحيمي ثمارها من خلال اعتمادها الحيادية وترشيح ذاتها كمستقلة على الرغم من محاولة الأحزاب السياسية استقطابها. فقد تمكنت من الفوز في المرتبة الرابعة وخارج "الكوتا". لقد تمكّنت فتحية من كسب أصوات من تيارات سياسية يسارية وإسلامية، وكذلك أصوات عائلتين كبيرتين. لقد كانت الحيادية النهج الأمثل لها في ظل تعدد هويات المرشحة السياسية والعائلية، حيث تمكنت من كسب الجميع. المرشحة كانت ناشطة في صفوف اليسار، ولكنها تبنت مؤخراً التوجه الإسلامي. زوجها معتقل سياسي لدى السلطة مع كوادر اليسار ومتدين في ذات الوقت. أهل المرشحة من عائلة البرغوثي وزوجها من عائلة الريماوي، وكلتاهما كبرى عائلات البلدة. لقد ساهمت حيادية الموقف في احتواء الأطياف المختلفة. وتعتقد فتحية أن حياديتها سوف تمكنها من إدارة الدفة بشكل مهني بعد الفوز وفقاً للقانون والمعايير المهنية. كما أن اعتماد زوجها كمدير لحملتها، حيث قام بإدارة حملتها من السجن عبر الاتصال مع التيارين السياسيين، وكذلك العائلتين أضاف للحملة الانتخابية البعد الوطني، فزوج المرشحة معتقل على خلفية مقتل الوزير الإسرائيلي زئيفي.

وكما الحال مع ارحيمي، كانت إستراتيجية وجدان العزة موفقة. ففي البداية، اقترحت المرشحة تشكيل كتلة نسوية، ولكن لم ينجح الاقتراح بسبب تضارب المصالح ما بين النساء، حيث تلقت بعضهن ضمانات من الأحزاب بدعمهن إذا ترشحن ضمن كتلهم الحزبية. بعد ذلك، تبنت المرشحة إستراتيجية الترشح كمستقلة، وليس باسم الحزب الذي تنتمي إليه، وبعد مناقشة الأمر مع الحزب. ويعود السبب في ذلك إلى ضعف القاعدة الجماهيرية لحزب الشعب في الدوحة، إذ يشكل تنظيم "فتح" التيار السائد، يليه التيار الإسلامي، ثم اليسار. لقد

سعت المرشحة من خلال استقلاليتها إلى استقطاب اتجاهات مختلفة للتصويت لصالحها بمن فيها التيار الإسلامي. وقد اعتمدت في ذلك على العناصر التالية:

١. التاريخ النضالي والمجتمعي للمرشحة، وكذلك انجازاتها في الدوحة.
٢. شبكة العلاقات الاجتماعية مع النساء والأهالي التي شكلت مفاتيح لعقد لقاءات مع المجموعات المختلفة.
٣. التركيز على شعار "الشخص المناسب في المكان المناسب". أي ركزت المرشحة على المهنية والقدرة على العطاء وخدمة الأفراد لحشد الأصوات في ظل ضعف الدعم العائلي والحزبي من حيث مجموع عدد من يحق لهم الاقتراع. وكذلك في مواجهة ما تم نشره من إشاعات واتهامات "بالكفر" من قبل أوساط إسلامية على خلفية أن جذورها شيوعية.
٤. استهداف الأهالي كافة دون استثناء في منشورات الحملة الدعائية.

وفي حالات أخرى، ترشحت النساء كمستقلات لوجود خلاف مع الأحزاب السياسية التي ينتمين إليها. فالمرشحة نبيلة العسلي ترشحت كمستقلة ضمن كتلة مستقلين على الرغم من انتمائها للجبهة الشعبية، حيث لم تقدم الجبهة الدعم المتوقع لها كأحد كوادر الحزب، وبخاصة أن علاقتها بالتنظيم جيدة جداً. ومن بين الخطوات التي اتبعتها خلال الحملة:

- التوجه للتجمعات التي أقصتها الكتل الأخرى في آلية تشكيلها مثل البدو، في سعي لاستقطاب أصوات الناخبين.
- استثمار سجل دورها الاجتماعي في أريحا.
- استثمار هويتها كامرأة عاملة بهدف استقطاب أصوات من الطبقة العاملة.
- فتح قنوات مع تنظيمات أخرى غير الجبهة بهدف الحصول على الدعم من متطوعين للحملة.
- اختيارها للترشح كمستقلة في كتلة وليس منفردة بهدف الوصول إلى دائرة أوسع من المقترعين. فهذا كان خياراً إن لم يضمن لها الفوز فهو يضمن لها الحصول على عدد من الأصوات "يحفظ ماء وجهها" في ظل المنافسة الشديدة. وقد سعت المرشحة في إحدى مراحل العملية الانتخابية إلى تشكيل كتلة نسائية كمحاولة لتجاوز سلسلة الأزمات التي واجهتها، ولكن لم تكن المحاولة مجدية، فالمرشحات الأخريات كن ملتزمات مع الكتل الأخرى ولديهن ضمانات للدعم.

من جهة أخرى، وكتكتيك انتخابي، قامت المرشحة فاطمة سحويل بالترشح ضمن كتلة التنظيم على الرغم من أنها تقول إن الفوز كان مضموناً حتى لو اختارت أن تترشح كمستقلة. ولكنها اختارت أن تخوض الانتخابات كمرشحة في كتلة "فتح" (التيار ذو القاعدة الجماهيرية الأوسع في البلدة) لاعتبارات ثلاثة، هي:

أولاً، الخوف من فقدانها لبعض أصوات التنظيم بحكم التزام أعضاء التنظيم بالتصويت لمرشحي الكتلة، وبالتالي ستفقد أصواتاً إن هي خارجها.

وثانياً، الوصول لرئاسة المجلس، الأمر الذي تطلب منها أن تترشح ضمن كتلة تضمن تصويت أفرادها الناجحين لصالح توليها منصب رئاسة المجلس. لم تكن المرشحة لتحصل على ذات الدعم لو شاركت كمستقلة، وتحديدا لأن القانون الانتخابي ينص على أن انتخاب رئاسة المجلس يكون من قبل الأعضاء المنتخبين وليس من الناخبين مباشرة. وجدير بالذكر أن المرشحة اشترطت على التنظيم أن تكون هي مرشحة الكتلة للرئاسة، وهذا ما كان.

وثالثاً، سعت المرشحة إلى عقد لقاءات في القرى الثلاث التي تشكل المجلس المحلي بهدف توسيع دائرة المقترعين.

أما فاطمة فرعون فتقول إنه إذا ما أعيدت الانتخابات فإنها ستعيد النظر في الإستراتيجية التي تبنتها. فقد اختارت المرشحة، عن قناعة فكرية، خوض الانتخابات كمرشحة نسوية مستقلة على الرغم من نشاطها في صفوف تنظيم "فتح". فلم تكن المرشحة مقتنعة بآلية تشكيل الكتلة كونه، حسب تقديرها، أخذ طابعاً إقصائياً لبعض المجموعات. فالمرشحة كانت تنادي باسم تيار المستقلين أكثر من التيار الحزبي، لاعتقادها بأن بنية التنظيم ضعيفة ومفككة وتخدم مصالح أفراد يتمتعون بنفوذ عائلي، فيما المستقل مبدأه وشخصيته أقوى. وعلى الصعيد العائلي، رفضت أيضاً فاطمة الترّشح باسم العائلة على الرغم من توجه العائلة إليها لتكون كذلك، وبخاصة أن عائلة فرعون من كبرى العائلات في العيزرية. لقد ترشح للمجلس خمسة من عائلة فرعون، وفاز ثلاثة منهم لأنهم أعلنوا أنهم مرشحو العائلة، إضافة إلى الكتل التي تبنتهم. وتقول فاطمة إن رفضها لمعادلة العائلة يعتبر "غلطة"، حيث سعت لأن تكون مرشحة نسوية وتخوض الانتخابات باسم النساء، ولكنها اكتشفت أن الوعي النسوي ليس بالمستوى المطلوب لإنجاح هكذا معادلة.

ومن بين الخطوات الأبرز التي اعتمدتها خلال الدعاية الانتخابية:

- بلورة برنامج انتخابي مجتمعي نسوي.
- استهداف المرشحة الشخصيات المؤثرة دون أي تمييز بين بدوي أو فلاح أو لاجئ أو عيزري أو نساء ... الخ. كما تضمنت الفعاليات تكريماً للأسرى والمعتقلين والمعلمين، بالإضافة إلى ما قامت به من مناظرات ولقاءات جماهيرية.
- التركز في خطابها على قضايا النساء والمطالبة بالمساواة والحرية والديمقراطية والسلام.
- مع المستقلين من المرشحين من الرجال اعتمدت خط أن تحشد لهم في إطار مؤيديها مقابل أن يحشدوا لها في إطار مؤيديهم (دعم متبادل).

- اللجوء للمحاكم، وللمراقبين الدوليين في حال حدوث خروق قانونية كالتي حدثت خلال يوم الانتخابات.
- اللجوء للمؤسسات النسوية للاستشارة ومحاولة بناء قدراتها.

خلود عسّاف ترشحت ضمن كتلة "فتح" على الرغم من أنه تبادر لها أن ترشح نفسها كمستقلة أو باسم الحركة النسوية. اختارت الترشّح ضمن قائمة تنظيم "فتح" بعد أن ناقشت الموضوع مع أعضاء التنظيم. وتضمنت كتلة التنظيم اسم الرئيس السابق للبلدية (صاحب الخلاف مع عائلتها)، إلا أن المرشحة تلقت تأكيداً من تنظيم "فتح" من أنها ستنال دعم وأصوات التنظيم بأكمله، وهو ما لم يتم حسب قول خلود، حيث تعتبر أن فشلها في الانتخابات يعود إلى إصرارها على أن تكون ضمن قائمة التنظيم. وتقول المرشحة إنها كانت ستفوز لو ترشحت ضمن كتلة المستقلين التي تضمنت مرشحات من عائلات كبرى في عرّابة.

تجربة خوض الانتخابات كانت ايجابية للواتي فزن كما للواتي لم يفزن كذلك. وخلود متضايقة من عدم الفوز لإيمانها بقدرتها وكفاءتها، وهي تقول: "التجربة كانت قاسية، ولكني استفدت منها ... صرت أقوى". ونبيلة العسلي تقوّم تجربتها الانتخابية قائلة: "كانت خبرة تعليمية، بناءً عليها سأعيد حساباتي مع حزب خدمته أكثر من ٢٠ سنة، ولم يدعمني كما يجب". أما فرعون فقد قوّمت تجربتها وإستراتيجيتها مستخلصة أنه على الرغم من التزامها بقناعاتها بأن التيار المستقل هو الأفضل للمرشحات عندما يكون الحزب مترهلاً، لكن المعطيات المجتمعية تستلزم بعض المرونة في العلاقة مع الحزب والعائلة، وبخاصة في ظل الثقافة المجتمعية الذكورية السائدة.

استنتاجات

وفرت مشاركة الفصائل الفلسطينية كافة في الانتخابات المحلية فرصاً للعديد من النساء داخل الأحزاب لخوض الانتخابات ضمن الكتل الحزبية المتنافسة. وعلى الرغم من التباين في آلية الاقتراع، حيث قام جمهور الناخبين في بعض الدوائر بالتصويت لأفراد على الرغم من وجودهم ضمن كتل انتخابية ولكتل انتخابية كاملة في دوائر أخرى، الأمر الذي كان يمكن أن يسفر عن حجب الأصوات عن النساء المرشحات حتى لو كن ضمن كتلة حزبية. لكن إقرار نظام "الكوتا" في القانون الانتخابي وفر حداً أدنى من مقاعد المجلس للنساء، وتم، بالفعل، انتخاب ٥٢ امرأة في ٢٦ مجلساً محلياً. وعلى الرغم من أنه تم انتخاب ٣٣ امرأة خارج نظام "الكوتا"، فإنه لا يمكن التقليل مما أحدثه هذا النظام من

بيئة إيجابية للمرشحات على مستوى الثقافة المجتمعية (قبول ترشح النساء والتصويت لهن) والعائلية والحزبية. لقد شجع نظام "الكوتا" النساء على التنافس. لكن لا يمكن إغفال استغلال النظام من قبل العائلات الكبرى، وبعض الأحزاب السياسية، بما لا يخدم المصالح النسوية التي كانت الهدف الأساسي من ضغط الحركة النسوية، بالتعاون مع بعض الأحزاب السياسية، على المجلس التشريعي الفلسطيني لإقرار النظام.

قامت العائلة بدور كبير في حشد الأصوات للمرشحين/ات لدرجة أن الحزب السياسي لجأ في بعض المواقع إلى استخدام الانتماء العائلي لأعضائه للحشد لمرشحين كتلة الحزب. وقد تراوح دور العائلة ما بين الفعل كأداة في خدمة الحزب السياسي كما في تجربة سحويل أو الفعل المحرك السياسي كما حدث مع كتلة الوحدة والتغيير في أريحا (حسب رواية المرشحة فرعون). وفي حالات أخرى، كان الحزب، إلى حد كبير، هو العائلة والعائلة هي الحزب كما في تجربة ارحيمي، حيث أن معظم عائلة الريماوي تنتمي للتيار الإسلامي، وهذه العائلة حازت على جميع مقاعد المجلس. وفي هذه الحالة، من المتوقع أن تكون موارد الحزب مسخرة لخدمة مرشحي العائلة.

ويستحيل الفصل بين دور العائلة ودور الحزب السياسي في حسم المعادلة الانتخابية للمرشحات، فكلاهما عمل وتمفصل جنباً إلى جنب، ويمكن القول إن هذه العملية الانتخابية شكلت فرصة لاستنهاض وتفعيل الأحزاب السياسية على الرغم من تفكك البنيان الداخلي الذي بدا واضحاً في محاولة بعض الأحزاب في بعض المواقع استقطاب مرشحين بعد قيامهم/ن بالترشح عوضاً عن قيام الحزب ذاته بفرز المرشحين/ت. هذا إضافة إلى قيام الأحزاب بدعم مرشحين/ات على الرغم التعارض الأيديولوجي بينهما، كما في حالة ارحيمي.

جرت عملية تسييس الانتخابات المحلية من خلال استقطاب الأحزاب السياسية للمرشحين قبل وبعد الفوز بهدف زيادة وزنها السياسي في الشارع، وبما يدعم عملية المقايضة والتفاوض المستقبلي مع السلطة. إن تهافت الأحزاب السياسية في استقطاب المرشحين إنما يدل على ضعف الأحزاب في بعض المواقع، كما في أريحا، ويشير إلى إمكانية حدوث انقسامات داخل بعض التنظيمات كما حدث في عرَّابة.

وتختلف طبيعة الحملات الانتخابية في الدوائر الانتخابية ذات الحجم الصغير عن الدوائر الكبيرة. فالمرشحون/ات في الدوائر الصغيرة معروفون/ات مسبقاً، والروابط والامتدادات العائلية والمعارفية بين سكان الدائرة الانتخابية قوية. فقد لوحظ في تجربة المرشحات اللواتي تمت مقابلتهن، وبخاصة من القرى، أن تأثير العوامل الشخصية والاجتماعية والعائلية يلعب دوراً كبيراً في حسم المعادلة الانتخابية أكثر من البرنامج الانتخابي أو الشعارات الانتخابية للمرشحة.

وشكلت موارد العائلة والحزب المادية والبشرية والثقافية مصدراً لدعم بعض المرشحات، ومصدراً لوضع عقبات أمام أخريات. وبالتالي، فإن مراعاة الخارطة السياسية والعائلية والثقافية للموقع الانتخابي أمر أساسي أثناء رسم خطوط الإستراتيجية الانتخابية للمرشحين/ات. فلكل موقع انتخابي خصوصيته التي يختلف فيها عن المواقع الأخرى. أمر آخر لا يقل عن ذلك في الأهمية أثناء رسم الإستراتيجية الانتخابية يخص علاقة المرشحة بالموقع الانتخابي بما فيه من أحزاب سياسية، وعائلات مختلفة، وجمهور. وتتباين طبيعة الترشح التي اعتمدتها النساء ما بين مستقلات ومنتميات لكتل حزبية في المواقع المختلفة بناءً على دوافع تأرجحت ما بين تكتيك انتخابي عند بعض المرشحات، وقناعات فكرية، وانتماءات حزبية عند أخريات. ومن مجموعة المعايير التي ساهمت في نجاح المرشحة:

١. العمل والانتماء السياسي.
٢. القدرة المادية والدعم العائلي، وبخاصة في حال عدم توفر الدعم الحزبي.
٣. البعد الوطني مثل أن تكون زوجة معتقل.
٤. صفات ذاتية مثل قوة الشخصية والقدرة على التواصل الجماهيري والحوار والإقناع.
٥. وجود شبكة علاقات اجتماعية واسعة مع المحيط.

وتراوحت العلاقة ما بين النساء المرشحات أنفسهن ما بين الانسجام والتنافس وما بين الدعم وعدم الدعم. وقد تصل في بعض الحالات إلى مرحلة العداء، كما كان واضحاً في علاقة المرشحة فرعون بزميلتها عائشة، وعلاقة المرشحة العسلي بزميلتها يسرى. وهذا الأمر غير مستغرب، فالنساء لا تشارك في الحياة السياسية كوحدة واحدة، كما أنها لا تنتمي إلى هوية واحدة، وإنما تتعدد هوياتها النسوية والعائلية والحزبية والطائفية والعرقية والطبقية، وغيرها. كما أن نوع الهوية للمرشحات تحدد طبيعة وحجم الفرص والدعم الذي يقدم لها.

وكان ما اعتُبر "ملفتاً للدول المانحة" أحد الدوافع وراء دعم المجتمع لإحدى المرشحات. هذا النوع من الدوافع يكمن وراءه استنتاجات عدة تدور في فلك تأثر ثقافة المجتمعات المحلية بالخطاب العالمي الداعم لحقوق النساء، وفي سياق دعم المجتمع للمرشحة في إطار الدور الرمزي الأداتي الذي أنيط بالنساء لعبه في تمثيل هوية الجماعة وقياس قربها أو بعدها عن توجهات الحداثة. ومن هذا المنطلق، فان تقلد امرأة رئاسة المجلس هو رمز للديمقراطية والحداثة، وكأن ممارسة هذا الحق من قبل النساء هو نتاج عملية تفاوضية ما بين المجتمع المحلي والدول المانحة بهدف تقديم الخدمات للمجتمع المحلي. ومن المثير للاهتمام هو أن التيار الإسلامي في البلدة، هو من دعم تقلد امرأة لرئاسة أحد المجالس. وهذا يدل على نوع من التغيير في توجهات التيارات الإسلامية لأدوار

النساء وعدم اختزالها في الحيز الخاص أو المنزل، بغض النظر عما إذا كان هذا التغيير هو بدافع التأقلم مع متغيرات الواقع أو بفعل تغيير في قناعة هذه التيارات إزاء أدوار النساء في المجتمع.

وفيما يتعلق بالثقافة المجتمعية، فلا يمكن إنكار الدور الذي لعبه نظام "الكوتا" في إحداث تقبل مجتمعي لوجود مرشحات وفي التصويت لهن. وقد ساهمت جماهيرية بعض المرشحات في تعزيز هذه البيئة الإيجابية، غير أنه تم تلمس معيقات ثقافية ذات علاقة بتوجهات أبوية ذكورية في بعض الحالات، سواء على مستوى الأحزاب أم العائلات، وحتى على النساء أنفسهن، ما يشير في الحالة الأخيرة إلى تغلغل الثقافة الذكورية ما بين النساء أنفسهن.

وينبغي التأكيد على أن الهدف الأساسي من مشاركة النساء في انتخابات المجالس المحلية لا يقتصر على وجود نساء في عضوية المجلس، وإنما مساهمتهن في تلبية احتياجات النساء من خلال تضمين وفرض الأجندة النسوية في السياسات المحلية للمجلس. لذلك، لا بد للحركة النسوية والمنظمات النسوية من التكاتف والعمل على فرز مرشحات يتمتعن بالوعي النسوي، والالتفاف حولهن، ودعمهن في دعايتهن الانتخابية، وحشد الأصوات الانتخابية لهن. كما لا بد من العمل على تعزيز حد أدنى من الوعي النسوي الحقوقي الاجتماعي بين صفوف النساء. فهذا الوعي يشكل قاعدة ضغط فاعلة للمطالبة بحقوقهن.

ويقع على عاتق المؤسسات المجتمعية والنسوية الدفع باتجاه إضعاف تأثير الولاءات والانتماءات العائلية أو الحزبية على معايير التصويت للمرشحات/ين، بحيث يتم تغليب عامل الكفاءة على العوامل الأخرى بغض النظر عن جنس المرشح، وذلك من خلال حملات التوعية والتثقيف. كما عليها التأكد من نزاهة الانتخابات وعدم حدوث خروقات قانونية في العملية الانتخابية، وتقديم الاستشارات اللازمة للمرشحات فيما يتعلق ببلورة إستراتيجيات حملاتهن.

الهوامش:

١ لم يكن الموقع الجغرافي للدوائر الانتخابية (قرية /مدينة أو شمال /وسط /جنوب) أحد معايير تصميم العينة، لاعتقادي بأن تأثير العامل الجغرافي على تباين المعلومات فيما يخص أسئلة البحث سيكون طفيفاً، وبخاصة أن البحث لا يسعى إلى تعميم النتائج.

٢ مبدأ "الكوتا" هو مبدأ يدل على التدخل الإيجابي لصالح النساء في التشريعات، بحيث يتم تخصيص عدد من المقاعد كحد أدنى للنساء في مراكز صناعة القرار. وفيما يتعلق بانتخابات المجالس المحلية، فقد نص القانون الانتخابي على تخصيص مقعدين كحد أدنى في كل مجلس محلي تجري فيه الانتخابات المحلية بهدف زيادة مشاركة النساء في عملية صناعة القرار، على اعتبار أن هذا الإجراء يجسر الفجوة بين الجنسين في مراكز صناعة القرار في المجتمعات الذكورية.

[3] قاطعت بعض الأطر النسوية الترشيح والتصويت لانتخابات العام ١٩٩٦ على الرغم من وجود مرشحات نساء، وذلك التزاماً وانتماءً لقرار أحزابهن، حيث قاطعت بعض الأحزاب السياسية تلك الانتخابات كونها إحدى إفرازات أوسلو.

[4] فرغت المقابلات ووضعت في ملحق في نهاية البحث.

[5] المرشحة المذكورة هنا ليست الكاتبة والأسيرة المحررة التي تحمل الاسم نفسه.

[6] لم تترشح أي من النساء للمجلس المحلي في العوجا على الرغم من تخصيص مقعدين للنساء. وتؤكد بعض المؤسسات النسوية التي تابعت المرحلة على وجود بعض النساء اللواتي كن يرغبن في الترشح، لكنهن امتنعن عن تسجيل أسمائهن لأسباب عائلية وثقافية.

[7] كانت المرشحة مترددة من ذكر هذه النقطة خوفاً من فهمها بصورة خاطئة من قبل الطرف الآخر والنساء والمجتمع.

[8] لم تقتصر المعيقات التي واجهتها النساء خلال العملية الانتخابية على ما سيتم ذكره، ولكن هذه هي المعيقات التي تحدثت عنها العينة.

[9] ملفات مؤسسة "مفتاح"، مشروع المرأة والانتخابات.

[10] لم تتضمن العينة إحدى هذه الحالات.

المراجع الواردة في المادة بعد التحرير والاختزال

استطلاع الرأي رقم (١٥). برنامج دراسات التنمية - جامعة بيرزيت.

اللبدي، فدوى. ٢٠٠٤. "المرأة وميدان الحياة السياسية". **دورية دراسات المرأة**. عدد: ٢. جامعة بيرزيت: معهد دراسات المرأة. ص٥٨-٧٣.

تراكي، ليزا. ١٩٩٧. **المرأة الفلسطينية: الوضع الراهن - المجتمع الفلسطيني**. فلسطين: برنامج دراسات المرأة - جامعة بيرزيت.

جاد، إصلاح. ١٩٩٦. "الحركة النسوية والانتخابات التشريعية"، في **مجلة السياسة الفلسطينية**، (السنة الثالثة، العدد العاشر)، نابلس: مركز البحوث والدراسات الفلسطينية.

جاد، إصلاح. وبيني جونسون، وريتا جقمان. ٢٠٠٣. "الجندر والمواطنية في ظل السلطة الفلسطينية". في **الجندر والمواطنية في الشرق الأوسط**. تحرير: سعاد جوزيف. ترجمة: ريما الحسيني. بيروت: دار النهار للنشر.

حول التكافل الرسمي مع أسر زوجات الشهداء

حنان محمد ذيب معدي

البحث التالي يتناول أشكال وحدود التكافل الرسمي مع أسر زوجات الشهداء، وهو بحث قدم إلى برنامج المرأة والقانون والتنمية في كلية الدراسات العليا-جامعة بيرزيت. وكما في أبحاث أخرى في الدورية، جرى في عملية التحرير، الاستغناء عن المراجع، وتكثيف المادة بما يخدم سياسة الدورية في أن تكون المنبر الذي يتسع للأبحاث الجديدة والجادة الخاصة بقضايا المرأة في فلسطين.

مقدمة

دخلت تحولات مهمة على واقع الأسر التي ترأسها نساء شملت حجمها النسبي من مجموع الأسر، كما شملت الأدوار داخل الأسرة. وتم ذلك بحكم تغيرات سكانية واقتصادية واجتماعية وسياسية شهدها العالم في العقود الأخيرة. فعلى المستوى العالمي زادت نسبة النساء اللواتي يرأسن أسراً في أوروبا الغربية ما بين العام ١٩٨٠ والعام ١٩٩١ من ٢٤٪ إلى ٣١٪، وفي آسيا وشمال شرق آسيا ودول الكاريبي ارتفعت لتصل إلى ٥٠٪. وأشارت العديد من الدراسات، في بلدان مختلفة، إلى أن الأسر التي ترأسها نساء هي أكثر فقراً من الأسر التي يرأسها رجال.

ليس الوضع في المجتمع الفلسطيني بعيداً عما يحصل في العالم على صعيد ارتفاع نسبة الأسر التي ترأسها امرأة وحالة الفقر التي تعيشها هذه الأسر. فقد شكلت نسبة الأسر التي ترأسها امرأة في العام ٢٠٠٢ نحو ١١٪ من مجموع الأسر حسب دراسة أعدها برنامج دراسات المرأة في جامعة بيرزيت، بينما كانت النسبة ٨٪ في العام ١٩٩٧ حسب معطيات الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، وبلغت نسبة الأرامل اللواتي يرأسن أسراً ٦٧٪ من مجموع النساء اللواتي يرأسن أسراً. وتعود الزيادة إلى عوامل عدة، أبرزها الظروف الخاصة التي يعيشها المجتمع الفلسطيني، وما يترتب عليها من استشهاد، واعتقال، واضطرار للهجرة الداخلية والخارجية. وحسب تقرير الفقر للعام ١٩٩٨ (الصادر عن اللجنة الوطنية الفلسطينية لمكافحة الفقر) كانت نسبة الفقر أعلى بين الأسر التي ترأسها نساء من الأسر الأخرى، وعانى في العام ١٩٩٧، نحو ثلاثة أرباع الأسر التي ترأسها نساء، ومن اللواتي يتلقين مساعدات، من فقر شديد.

يتناول هذا البحث فئة محددة من النساء اللواتي يرأسن أُسراً في المجتمع الفلسطيني، وهي فئة زوجات الشهداء. وكان عدد الشهداء قد ارتفع خلال الانتفاضتين الأولى والثانية. ويهدف البحث إلى معرفة ما إذا كانت لزوجات الشهداء ميزات خاصة من ناحية المشاكل والحاجات والعلاقة مع المؤسسات الحكومية وغير الحكومية التي تقدم الدعم المادي والنفسي والاجتماعي. كما يهدف إلى التعرف على مدى انسحاب خصائص النساء اللواتي يرأسن أسراً في العالم من ناحية معدلات الفقر، وتركيبة وسمات رئيسة الأسرة بشكل عام (قلة التعليم، وقلة الفرص في الوصول إلى المصادر، والملكية، والتدريب، نسبة أعلى من الأطفال وكبار السن) على زوجات الشهداء اللواتي يرأسن أسراً في المجتمع الفلسطيني. كما يهدف البحث إلى إلقاء الضوء على ما يميز هذه الفئة عن الأرامل الأخريات في المجتمع الفلسطيني، من حيث الدعم الاقتصادي والاجتماعي والنفسي المقدم لهن من المؤسسات الفلسطينية الحكومية وغير الحكومية.

يحظي الشهيد وذووه بمكانة خاصة في الثقافة الفلسطينية. كما نجد تعبئة منظمة للاستشهاد في سبيل الوطن والشعب، وتحرض القيم والمبادئ والتعاليم الدينية كذلك على الشهادة من خلال الشعار الذي يعتبر الشهيد ابناً للجميع، ويعتبر أبناء الشهداء أبناء الوطن ومسؤولية الجميع. فإلى أي مدى تنطبق هذه الشعارات على الواقع المعاش؟ ولأي مدى يتم تبنيها عملياً من ناحية وضع البرامج والسياسات من قبل المؤسسات المعنية لدعم هذه الفئة التي حرمت من الزوج والأب ومن مصدر الرزق الأساسي للأسرة في معظم الأحيان؟ وهل الدعم المقدم، إن وجد، كاف لأسر الشهداء لتعيش بكرامة من وجهة نظر زوجات الشهداء؟ للإجابة عن هذه التساؤلات، أجريت مقابلات معمقة مع زوجات الشهداء للتعرف على مدى الدعم الاقتصادي والاجتماعي والنفسي اللازم تقديمه لهذه الفئة من الأسر، ولمعرفة ما إذا كان الدعم كافياً لهن حتى يعشن وأسرهن حياة كريمة. كما أجريت مقابلات معمقة أيضاً، وعلى المحاور نفسها، مع أرامل من غير زوجات الشهداء، لمعرفة إن كان هناك تمييز إيجابي لأسر الشهداء.

ما زالت هناك مشكلة في توثيق المعلومات حول الأسر التي ترأسها نساء. فالمعلومات المتوفرة لا تعكس الوضع الحقيقي للنساء في هذه الأسر. كما أن المعلومات المتوفرة عن عددهن غير دقيقة بسبب غياب تعريف موّحد للأسرة التي ترأسها امرأة. ولا يوجد تعريف دقيق لدور رئيس الأسرة. ومن ناحية أخرى، يوجد تحيّز لصالح الذكور عند إجراء المسوح الوطنية وعند القيام بالتعداد السكاني، حيث يتم اعتبار الرجل رئيساً للأسرة بغض النظر عن الدور الفعلي الذي يقوم به داخل الوحدة المعيشية. وهذا يعود لثقافة ترسم للذكور أدواراً رئاسية داخل الوحدات المعيشية. فالنساء في كثير من الأحيان هن اللواتي يملكن القرار ويصنعنه ويقدمن الدعم الاقتصادي، لكن لا يتم عكس ذلك في التقارير. وتشير تقارير البنك

الدولي إلى أن نسبة الأسر التي ترأسها نساء، في دول العالم الثالث، هي أعلى بكثير من النسب التي خرجت بها المسوح والتقارير الوطنية.

ومن المهم الانتباه إلى التباينات الواسعة بين النساء اللواتي يرأسن أسراً، وكذلك معرفة الأسس التي يتم على أساسها تصنيفهن. فالتعريفات التي يتم استخدامها في الإحصائيات والمسوحات الرسمية متباينة وغير موحدة، ولقد أوصت الأمم المتحدة بتعريف رئيس الأسرة بالشخص الذي يتحمل المسؤولية الاقتصادية الرئيسية، لكنه تعريف يواجه صعوبات في جمع المعلومات اللازمة لتحديد المسؤوليات الاقتصادية. ومن ناحية أخرى، فإن رئاسة الأسرة تتضمن أدواراً أخرى يقوم بها رئيس الأسرة من ناحية القرارات التي يتم أخذها داخل الأسرة. كما أن هذا التعريف لا يأخذ بعين الاعتبار عمل النساء غير الرسمي وغير المرئي الذي يقمن به حفاظاً على الأسرة واستمرارها.

ازداد في البلدان العربية عدد الأسر التي ترأسها نساء، كما حصل تغير على الأدوار التقليدية للنوع الاجتماعي على التغيرات الديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها هذه البلدان. ويلاحظ زيادة حالات الطلاق، وانتشار ظاهرة الهجرة للخارج، وارتفاع مستوى مشاركة النساء في القطاع العام. وتشير دراسة عن خصائص الأسر التي ترأسها نساء في مصر إلى أن هذه تتمتع بمستوى اقتصادي أقل من المستوى الاقتصادي للأسرة التي يديرها رجل، وأن معظم هؤلاء النسوة سبق لهن الزواج، فهن إما مطلقات، وإما أرامل. كما أنهن أقل تعليماً ويتمتعن بفرص عمل أقل من الرجال الذين يرأسون أسراً.

الأسر التي ترأسها نساء في الضفة الغربية وقطاع غزة

لا يبدو أن الأسر التي ترأسها نساء تعطى اهتماماً خاصاً في تقارير الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني. فمثلاً نجد أن الموضوع عولج في تقرير المرأة والرجل في فلسطين (اتجاهات وإحصاءات، العدد الثاني، ٢٠٠٣) الصادر عن الجهاز المركزي للإحصاء في نصف صفحة من مجموع صفحات التقرير البالغة ١٣٩ صفحة. والمعلومات التي وردت في نصف الصفحة المذكورة ذات طابع عام، وتقدم أرقاماً دون تحليل لمدلولاتها. ووضع التقرير الأول الصادر عن الجهاز المركزي للإحصاء (المرأة والرجل في فلسطين — اتجاهات وإحصاءات العدد الأول، ١٩٩٧) فيما يخص النساء اللواتي يرأسن أسراً لا يختلف عن التقرير الثاني من ناحية ما يعطى من أهمية للموضوع. فما يرد لا يشير إلى مشاكل الأسر التي ترأسها نساء، ولا إلى الاختلافات النوعية بين النساء اللواتي يرأسن أسراً من ناحية مستوى التعليم والوصول إلى مصادر الدخل والتحكم بها، ومن حيث الملكية ومن حيث

انكشاف هذه الفئة وعرضتها للفقر. وكان واضحاً أنه لم يطرأ أي تطور يذكر بين التقريرين اللذين تم إعدادهما من ناحية إضافة معلومات نوعية جديدة، أو محاولة لتحليل المؤشرات التي تم إيرادها في التقريرين اللذين أعدا في فترتين سياسيتين واقتصاديتين واجتماعيتين متباينتين. المشكلة في فلسطين لا تختلف كثيراً عن غيرها من حيث تعريف رئيس الأسرة، أو رئيس الوحدة المعيشية، ومن حيث رصد الحجم الفعلي للنساء اللواتي يرأسن أسراً، أو من ناحية التعامل معهن، وفي تبيان التصنيفات المختلفة لهذه الأسر وحجمها، وتكوينها العمري، ووضعها الاجتماعي، ومستويات التعليم فيها، ودرجة الوصول والتحكم في مصادر الدخل، وغير ذلك. المشكلة في فلسطين أكبر بسبب الخصوصية في الوضع السياسي الفلسطيني، وحالة عدم الاستقرار من ناحية الهجرة الداخلية والخارجية وحالات الاستشهاد المتكررة التي يشهدها المجتمع الفلسطيني التي تجعل رئاسة الأسر في المجتمع الفلسطيني في حالة تغير مستمر، وبسبب التغيرات في الأدوار التي تشهدها العائلات الفلسطينية الناتجة عن الظروف التي تم ذكرها، وأيضاً بسبب حالات الاعتقال السياسي وغياب الاستقرار الأمني.

وتتناول هذه الورقة فئة محددة من النساء اللواتي يرأسن أسراً في فلسطين، وهي فئة زوجات الشهداء من حيث الدعم الاقتصادي والاجتماعي والنفسي المقدم لهن، ومدى كفايته. كما تتناول الأدوار الاجتماعية المختلفة لهذه الفئة من النساء، وخصائصها وحاجاتها. وفي الورقة محاولة للإجابة عن السؤال التالي؛ هل زوجات الشهداء يشكلن فئة خاصة لها ميزات وحاجات خاصة، أم يمكن التعامل معهن كجزء من النساء اللواتي يرأسن أسراً في المجتمع الفلسطيني؟

السياق الفلسطيني

أشارت الدراسة التي أعدها معهد دراسات المرأة في جامعة بيرزيت حول الأسرة (١٩٩٩) إلى أن نسبة الأسر التي ترأسها النساء هي الأعلى في القرى، حيث بلغت ١٥٪، وتلتها المخيمات، حيث بلغت النسبة ١٤٪، ثم المدن بنسبة ٩٪. كما أشارت الدراسة إلى أن النساء اللواتي يرأسن أسراً شكلن ما نسبته ٢٤٪ في وسط الضفة الغربية والقدس، مقارنة بالجنوب، حيث كانت ١٢٪، وبشمال الضفة الغربية، حيث كانت ٧٪، وفي قطاع غزة كانت ٨٪.

من ناحية أخرى، فإن تقرير الجهاز المركزي للإحصاء للعام ٢٠٠٠ يشير إلى أن متوسط حجم الأسرة التي تديرها امرأة يبلغ ٣,٢، مقارنة بحجم الأسرة التي يديرها رجل

والبالغة ٦,٤. وهذا يتفق مع ما ورد في الأدبيات العالمية حول الأسر التي ترأسها نساء. ولكن حجم الأسر لم يتم تحديده لكل فئة من الفئات التي تشكل مجموع النساء اللواتي يرأسن أسراً في المجتمع الفلسطيني (الأرامل، والمطلقات، والمنفصلات، والمتزوجات اللواتي يرأسن أسراً بسبب هجرة أزواجهن، وكذلك النساء اللواتي لم يسبق لهن الزواج).

أظهرت معطيات الجهاز المركزي للإحصاء أن غالبية النساء اللواتي يرأسن أسراً هن أرامل، ويشكلن حوالي ٧٢٪ من مجموع الأسر، ويعشن وحدهن أو مع أطفالهن. ولكن التقرير لم يولِ أهمية لزوجات الشهداء اللواتي يشكلن جزءاً من فئة الأرامل هذه. أما نسبة الأسر التي تديرها نساء متزوجات فشكلن ما نسبته ١١٪، وغالباً ما تعيش المرأة مع أطفالها كون زوجها مهاجراً، أو يعيش مع زوجة أخرى. ونسبة النساء اللواتي يرأسن أسراً ولم يسبق لهن الزواج شكلن ١٠٪، وبلغت نسبة النساء اللواتي يرأسن أسراً من المنفصلات والمطلقات ما نسبته ٧٪. ولم يتم إيراد نسبة الأسر التي ترأسها نساء في ظل وجود الزوج مع الأسرة. هل هذه النسبة تشكل ما نسبته صفراً؟ أم أنه لم يتم أصلاً البحث عن هذه الفئة التي يحتمل أن تكون موجودة في مجتمعنا الفلسطيني بسبب البطالة أو الإعاقة؟ هل المسؤول عن هذا الغياب هو افتراض أن الذكر الموجود في الوحدة المعيشية هو رئيس الأسرة بغض النظر عن الأدوار التي يقوم بها، وبغض النظر عن الأدوار المختلفة التي تقوم بها المرأة في الأسرة، بما فيها العمل غير الرسمي الذي تقوم به ويدر دخلاً للعائلة؟

الفئة الأكبر التي تشكلها النساء اللواتي يرأسن الأسر الفلسطينية، هي فئة الأرامل. وهذا يطرح ضرورة بحث وخصائص هذه الفئة وقدرتها على الوصول لمصادر الدخل ومدى انكشافها، وعلاقتها بالمؤسسات التي تقدم الدعم الاقتصادي والاجتماعي والنفسي. ولا تتوفر دراسات خصائص وسمات أسر زوجات الشهداء وعلاقاتها بالمؤسسات الرسمية وغير الرسمية. التدقيق في واقع هذه الفئة يساعد على التعرف على مشاكلها الخاصة واحتياجاتها، ويساعد على وضع البرامج والاستراتيجيات المناسبة التي تليق بمكانة وتضحية هذه الأسر.

منهجية الدراسة

يهتم البحث برصد طبيعة وحجم الدعم الاقتصادي والاجتماعي والنفسي الذي يقدم لزوجة الشهيد من المؤسسات الحكومية وغير الحكومية، وما يميز أرامل الشهداء عن الأرامل. لقد تمكنت من الوصول إلى العينة المبحوثة من خلال الاتصال مع مركز أسر الشهداء والمعتقلين في مدينة البيرة الذي يعنى بهذه الأسر، وقد تم التعرف على عدد الشهداء المتزوجين في الضفة الغربية وقطاع غزة والبالغ عددهم ٣٩٣٢ شهيداً من

مجموع ٩٦٦١ شهيداً، أي يشكلون ٤٠٪ من مجموع الشهداء حسب إحصائية مؤسسة رعاية أسر الشهداء والجرحى للعام ٢٠٠٤. هؤلاء هم الذين استشهدوا خلال انتفاضة الأقصى، والشهداء المعتمدون لدى المؤسسة لفترة ما قبل انتفاضة الأقصى. ومن ثم تم تحديد عشرة أسماء من زوجات الشهداء للقاء معهن. أخذت الأسماء العشرة من مدينة رام الله ومن القرى المحيطة، ومن المخيمات. وتم انتقاء مدينة رام الله لأسباب تتعلق فقط بسهولة الوصول لها بسبب الأوضاع الأمنية الصعبة، ولكن روعي أن تكون العينة ممثلة لزوجات شهداء في القرية، والمدينة، والمخيم. وتم الأخذ بعين الاعتبار كذلك اشتمال العينة على زوجات شهداء استشهدوا قبل الانتفاضة الأولى، وزوجات شهداء استشهدوا في الانتفاضة الأولى، وزوجات شهداء استشهدوا خلال الانتفاضة الثانية. كما روعي أن تضم العينة شهداء لأحزاب مختلفة ولمستقلين. وتم إعداد محاور للمقابلة المعمقة بعد مراجعة أدبيات تعني بالنساء اللواتي يرأسن أسراً. وشملت هذه المحاور ما يلي؛ عمر أرملة الشهيد عند الزواج، وعمرها عند حدوث الاستشهاد، وعمرها الحالي، ومستوى تعليمها، وعدد الأطفال والمسنين في الأسرة، وهل تسكن وحدها أم مع عائلتها أم مع أهل الزوج، وهل تعمل أم لا، ومصادر الدخل، والمساعدات المنتظمة وغير المنتظمة التي تتلقاها الأسرة، وعلاقتها بالمؤسسات العاملة في مجال تقديم الدعم النفسي والاجتماعي، وعلاقاتها العائلية والاجتماعية، والمشاكل والضغوطات التي تعاني منها. كما طرحت أسئلة لم تستند لما ورد في الأدبيات تتعلق بما إذا كانت تفكر بالزواج مرة أخرى، وإن كانت هناك ضغوطات من الأهل لإجبارها على الزواج، وأسئلة تتعلق بحركتها الاجتماعية وحريتها في الحركة ونظرة المجتمع لها.

كما عقدت لقاءات مع عشرة أرامل عاديات احتوت على المحاور نفسها التي نوقشت مع أرملة الشهيد، لإجراء مقارنة بين أرملة الشهيد والأرملة العادية للوصول إلى معرفة ما إذا كان هناك تمييز ايجابي لصالح أرملة الشهيد أم لا، ولمعرفة مدى انطباق الخصائص التي تميز أسرة المرأة التي ترأس الوحدة المعيشية بشكل عام على أسرة زوجة الشهيد، وبخاصة فيما يتعلق بتعرضها وانكشافها للفقر، وفرص وصولها للموارد والملكية والعمل.

الوصول إلى عينة أرامل الشهداء

الحصول على أسماء زوجات الشهداء تم من خلال مؤسسة رعاية الشهداء والجرحى، حيث تم شرح هدف الدراسة البحثي، وجرى تزويدي بالأسماء والعناوين الكاملة وأرقام هواتف عشرة أسماء موزعة ما بين مدينة رام الله ومخيم الأمعري وقرى دير إبزيع وكفر

نعمة وبلعين. وقمت بالاتصال بهن، ووضحت لهن هويتي كباحثة والهدف الأكاديمي من لقائهن، وتم تحديد موعد للقائهن في بيوتهن.

سمات عينة زوجات الشهداء

يوضح الجدول التالي أبرز خصائص فئة زوجات الشهداء العشرة اللواتي تم اللقاء بهن (٢٠٠٥):

العمر عند استشهاد الزوج	عدد الأبناء	المستوى التعليمي	العمل	مكان السكن	تسكن وحدها أم مع آخرين	هل تتلقى دعماً اقتصادياً؟	هل تتلقى دعماً نفسياً؟
٢٥	٥	أمية	لا تعمل حالياً	قرية	وحدها	تتلقى	لا تتلقى
٥٦	٢	التاسع	لا تعمل	قرية	وحدها	تتلقى	لا تتلقى
٢٤	٤	التاسع	لا تعمل	مدينة	وحدها	تتلقى	لا تتلقى
٢٢	٤	تكمل في الجامعة	لا تعمل	مدينة	وحدها	تتلقى	لا تتلقى
٢٣	١	بكالوريوس	تعمل	قرية	وحدها حماتها معها	تتلقى	لا تتلقى
١٨	١	تكمل في الجامعة	تعمل	قرية	مع أهلها	تتلقى	تلقت
٢٦	٢	دبلوم	لا تعمل	مخيم	وحدها	تتلقى	تلقت
٣٠	٣	توجيهي	لا تعمل	مخيم	وحدها	تتلقى	لم تتلق
٣٤	٠	بكالوريوس	تعمل	مدينة	وحدها	تتلقى	لم تتلق
٢٠	٢	توجيهي	لا تعمل	مدينة	مع أهلها	تتلقى	تلقت

تراوحت أعمار زوجات الشهداء اللواتي التقيت بهن ما بين ٢٤ سنة و٥٨ سنة. وتراوحت أعمار النساء عند استشهاد أزواجهن تراوحت ما بين ١٨ سنة و٥٦ سنة.

وتراوح المستوى التعليمي ما بين الأمية (عدم معرفة القراءة والكتابة) والبكالوريوس، اثنتان من زوجات الشهداء اللواتي التقيت بهن يكملن دراستهن الجامعية حالياً في جامعة القدس المفتوحة على الرغم من أنهن لم يحصلن على شهادة التوجيهي قبل استشهاد الزوج، ولكن صممن على مواصلة تعليمهن الجامعي بعد استشهاد الزوج من أجل العمل بوظيفة تؤمن لهن حياة كريمة ومستقرة. وثلاثة منهن يعملن حالياً، واحدة تعمل في وزارة التربية والتعليم، والثانية تعمل في جمعية المرأة للتنمية الريفية، والثالثة تعمل معلمة في مدرسة تابعة لوكالة الغوث. واحدة من زوجات الشهداء على الرغم من أنها لا تعمل حالياً، فإنها عملت بعد استشهاد زوجها مباشرة لسنوات طويلة في مزرعة دواجن لحسابها، وتعمل في التطريز في الليل من أجل توفير دخل للصرف على أبنائها.

بالنسبة للأبناء، تراوح عددهم ما بين الغياب الكامل إلى خمسة أبناء، وتراوحت أعمارهم ما بين السنتين إلى الثلاثين سنة، ومنهن من كانت حاملاً في الطفل الأخير حين استشهاد الزوج، حيث أن ثلاثاً منهن أنجبن الطفل الأخير بعد استشهاد الزوج.

تسكن ثماني نساء من اللواتي التقيت بهن وحدهن مع أبنائهن، واثنتان مع الأهل.

نتائج البحث

سأتطرق، في عرض النتائج، للمحاور الرئيسية التي تناولتها المقابلات مع زوجات الشهيد، ومحاولة المقارنة بين أوضاع زوجات الشهداء بأوضاع الأرامل العاديات في المجتمع الفلسطيني. ومن خلال المقابلات التي تمت مع زوجات الشهداء تبين أن الخصائص التي تميز النساء اللواتي يرأسن الأسر في العالم تنطبق على زوجات الشهداء اللواتي يعلن أسراً من ناحية تدني التعليم، حيث تبين أن المستوى التعليمي للنساء اللواتي تم لقاؤهن متدن؛ اثنتان فقط أكملتا تعليمهما الجامعي قبل استشهاد الزوج، ما يعني أن فرص حصولهنً على عمل للنساء قليلة. العديد منهن حاول البحث عن عمل، ولكن عملهن في وظائف صعبة ولساعات طويلة مثل العمل في مصانع الخياطة، وبظروف صعبة، وأجور زهيدة، دفع إحداهن لاستكمال الدراسة على الرغم من أنها كانت قد أنهت الصف الثاني الإعدادي فقط، وقدمت امتحان مستوى لدخول التوجيهي، وتمكنت من دخول جامعة القدس المفتوحة. زوجة شهيد أخرى اضطرت للعمل ما يقارب خمس عشرة ساعة في اليوم من أجل أن توفر لقمة العيش لأبنائها، حيث كانت تعمل في مزرعة في النهار، وتعمل في ساعات الليل المتأخرة في التطريز من أجل تحسين دخل الأسرة. الأخريات من زوجات الشهداء اضطررن أن يعشن حياة متواضعة لأنهن لم يتمكنَّ من إكمال الدراسة وإيجاد

عمل. ولكن اللواتي أكملن تعليمهن، وبخاصة الاثنتين اللتين أكملتا الدراسة الجامعية قبل وفاة الزوج، يعملن في وظائف، وعبرن عن ارتياحهن في وظائفهن، وبالتالي فإن المشاكل التي يعانين منها أقل من المشاكل التي تعاني منها الأخريات؛ بسبب الاعتماد على الذات اقتصادياً. هذا الاستقلال الاقتصادي يمنح إمكانية اتخاذ القرارات بشكل مستقل دون الرجوع إلى العائلة. كما أن المشاكل سواء مع الأهل أو أهل الزوج تكون أقل حسب ما ذكرن.

التغيرات في الأدوار الاجتماعية التي يقمن بها

بدا واضحاً من خلال المقابلات العشرة مع زوجات الشهداء أن الأدوار الاجتماعية التي يقمن بها تغيرت، حيث تركز نشاط المرأة قبل استشهاد زوجها داخل البيت، والقيام بالدور الإنجابي الذي يتمثل بالأعمال المنزلية والعناية بالأطفال بشكل رئيسي. ولكن بعد وفاة الزوج باتت زوجة الشهيد تقوم بدور الأم والأب في آن واحد، ويقع عليها مسؤوليات مختلفة داخل وخارج المنزل (تربية الأطفال وحل مشاكلهم، وإدارة العلاقات الاجتماعية مع الأهل والمحيط، وتولي العلاقة مع المؤسسات الرسمية وغير الرسمية). وعبرت النساء عن عبء هذه المسؤوليات وما تستنزفه من طاقة، وعن حرصهن، في الوقت ذاته، على اعتبار أن هذه المسؤوليات تصقل شخصياتهن وتعطيهن خبرة واسعة في الحياة، وتحديداً فيما يتعلق بالاحتكاك مع العالم خارج المنزل. لكن يبقى الهم الاقتصادي، تدبير المصاريف اليومية ومصاريف الدراسة. إحدى الزوجات أشارت إلى إجحاف القوانين المعمول بها بحق النساء. فابنتها بحاجة لوكيل حتى تفتح حساباً في البنك أو تسافر، أو إن أرادت أن تحصل على هوية. وقالت الزوجة أنها تواجه مشاكل بسبب هذا، فالوكيل هو جد الابنة الذي لا يتحمل أية مسؤولية اقتصادية أو اجتماعية (اتجاه)حفيدته، في الوقت الذي يتمتع بحق تمثيلها في المؤسسات الرسمية. فالمرأة التي ترأس العائلة تقوم بالأدوار كافة التي يقوم بها الرجل، ولكن في المجال العام يتم التعامل معها على أنها تقوم بدور واحد فقط، وهو الدور الإنجابي، ولا ينظر إليها باعتبارها رئيسة أسرة يحق لها تمثيل أبنائها في القضايا كافة مثلها مثل الرجل.

المشاكل التي تواجهها زوجة الشهيد

المشاكل التي تواجهها زوجات الشهداء كثيرة وفق ما يرد على لسانهن. فهي تتنوع بين المشاكل الاقتصادية، والنفسية والعاطفية، والمشاكل التي تتعلق بتربية الأبناء، كما تتعلق أيضاً بحرية حركتها الاجتماعية. وهذه المشاكل بمجموعها تولد إرهاقاً شديداً من النواحي الجسمية والنفسية. ومعظم الزوجات أبدى قلقاً فيما يخص تدبير أمور البيت ومصاريفه. وقالت إحداهن: "أتساءل في نفسي لماذا على ابنتي أن تلبس الملابس الرخيصة والبنات الأخريات يلبسن الملابس الفخمة غالية الثمن؟ لماذا مطلوب مني دائماً أن أفكر ليل نهار ماذا سأطعم أبنائي، وكيف سأدبر لهم المصاريف اليومية؟". وتساءلت أخرى: "لماذا لا أجد من يوفر لي الدواء للمرض الذي أعاني منه وهو الفشل الكلوي". وتحدثت أخرى عن حجم المطالب التي يحتاجها الأبناء وتحاول دائماً إقناعهم بالرضا بالموجود والقناعة بالقليل. وعبرت أخرى عما تتعرض له من حالة نفسية في تربية أبنائها كالتالي: "إني أتضايق كثيراً عندما أرى أب يحمل ابنه. أنا لا أحسد الناس، ولكني أفكر في ابني الذي لا يوجد له أب يحمله". وقالت أخرى: "إن أكثر ما يزعجني عندما يسألني ابني عن والده، ودائماً يلح بالسؤال متى سيأتي يوم القيامة حتى نلقاه".

زوجات الشهداء في القرى اللواتي قابلتهن اعتبرن أن مرور الأبناء في مرحلة المراهقة خلال فترة الانتفاضة الأولى كان من حظهن، حيث اهتم الأبناء خلال تلك الفترة بالنشاطات الوطنية والمشاركة في الأعمال السياسية. أما الأبناء الذين مروا في المراهقة في الفترات اللاحقة فلا يجدون متنفساً لهم، وبالتالي فمشاكلهم أكبر. زوجة شهيد عبرت (بدون عبرت) لاحظت أن المشاكل مع أبنائها خلال فترة المراهقة كانت معدومة؛ لأنها ربتهم على أنهم أبناء شهيد، وله مكانته واعتباره الاجتماعي، وبالتالي وجب عليهم الحفاظ على هذه السمعة الطيبة، وذكرت أن الناس في القرية ينظرون لأبنائها بالاحترام والتقدير، وأن أبناءها حافظوا على أخلاق جيدة وتجنبوا ما يلحق الأذى بسمعتهم.

زوجات الشهداء في المدن اللواتي قابلتهن عبرن عن مشكلة أكبر من مثيلاتهن في القرى في تربية الأبناء خلال مرحلة المراهقة، وأنهم بحاجة لأب أو رجل حتى يتفهم مشكلاتهم ويكون قريباً منهم، وهن يلجأن لإخوتهن لمساعدتهن في تربية الأبناء. اثنتان من زوجات الشهداء من اللواتي يسكن المدينة ذكرتا أنهما أحياناً تواجهان مشاكل مع الأبناء الذكور، وبخاصة في القضايا التي تتعلق بالخروج من المنزل والتأخر في الليل، وبعدم الاهتمام الكافي بالدراسة. وذكرتا أنهما تضطران أحياناً في طلب المساعدة من الأهل، وبالتحديد من أخ الزوجة، وبخاصة إذا كان في عمر الشباب ومتفهم لمرحلة المراهقة. أما تربية البنات الإناث، فكانت أسهل حسب تعبير زوجات الشهداء، كونهن لا يخرجن من

البيت مثل الذكور، والأمهات يستطعن تفهم حاجات بناتهن بشكل أفضل وأقدر على تفهم شخصياتهن كونهن إناثاً مثلهن.

أما عن البعد العاطفي لوضع زوجة الشهيد، فتمثل بشكل رئيسي في فقدان الزوج، وفقدان الأب لأبنائه. فقد ذكر بعضهن أن المشكلة الرئيسية هي افتقاد الزوج والشريك بلحظة خاطفة، وما يعنيه فقدان الإنسان الذي عشن معه. ولكل منهن قصة طويلة مع هذا الموضوع. واحدة منهن كانت على علاقة عاطفية مع زوجها لمدة طويلة قبل الزواج منه، ولكن لظروف معينة لم تتمكن من الزواج منه إلا لمدة عشرة شهور فقط قبل استشهاده. وهي حسب تعبيرها على علاقة جيدة مع الدين ومع ربها وتفكر في يوم القيامة وتنتظر هذا اليوم في كل لحظة حتى تتمكن من لقاء زوجها، وتضع صور زوجها في كل مكان داخل المنزل حتى يكون معها في كل لحظة. وتقول زوجة أخرى إنها أقدمت على الزواج من زوجها وهي تعرف بانتمائه للجهاد الإسلامي، وتعرف أنه مهدد بالاغتيال؛ لأنها تزوجت منه وهو مطارد. وتقول:

"الناس تفكر أن المتدينين هم ناس جامدين، لا يوجد عندهم عواطف، أو أنهم غير حساسين. ولكن المتدينين ناس رومانسيين وحالمين ويحبون الحياة، بل يعشقونها ويحبون زوجاتهم، ويقدرون النساء. أنا مكتئبة منذ استشهاد زوجي، لا أستطيع أن أفرح، أو حتى أضحك، أو حتى أن أبتسم. أكثر ما يؤلمني عندما أرى رجل وزوجته يمشون مع بعض في الشارع، وأقول في نفسي لماذا حالي مختلف، ولا يتواجد زوجي حتى أمشي معه وأرافقه في الطلعات والمشاوير".

زوجة أخرى ممن قابلتهن تقول إنها تزوجت بعد علاقة حب استمرت مدة سنتين، وبعد أربع سنوات تزوج زوجها من امرأة أخرى، وأصبحت على خلاف معه وطلبت الطلاق ولكنها بقيت تحبه. ولكن بعد استشهاده تفكر فيه، ولماذا تزوج من غيرها. وتقول إنه بقي يحبها على الرغم من زواجه من الأخرى. وهي على الرغم من حجم الألم الذي سببه لها زواجه من الأخرى، فإنها تتمنى لو أنه بقي موجوداً وتحن له في كل الأوقات.

النساء بمجموعهن أحسسن بحجم الخسارة لفقدان الزوج. عند سؤالهن عن التفكير في الزواج مجدداً، واحدة فقط أجابت أنها لا تعرف إن كانت تتزوج أم لا، لأنها تعلمت من الدنيا أنه لا يمكن الحديث بالمطلق عن ما سيكون، من الممكن أن يحصل تغيرات ومفاجئات لها في حياتها تجعلها توافق على الزواج، على الرغم من أنها لا تعتقد أن إنساناً في الدنيا سيملأ مكان زوجها الذي أحبته بكل مشاعرها. والأخريات أجبن أنهن لا يستطعن أن يتخيلن أن يحل آخر مكان الزوج الذي أحببنه، وإنهن يفكرن بتربية وتعليم أولادهن. لكن كان يبدو أن الموضوع عند البعض بالامتناع عن الزواج غير محسوم نهائياً، وذلك من خلال الطريقة في الرد على السؤال وذكر الأشخاص الذين يتقدمون لطلب الزواج منهن، وبخاصة صغيرات العمر.

نظرة المجتمع لزوجة الشهيد

سألت زوجات الشهداء عن علاقتهن بالمحيط وكيف ينظر لهن من قبل المحيط الذي يعشن به، سواء في المخيم أم القرية أم المدينة. وتشير الإجابات إلى أنه ينظر إلى زوجة الشهيد باحترام وتقدير في المواقع الثلاثة، وإن كان أكثر وضوحا في القرى. ولعل السبب يعود إلى طبيعة العلاقات الاجتماعية في القرية. كما تبين أن النساء اللواتي فقدن أزواجهن في الانتفاضة الأولى وقبلها يتمتعن بمكانه خاصة في مجتمعاتهن، ربما بسبب صغر عدد الشهداء في تلك الفترة. واعتبرت زوجات الشهداء في المدينة وفي المخيم أنهن يتمتعن بالاحترام، ولكن دون تفاصيل ما تم التطرق إليه في القرية، حيث يضرب المثل بزوجة الشهيد من حيث حسن الأخلاق والعناية بتربية الأطفال، والقدرة على التحمل ومواجهة صعوبات الحياة المختلفة. فالجميع في القرية يقيم علاقات اجتماعية قوية مع زوجة الشهيد ويكن لها كل الاحترام والتقدير.

من جهة أخرى، عبرت زوجات الشهداء اللواتي التقيت بهن، وبدون استثناء، عن تحسسهن من مراقبة المجتمع لهن. ولذا فهن حريصات جداً في التصرف بشكل لائق في المجتمع حتى لا يجلبن الكلام والتعليقات من المجتمع لأنفسهن. كما أنهن حذرات في التعامل مع الرجال، ولا يسمحن للرجال بدخول بيوتهن في أوقات لا يوجد بها شخص بالغ، وبخاصة في أوقات الليل. ويحرصن على العودة لبيوتهن في ساعات مبكرة، ويخرجن من بيوتهن للأمور الضرورية فقط، ويشعرن أن حركتهن مراقبة في كل تصرف. وجميعهن أكدن على عدم تعرضن لتحرشات من الذكور بسبب تحديد علاقاتهن معهم، وأنهن يحترمن أنفسن، ولا يجلبن الحديث والتعليقات لأنفسهن.

من الواضح أن زوجات الشهداء يضغطن على أنفسهن بشدة لردع التعليقات، ويقنن عدد مرات خروجهن من المنزل، ويحرصن على تحديد ساعات عودتهن للبيت، وكذلك على علاقاتهن مع الذكور. وشمل هذا السلوك جميع زوجات الشهداء بغض النظر عن المستوى التعليمي أو مكان السكن (مخيم، قرية، مدينة)، أو إذا كانت تعمل أم لا، وبغض النظر عن انتماء الزوج السياسي.

العلاقة مع المؤسسات التي تقدم الدعم الاقتصادي

شكل الدعم الاقتصادي المقدم لزوجات الشهداء من المؤسسات الرسمية ومن المؤسسات غير الرسمية ومن الأحزاب السياسية لزوجات الشهداء، ومدى كفايته محوراً

رئيسياً للبحث. ومن خلال ملاحظتي لمساكن أسر الشهداء وأثاثها، ومدارس أطفال هذه الأسر، شعرت أن ما تم تزويدي به من معلومات حول مصادر الدخل كان ناقصاً. وهذا برز عند ثلاث أسر من بين الأسر التي أجريت مقابلات معها، وتحديداً مع الأسر التي انتمى شهيدها لحركة "حماس" أو انتمى لحركة "فتح". ولكنني شعرت أن المعلومات عن الأسر السبع الأخرى كانت أكثر مصداقية، وهذا بدا من خلال المظهر الخارجي للبيت ومستوى الحياة التي تعيشها الأسرة.

ما يجمع الأسر العشر، تلقيها الدعم بشكل ثابت ودائم من مركز أسر الشهداء والمعتقلين. وتراوح المبلغ الشهري الذي تتلقاه ما بين ٦٠٠ شيكل و٧٠٠ شيكل. ويتم تزويدها بهذا المبلغ من خلال حساب خاص لها في البنك. ومن وجهة نظرهم جميعاً أن هذا المبلغ غير كافٍ لهم وينبغي زيادته. وتتلقى الأسر في المخيمات المساعدة التموينية التي تصرفها وكالة الغوث وهي توفر للأسرة بعض الحاجات الرئيسية، على الرغم من أنها تعتبر غير كافية لهم من وجهة نظر الأسر المتلقية. كما يدرس الأطفال في المخيمات مجاناً في مدارس وكالة الغوث. أما الأسر التي تنتمي لحركة "حماس" فيدرس أطفالها في مدارس خاصة شبه مجانية تابعة للحركة، كما يتلقون مساعدة اقتصادية في مناسبات معينة (في الأعياد الدينية وفي شهر رمضان). كما قد تم تقديم مساعدات لهذه الأسر من أهل البلد، حيث تكفلت مجموعة من أهل البيرة ببناء مساكن لهم، وتم بناء بيت مستقل لكل أسرة من هذه الأسر تعويضاً عن بيوتهم التي تم هدمها الاحتلال الإسرائيلي. وبالنسبة للأسر الأخرى ذات الانتماء السياسي، فتباينت الإجابات؛ البعض قال أن الأسرة لا تتلقى مساعدة تذكر، والبعض الآخر قال إنه يتلقى مساعدات غير مالية (مثل تعليم البنات والأولاد في الجامعات على حساب حركة الشبيبة). البعض الآخر من تنظيم "فتح" قال إنه لم يتلقَّ أية مساعدة مالية منتظمة، أو في مناسبات معينة، أو لمساعدة في توفير منح دراسية لأبناء الأسرة وبناتها، أو حتى مساعدة الزوجات في إيجاد فرص عمل.

وبالنسبة للمساعدات الاقتصادية التي تتم بشكل غير رسمي من الأهل والمعارف، فقد تبين من خلال اللقاءات أنه لا يوجد دعم ثابت ومنتظم من جهة أخرى باستثناء مركز أسر الشهداء والمعتقلين. ومن مجموع الأسر العشر التي تم لقاؤها، تبين أن ثلاثاً منها فقط تتلقى دعماً مالياً من الأهل بشكل منتظم، وأسرة تتلقى مساعدة عبر توفير بعض احتياجات البيت لهذه الأسر من شقيق الزوج بالتحديد. إحدى الأسر تسكن مع أهل الزوجة التي تتلقى هي وابنها وابنتها المساعدة المباشرة من عائلتها.

الدعم الاقتصادي المنتظم لأسر الشهداء يقدمه مركز أسر الشهداء والمعتقلين، والمبلغ الذي يقدمه حسب ما تقوله هذه الأسر يتراوح بين ٦٠٠ شيكل و٧٠٠ شيكل. أسر الشهداء في المخيمات تتلقى مساعدة من وكالة الغوث مثل باقي الأسر في المخيمات، ويتم تعليم

أبنائها في مدارس وكالة الغوث مجاناً، كما تتلقى عناية طبية عبر عيادات وكالة الغوث. أما المؤسسات غير الحكومية، فهي غائبة تقريباً، ولم تذكر أية مساعدة من أية جهة غير حكومية. أما دعم الأحزاب، فلا يوجد نظام موحد لرعاية أسر الشهداء، ولا توجد آلية لضبط وتنظيم العلاقة بين أسرة الشهيد والحزب السياسي. أسرتان ذكرتا أنهما تقدران الظرف الاقتصادي والأمني التي تمر به حركة "حماس"، وبالتالي عدم تقديمها للمساعدات بشكل منتظم لهما.

لكن بعض الأسر حمّلت الأحزاب السياسية مسؤولية التقصير في عدم تقديم الدعم لأسر الشهداء التي فقدت الزوج والأب ومصدر الرزق الأساسي. وذكرت زوجات الشهداء أنهن لسن على استعداد لطلب المساعدة من الأحزاب؛ لأنهن يعتبرن ذلك امتهاناً للكرامة، ويعتبرن أن من مسؤولية الأحزاب تقديم المساعدة اللازمة لأسر الشهداء دون طلبها والركض وراءها.

وفيما يخص المساعدات من أهل الخير، فأسر الشهداء تقول إنه لم يعرض عليها مساعدة، ولم يسبق أن تلقت مساعدة من هؤلاء. وحسب رأي زوجات الشهداء، فإنه يتم التعامل معهن بهيبة وكرامة، وقد يكون هذا سبب الامتناع عن تقديم المساعدة. ومن الممكن أنه ينظر لهن باعتبار أنهن لسن بحاجة، كونهن يتلقين مساعدات من مصادر أخرى. ويقلن أنه إذا عرض عليهم (عليهن) مساعدات من أهل الخير، فإنهن سيرفضن حفظاً لكرامتهن.

تأمل زوجات الشهداء في أن تتلقى أسرهن الدعم المادي الملائم من المؤسسات الحكومية وغير الحكومية ومن الأحزاب، حسب عدد أفراد الأسرة وأعمارهم، ومستلزمات تعليم هؤلاء. وطرحت بعضهن توفير بطاقات تسوق في أماكن معينة لتخفيف المصروف عنهن. واقترح بعضهن تخصيص مقاعد خاصة مجانية لأبناء الشهداء في الجامعات المحلية، والتعامل معهن معاملة خاصة في التوظيف، والعمل على إيجاد وظائف أو أشغال مناسبة للزوجات حتى يتمكنَّ من إعالة أسرهن وتوفير حياة لائقة لها. تقول إحدى زوجات الشهداء:

"لماذا يجب أن تكون عائلة الشهيد في أسفل السلم الاقتصادي؟ لماذا يجب أن ينظر إليها كفقيرة ومسكينة وكمستحقة للشفقة والإحسان؟ هل ينبغي أن تعيش عائلات الشهداء أسوأ حياة على الرغم من فقدانها الزوج والأب؟ ألا يكفي هذا، لماذا يستغرب الناس أن تملك وتقود زوجة الشهيد سيارة؟ ولماذا يستغربون أكثر إذا توافرت شروط حياة مريحة في بيوت الشهداء؟ ولماذا ولماذا؟ ولماذا؟ ...".

وتتساءل أخرى:

"لماذا مطلوب مني دائماً أن أبرّر لأبنائي أن عليهم أن يعيشوا حياة الحرمان والفقر؟

لماذا عليَّ أن أطلب منهم أن يعيشوا حياة أقل مستوى من الحياة التي يعيشها زملاؤهم وأصدقائهم وجيرانهم؟ لماذا ضحى زوجي بحياته من أجل أن يعيش الآخرون ونموت نحن؟ ألا يكفي أني فقدت زوجي وعمري خمس وعشرون سنة؟ وصبرت على كل المرارة والأسى؟ هل مطلوب مني أن أتحمل أكثر؟؟".

الدعم النفسي والاجتماعي المقدم لزوجات الشهداء وعائلاتهن

كشفت اللقاءات مع زوجات الشهداء عن شبه غياب للدعم النفسي والاجتماعي. والمؤسسات التي ذكرت في هذا المجال هي مؤسسة رعاية الشهداء والمعتقلين، ومؤسسة جمعية الشبان المسيحية. أربع نساء من النساء العشر شاركن في جلسة مع إحدى هاتين المؤسستين. واللواتي حضرن جلسات الدعم النفسي عبرن عن ارتياحهن لحضور مثل هذه الجلسات، كونها تمنحهن فرصة للحديث عن مشاكلهن وهمومهن، وفرصة يجدن فيها من يسمع لهن. ولذا طالبن أن تعتقد هذه اللقاءات بشكل دوري وتوسيع مشاركة النساء. كما طالبن بوضع برامج خاصة للأطفال. واقترحن أن يعمل في هذه المؤسسات كوادر متخصصة، وبخاصة أن بعض زوجات الشهداء يمررن بمرحلة اكتئاب وحالات نفسية صعبة بعيد استشهاد الزوج. ويلجأ البعض منهن في للتخفيف من التوتر النفسي لقراءة القرآن، والبعض الآخر يلجأ للبكاء، ومنهن من يلجأ للحديث مع صديقة متفهمة تسمع لها وتشاركها مشاعرها ومشاكلها. وفيما يخص علاقة زوجات الشهداء بالأحزاب والأطر، فقد وضحن أنه تتم زيارات منتظمة لهن، والزيارات التي تتم قليلة ومتقطعة. واعتبرن هذه الزيارات مهمة؛ كونها تشكل حلقة وصل مع الجماعات التي انتمى لها أزواجهن. وفي نهاية الحديث عن موضوع الدعم النفسي، فقد أشارت زوجات الشهداء العشرة إلى أن الدعم الحقيقي الذي يتلقينه، مصدره الرئيسي هو محيطهن من الأصدقاء والأهل والجيران.

مقارنة بين وزوجات الشهداء والنساء الأرامل الأخريات

بعد اللقاء مع عشر أرامل في مدينة البيرة وقرية كفر مالك ومخيم الأمعري، يمكن المقارنة بين أوضاع زوجات الشهداء والأرامل الأخريات في القضايا التي طرحت مع زوجات الشهداء. يوجد تشابه بشكل كامل بين زوجات الشهداء والأرامل الأخريات، من ناحية المشاكل اللواتي يواجهنها، وكذلك من تغير الأدوار التي يقمن بها بعد وفاة الزوج.

كما تتشابه شعورهن بالحاجة لمراعاة الحركة خارج البيت، وتقييد علاقتهن مع الذكور. ويتمتعن بمكانة خاصة واحترام من الجيران والمحيط الاجتماعي. ولم تفكر أي من الأرامل العشر اللواتي التقيت بهن بالزواج لأنهن يعتبرن أن مسؤوليتهن الرئيسة تتمثل في تربية الأبناء. ولم يتعرضن لضغط من عائلاتهن لأنها اعتبرت أن دور المرأة الرئيسي بعد وفاة الزوج هو استكمال تربية الأبناء.

هناك اختلاف بين مصادر دعم أسر الشهداء ومصادر دعم أسر الأرامل. تعتمد زوجات الشهداء على المساعدة التي تقدم بشكل رسمي من مركز العناية بأسر الشهداء والمعتقلين، وأحياناً من الأحزاب، في حين لا تتلقى الأرامل غير زوجات الشهداء مساعدات من أية جهة حكومية أو غير حكومية. والدعم المادي الذي تلقينه جاء من الأهل والأقارب بشكل أساسي وبشكل موسمي، وأحياناً من بعض المعارف في مناسبات دينية. أما فيما يخص الإسناد النفسي والاجتماعي فلم يسبق للأرامل السماع به.

خلاصة

الدراسة تمت في منطقة رام الله وهذا لا يمثل المناطق كافة في الضفة الغربية وقطاع غزة، ومن الممكن أن يكون واقع زوجات الشهداء أوفر حظاً في هذه المنطقة عنه في المناطق الأخرى. كما أن عدد العينة صغير، وبالتالي من الصعب تعميم نتائج الدراسة، والعينة لم تحوي زوجات شهداء من تنظيمات غير "حماس" و"فتح"، وبالتالي كان من الصعب إيجاد تباينات بين زوجات الشهداء تبعاً لاختلاف هذا المتغير. كما لم يتم اختيار العينة بشكل عشوائي، وبالتالي كانت بعض النساء في العينة زوجات رموز قيادية في أحزاب سياسية، ما يعيق من إمكانية التعميم. فمن المتوقع أن يتم التعامل مع هذه الأسر بشكل مختلف عن أسر شهداء من قواعد الأحزاب السياسية.

برزت قواسم مشتركة بين النساء زوجات الشهداء بغض النظر عن مكان السكن، أو المستوى التعليمي، أو انتماء الزوج لحزب معين من حيث التغير في الأدوار الاجتماعية التي طرأت بعد استشهاد الزوج، ومن حيث التعرض لمشاكل اقتصادية ونفسية. وفي الوقت ذاته، برزت تباينات داخل هذه الفئة من النساء. فالمرأة التي تتمتع بمستوى تعليمي أعلى تعاني مشاكل أقل بكثير من زوجة الشهيد التي لا تتمتع بمستوى تعليمي عال. فامتلاك الشهادة يمكن زوجة الشهيد من الحصول على عمل يؤمن لها دخلاً يخفف من المشاكل الاقتصادية ومن الضغوطات النفسية المتعلقة بالوضع المعيشي. كما أن الاعتماد على الذات في توفير الدخل يدعم استقلالية المرأة في أخذ القرارات التي تخص حياتها وحياة أبنائها.

وهناك تباين بين المرأة التي تسكن في القرية، والمرأة التي تسكن المدينة من ناحية الاستقرار في بيت منفصل عن بيت العائلة بعد وفاة الزوج. فالمرأة في المدينة تستطيع الاستمرار في السكن وحدها في منزل مستقل عن بيت الأهل أو بيت أهل الزوج، ولكن المرأة في القرية لا تستطيع بعد وفاة زوجها أن تسكن في بيت منفصل. كما حصل مع زوجة شهيد اضطرت هي وابنتها للسكن في بيت عائلتها على الرغم من ضيق المسكن وغياب مكان مخصص لها ولابنتها. زوجة الشهيد في المدينة التي تعمل، وبالتالي مستقلة اقتصادياً، وباستطاعتها تدبير أمورها، ولكن زوجة الشهيد في القرية ذات المستوى التعليمي المتدني وجدت صعوبة في الحصول على عمل، وبالتالي لم تستطع تحدي إرادة الأهل، كونها لا تملك نقطة إسناد حقيقية يمكنها الاعتماد عليها.

اعتبرت زوجات الشهداء أن الدعم المادي الذي يتلقينه غير كافٍ، وهو غير منتظم، ويفتقد لمعايير مقننة ومحددة تحكمه. ولذا، لا توجد مساواة في تقديم الدعم لزوجات وأسر الشهداء. بعض الأسر تتمكن من الحصول على مساعدات بسبب صلتها بتنظيم معين، وحتى داخل التنظيم الواحد لا توجد مساواة في تقديم الدعم الاقتصادي، فهذا يعتمد على العلاقة والمعرفة بالمسؤول، ولا يعتمد على معايير محددة وواضحة. أما الإسناد النفسي والاجتماعي فهو شبه غائب، ولا توجد برامجٍ متخصصة لهذه الفئة على الرغم من حاجتها للدعم النفسي والاجتماعي، وبخاصة أن كثيراً من زوجات الشهداء، وحتى الأرامل الأخريات، هن صغيرات في السن، ومستوى تعليمهن متدنٍ، وبالتالي هن بحاجة لمن يساعدهن على تخطي مشاكلهن.

مما تقدم يتضح أن الأعباء التي تعيشها زوجة الشهيد هي أعباء مركبة من حيث تدني مستوى التعليم، ومن حيث القيود الاجتماعية التي تعيقها، ومن حيث التغير في الأدوار الاجتماعية التي تقوم بها، وحالة الفقدان التي تعيشها وما يترتب عليها من ضغوطات نفسية. كل هذا يستدعي أن تأخذ المؤسسات الفلسطينية دورها اتجاه هذه الفئة المهمشة من حيث تخصيص مؤسسة خاصة تعنى بشؤون زوجات الشهداء، يكون من مهامها وضع برامج خاصة لهن لتوليد الدعم والإسناد المادي (مثل تقديم قروض ميسرة للبدء بمشاريع مدرة للدخل)، وعقد دورات خاصة للتدريب تمكنهن من التمتع بمهارات معينة تؤهلهن للحصول على فرص عمل، وكذلك برامج إسناد نفسي لزوجة الشهيد ولأبنائها الأطفال والمراهقين.

توصيات:

- على المؤسسات الفلسطينية الرسمية وغير الرسمية والأحزاب الفلسطينية الاهتمام بهذه الفئة من النساء واحتياجاتها الفردية والأسرية.
- من المفيد إجراء دراسة معمقة عن واقع زوجات وأسر الشهداء وفي مختلف المناطق، كما من المفيد أن تشمل الدراسة النساء الأرامل بشكل عام.
- تقترح الدراسة على المؤسسات الحكومية وغير الحكومية التي تنشط في المجال الاجتماعي والنفسي وضع سياسة إرشادية ونفسية واجتماعية للنساء زوجات الشهداء.
- تقترح الدراسة التعامل مع زوجة الشهيد كرئيس أسرة، مثلها مثل الرجل رئيس الأسرة، وإعطاءها الصلاحيات اللازمة لتمثيل أبنائها في المؤسسات الرسمية والمعاملات الحكومية.

المرأة وحياة اللهو عند العرب قبل الإسلام: الجواري وتجارة الجنس

خليل عثامنة

اشتمل التراث الأدبي والإنساني الغني الذي تركه لنا الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر، ٨٦٨/٢٥٥م) عدا عن كتبه المشهورة، على عدد كبير من الرسائل التي تتخصص بموضوع واحد دون غيره. وقد بلغ عدد هذه الرسائل، التي تم طبعها وتحقيقها، ثماني وخمسين رسالة، تناول من خلالها كثيراً من القضايا الإنسانية والاجتماعية والدينية والفكرية والسياسية التي كانت تشغل بال المجتمع الإسلامي في عصره، أو في العصر الذي سبق عصره.

وخص الجاحظ المرأة برسالتين اثنتين سمى الأولى رسالة النساء، وسمى الثانية كتاب القيان.[1] وحكى في الرسالة الثانية ما ورد على لسان تلك الفئة الاجتماعية من الرجال الذين اشتهروا بامتلاكهم للجواري القيان، من تبريرات شرعية أو شبه شرعية ومسوغات أخلاقية تبيح لهم امتلاك الجواري، اللواتي أُعددن من أجل تزويد أبناء هذه الطبقة المرفهة بالمتعة وأسباب اللهو والطرب. وكانت الغاية من هذه الرسالة التصدي من قبل هؤلاء لسيل الانتقادات وشتى أنواع التهم الموجهة لهم. وكان دفاعهم قد انحصر في أمرين: الأول أن الشريعة الإسلامية المتمثلة بكتاب الله وسنة رسوله لم تورد تحريماً صريحاً يمنع المسلم من اقتناء الجواري أو الاستمتاع بالقيان منهن خاصة. وطالما كانت هذه السنة تخلو من تحريم صريح، فيكون الأمر مطلقاً مباحاً، سواء استقبحه الناس أو استحسنوه، مؤكدين أن الاستقباح أو الاستحسان لا يرقى إلى مستوى الحكم الشرعي، بالإضافة إلى كونه غير داخل في معايير القياس لدى الفقهاء.

أما الأمر الثاني الذي استندوا إليه في دفاعهم، فكان إحالتهم إلى سنن العرب وعاداتهم في الجاهلية وصدر الإسلام التي أباحت الاختلاط بالنساء، والاجتماع بهن، والتحدث إليهن، والتعامل معهن، من دون أن يثير ذلك ريبة في النفوس، حيث لم يكن بين الرجال والنساء حجاب. فلم يكن الاتصال بين الرجل والمرأة مقصوراً على النظرة في لحظة الخلسة، بل كان اتصالاً عفوياً، يجتمع الجنسان معاً ويتحادثان ويتسامران ويتجالسان عن كثب على مشهد ومسمع من الأولياء والأهل والأزواج طالما أمن هؤلاء حصول ما يستنكر

من هذه المجالسة. ولم يزل الرجال يمارسون هذا النوع من المجالسة والتواصل حتى نزلت آية الحجاب على أزواج رسول الله (ص) خاصة. ومع ذلك، ظلت حرائر النساء من العرب يقعدن للرجال للحديث، لم يكن ذلك عاراً في الجاهلية، ولم يصبح حراماً في الإسلام.[٢]

ولا بد لنا قبل الاستفاضة في هذا الموضوع أن نأتي بتعريف علمي دقيق يوضح للقارئ ماهية بعض الألفاظ والمصطلحات المفصلية التي يتشكل منها هيكل هذا البحث. فالجارية وجمعها الجواري، هي الأنثى التي يمتلكها المسلم رجلاً كان أم امرأة، يتأتى هذا الامتلاك إمّا بالشّراء، وإما بالهدية، وإما بالميراث عن مورثه. وتكون الجارية ملكاً لهذا الرجل بواحد من هذه الأسباب الثلاثة. وكونها أنثى مملوكة فهي لا تتمتع بحريتها ولا تستطيع أن تمتلك أمر نفسها أو مصيرها. فيستطيع سيدها أو سيدتها بيعها كما تباع السلعة. ويستطيع أن يهديها لغيره. كما يستطيع أن يعيرها إذا شاء كما يعار ماعون البيت. وفوق هذا كله فامتلاك السيد لهذه الأنثى يبيح له أن يعاشرها متى شاء أو أن يعيرها لشخص آخر يرغب في معاشرتها. وقد أباح الإسلام، بل أحل للمسلم نكاح جاريته أو جواريه قل عددهنّ أم كثر بشكل مطلق ودون أية قيود.[٣] أمّا القيان، محور البحث في هذه المقالة فهي صيغة الجمع لقينة، والقينة هي الجارية المغنية. وأصل مدلولها المرأة العاملة. فهي الجارية التي تستملك من أجل تأدية الأعمال والصنائع من أجل ممتلكيها. فلما كانت الجارية التي تدرب على فنون العزف واللعب على آلات الموسيقى وصنعة الغناء، تمارس ذلك خدمة لسيدها، فقد عرفت باسم القينة، حتى صار ذلك علماً على الجارية المغنية.[٤]

موارد الرقيق في الجاهلية

كانت ظاهرة الرقيق منتشرة في بيئة العرب في الجاهلية، وكان هذا الرقيق، الذكور والنساء من العرب وغير العرب. وكان غالبية الرقيق العربي من النساء، فكون المرأة العربية ليست عنصراً محارباً كان يجعلها عرضة للوقوع في الأسر والسباء أكثر من الرجال. وكان الأسر في الحرب أو أخذ السبية من بيتها يحولها تلقائياً إلى جارية رقيق يعود لآسرها الحق في امتلاكها، وقد خوّلته قوة السلاح هذا الحق كما تعارفت على ذلك العرب. فيستطيع هذا المالك أن يستبقيها بحوزته، ويستطيع إذا شاء أن يَمنَ عليها بحريتها فيطلق سراحها لتعود إلى أهلها. وتمتلئ كتب التاريخ، وبخاصة الأخبار المتعلقة بأيام العرب في الجاهلية، كما كتب الأدب، بعبارات تدل على ظاهرة سبي النساء واسترقاقهن من مثل عبارة: "استاقوا النعم وأصابوا النساء"، أو عبارة "أن المغيرين أصابوا نسوة والحي خلوف"، أو عبارة "سبوا نساء الحي".[٥] وكانت هذه النساء التي تسبى أو تقع في الأسر كثيراً ما توزع بين جماعات

المغيرين، يأخذ كل محارب نصيبه من النساء كما يأخذ نصيبه من الغنيمة؛ وقد حفظت لنا بعض روايات الأيام قوائم بأسماء النساء السبايا وأسماء من وقعن في نصيبهن من المغيرين، كما حدث يوم النّسار حين سبيت بعض نساء بني تميم. وعلى الرغم من كثرة عدد النساء اللاتي وقعن بالأسِر، فإن الرواية اقتصرت على ذكر أكثرهن شرفاً وأرفعهن نسباً وأعرضت عن ذكر الباقي.[٦]

وكان زعماء القبائل الأكثر قوة وشجاعة هم الأوفر حظاً في الاستيلاء على النساء والسبايا من بين نساء القبائل المستهدفة. ويروى في هذا الصدد ما قاله سيد بني شيبان بسطام بن قيس لأمه ليلى بنت الأحوص الكلبية، معبراً عن كثرة من سبى من بنات القبائل وجعلهن رقيقاً لأمه، حيث يقول: "أني قد أخدمتك من كل حي أمةً، ولست منتهياً حتى أخدمتك أمة من بني ضبّة".[٧]

ويذكر بعض الرواة أحياناً أرقاماً خيالية عن عدد السبايا والأسرى من النساء والذكور الذين فقدوا حريتهم نتيجة للسبي فاسترقّوا واستعبدوا. فيروى في هذا السياق أن أحد أقيال (ملوك) اليمن وهو سَمَيْفع الكلاعي، قد وفد على الخليفة عمر بن الخطاب أثناء مدة خلافته وأبلغه أنّه يمتلك أربعة آلاف عائلة من الرقيق كان أسرهم إبان حروبه قبل الإسلام.[٨] وعلى الرغم من وجوب أخذ الحيطة والحذر إزاء الأرقام التي يوردها الرواة في مثل هذه الحالات، فإن هذا الرقم المرتفع إنما يقصد به الإشارة إلى الكثرة وليس إلى العدد الحقيقي لعبيد هذا الزعيم اليمني.

إلى جانب هذا المورد الغني من موارد الرقيق، كان هناك مورد الرقيق غير العربي الذي كان يتسرب إلى جزيرة العرب من البلدان المجاورة في بلاد الشام والعراق ومصر وبلدان شرق أفريقيا، مثل إثيوبيا واريتريا والصومال، بالإضافة إلى بلدان جنوب شرقي آسيا التي كان اتصالها بجزيرة العرب تحكمه علائق التجارة وتبادل السلع. ويكفي أن نذكر في هذا السياق الجهات التي اعتاد تجار أهل مكة ارتيادها في مواسم السنة المختلفة، وهي البلدان التي كان يقصدها تجار قريش الذين عرفوا باسم "أصحاب الإيلاف"، كما ورد في تفسير سورة الإيلاف التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.[٩] وإذا كانت أقطار هؤلاء الرقيق متعددة، فإن أجناسهم ومعتقداتهم كانت متباينة، كذلك فمنهم المسيحي واليهودي والمجوسي والوثني. ويكفي أن نذكر في هذا السياق ما أورده بعض النسابين العرب من فصول يذكرون فيها أسماء القرشيين الذين ولدتهم إماء من أعراق مختلفة. كأبناء الحبشيات، وأبناء السنديات (الهنديات)، وأبناء النبطيات، وأبناء اليهوديات، وأبناء النصرانيات.[١٠]

وبسبب تعدد هذه الموارد، وبسبب انتشار ظاهرة الرقيق العربي والأجنبي في المجتمعات العربية قبل الإسلام، نشأت بعض الأسواق المنظمة الذي يعرض فيها الرقيق للبيع والشراء، سواء أكان المحلي منهم أم الأجلاب الذين يؤتى بهم من خارج الجزيرة.

وقد أشار شاعر النبوة حسان بن ثابت الأنصاري إلى بيع الرقيق في الأسواق في قصيدة قالها بمناسبة معركة أُحُد بين قريش وبين المسلمين حين يقول:[١١]

فلولا لواء الحارثية أصـــــبحوا يباعون في الأسواق بيع الجلائب

وكانت في مكة سوق خاصة يباع فيها الرقيق تعرف باسم سوق الرقيق. ولعلها كانت أهم هذه الأسواق وأشهرها لكون هذه المدينة مدينة الحجاز الأولى، عدا عن دورها الديني والاقتصادي المزدهر.[١٢] ولم تكن مكة السوق الوحيدة التي يباع فيها الرقيق في الجاهلية، إذ أوردت المصادر التي بين أيدينا ذكراً لبعض الأسواق المماثلة، وكان من بينها سوق عكاظ القريبة من الطائف. وفي هذه السوق بيع زيد بن حارثة الذي اشترته زوج الرسول الأولى خديجة بنت خويلد، ثم أهدته إلى الرسول بعد زواجها منه. وبه بيعت النابغة أم عمرو بن العاص وكانت قد وقع عليها سباء فاشتراها عبد الله بن جدعان نخّاس مكة المشهور وباعها للعاص بن وائل فولدت له عمراً.[١٣] ولما كانت هذه الأسواق لا تعقد إلا في مواسم محددة من السنة، كانت بعض القبائل التي حازت سبياً من غاراتها أو حروبها ترحل عن مواطنها في البادية، وتخرج بمن معها من السبي تعرضهم للبيع على الغادين والرائحين على طرق المسافرين أو المنتجعين.

الخدمات التي تؤديها السبايا

كانت السبية من النساء تظل في حيازة آسرها إذا لم تتقدم قبيلتها بفدائها مقابل ما تدفعه من مال، أو إذا لم يمنن عليها من سباها بحريتها فيطلق سراحها من الأسر والسباء. وعند ذلك تتحول هذه السبية إلى أمة سليبة الحرية لا تملك من أمرها شيئاً، فيظل مصيرها مرهوناً بإرادة سيدها وإرادة قومه. ويكون للسيد الحق في معاملتها معاملة الرقيق يستخدمها في أي عمل يريد، وتكون تحت تصرفه وتصرف أبناء عائلته. وكانت الغالبية الساحقة من هذه الإماء تستخدم في الأعمال المنزلية اليومية إذا ما كانت أمةً لإحدى الأسر التي تقيم في القرى والمدن. أما إذا كانت الأسرة تقيم في البادية، فإن الخدمات التي تؤديها الأمة تكون تبعاً لأحوال المعيشة التي تمارسها تلك الأسرة. وترد في الشعر الجاهلي أحياناً بعض الإلماحات إلى شتى أنواع الخدمات التي كانت تؤديها هذه السبايا للسيد أو لأسرته. ففي بيت لزهير بن أبي سلمى ترى فيها الإماء وهن يهيئن الجمال ويضعن عليهن الأقتاب استعداداً لرحيل القبيلة من حيّها إلى مكان آخر فيقول:[١٤]

رَدّ القيانُ جِمال الحي فاحتملوا   إلى الظـــــــهيرة أمر بينهم لَبِك

ثم نراهن في الأيام العادية هن اللواتي يقمن بالطبخ وإعداد الطعام، وبخاصة إذا ما طرق سيدها ضيف ليلي طارئ. يقول الشاعر طرفَة بن العبد في هذا المعنى:[١٥]

تبيت إماءِ الحيّ تطهي قدورنا   ويأوي إلينا الأشـــعثُ المتجرّفُ

ونرى الإماء في موضع آخر وقد اصطحبهن السيّد في أسفاره أو رحلة صيده أو سراه في الليل، ليقمن بإعداد الشواء له ولرفاقه عندما ينزلون للاستراحة من وعثاء السفر، فيقول طرفة أيضاً في هذا المعنى:

فظلّ الإماء يمتللن حُوارهـــــا   ويسعى علينا بالسَّديفِ المُسرْهَدِ[١٦]

وكانت الأمة هي التي تكلف بجمع الحطب ونقله حُزَماً كوقود للنار التي يرتفق بها الناس.[١٧] هذا بالإضافة إلى المهام اليومية التقليدية التي كانت تناط في العادة إلى الإماء دون الحرائر من سيدات العرب، وبخاصة عملية حلب الماشية في الصباح وعند المساء، عندما يروح القطيع عائداً من المرعى إلى البيت. فيشير الشاعر سحيم عبد نبي الحَسْحاس إلى هذه الوظيفة التي كانت تؤديها أمّة التي كانت جارية من الرقيق، وما كانت تقوم به من تغطية ضرع الناقة بخرقة من قماش كي تمنع فصيلها من أن يرضع حليبها، وذلك قوله:[١٨]

فما ضَرّني أن كانت أمّي وليدةً   تَصُرُّ وتَبري باللقــــــــاح التواديا

وكان حلب الماشية على الغالب يُناط بالإماء وبالعبيد عند العرب، وقد عبر عن ذلك شاعر المعلقات عنترة العبسي، الذي كان نفسه عبداً ولدته على فراش أبيه أمة سوداء إلى أن منحه أبوه حريته وألحقه بنسبه. فعندما دعاه أبوه للقتال يوم أغارت عليهم بعض أحياء العرب رفض عنترة الامتثال لهذا الطلب، وسمعت في كلامه نبرة الاحتجاج على عدم اعتراف أبيه بشرعية أبوته له قائلاً: العبدُ لا يحسن الكرّ إنما يحسن الحلاب والصّرَّ. فلما سمع أبوه ما قال وعده أن يلحقه بنسبه ويعترف ببنوّته فقال له: كُرَّ وأنتَ حُرّ.[١٩]

المتعة الجسدية والخدمات الجنسية

لم تكن خدمات الإماء مقصورة على الخدمة المنزلية أو نواحي المعيشة الأخرى، بل كانت فئة منهن، وبخاصة الجميلات، يتخذن متاعاً للرجل، فمنهم من يتخذ السبيّة الجميلة الحسناء خليلة له يتمتع بمعاشرتها ومضاجعتها دون أن يتنازل عن حقه في ملكيتها، أي أنها تظلّ أَمَة لا يتغيّر وضعها القانوني. وكان بعضهم يتخذها حليلة له تضاهي مكانتها مكانة الزوجة المهيرة. وقد أباح العرب في الجاهلية لأنفسهم حق معاشرة السبايا كمعاشرة الزوجات الشرعيات. وكانوا يعتقدون أن شرعية هذه المعاشرة تستمد من كونها سبية امتلكها بقوة السلاح. يقول الشاعر الجاهلي في هذا الصدد:

فما أنكحونا طائعين نساؤهم ولكن خطبناها بأرماحـــــنا قهراً[٢٠]

وقد أكدّ هذه القاعدة القانونية بيت آخر قاله الشاعر الإسلامي المشهور الفرزدق، بين فيه أن سبي المرأة بقوة السلاح يحل لآسرها وسابيها فرجها ونكاحها حتى ولو كانت امرأة متزوجة ولها بعل، فقال في هذا المعنى:

وذات حَليل انكحتنا رماحُنا حـــــلال لمن يبني بها لم تطلّق[٢١]

وكان هذا العرف سائداً بين العرب حتى أنه شاع بينهم الاعتقاد بأن حق الرجل في نكاح أمته وفي فرجها أقوى من حقه في نكاح زوجته الذي أعطاه إياه عقد الزواج.[٢٢] واستناداً إلى هذه القناعة لا يبدو غريباً ما ورد في الروايات من أن أحدهم قد أغار على قوم من بني عبس فاستاق بعض الأبل، وأخذ بعض نسائهم سبايا، فلما ابتعد عن أرضهم قليلاً نزل واختار إحدى السبايا وضاجعها.[٢٣] وكانت الرغبة في إقامة العلاقة الجنسية تأتي أحياناً من قبل المرأة السبيّة نفسها، فإذا كانت السبية ذات حظّ من الجمال، أو إذا كانت من أسرة رفيعة النسب تتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة، فإنها كاًنت تربأ بنفسها عن الخدمة في منزل سيدها مثل غيرها من السبايا. ولكي تلفت نظر سيدها وتثير فضوله، كانت تعمد إلى إغوائه بوسائل شتى، فتتعرض له في فناء المنزل وهي تتثنى في مشيتها أو إبراز شيء من مفاتنها حتى تظفر به فيتخذها لنفسه لمتعته. وقد أشار الشاعر أبو ذؤيب الهندلي إلى هذه الظاهرة حين قال:[٢٤]

عشية قامت بالغناءِ كأنها عقيلة نهب تُصطفى وتغوجُ

ويجدر التنويه في هذا المقام أن حق السيد في جسد جاريته، كان من القوّة والتجذر في المجتمعات العربية في الجاهلية، بحيث أن الإسلام لم يتعرض لإلغائه، بل أبقى عليه كما هو. وظل لمالكي الإماء الحق في معاشرة جواريهم كمعاشرتهم لزوجاتهم الشرعيات. وورد ذلك صريحاً في قوله تعالى: "أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألاّ تعولوا" (سورة النساء: الآية ٣).

إكراه الإماء على البغاء

كان بعض السادة الذين يملكون الإماء، لا يكتفي باستغلاله لأمته إشباعاً لمتعته الجسدية فحسب، بل كان يستخدم الأمة لكسب المال والمتاجرة بجسدها. وقد ذكر محمد بن حبيب أن من سنن العرب في الجاهلية أنهم كانوا يكسبون بفروج إمائهم. فكانت الأمة من هؤلاء ترفع راية فوق خيمتها حين تنصبها حيث تقوم الأسواق فيقصدها الراغبون مقابل أجر يؤدونه.[٢٥] ويسمون في هذا الصدد سُمية أمة الحارث بن كَلدة والدة زياد بن أبيه التي روى عنها أنها كانت من البغايا ذوات الرايات في الجاهلية، وكانت تنزل في المكان الذي تنزل فيه البغايا بالطائف في محلة تعرف باسم حارة البغايا. فكان سيدها الحارث بن كلدة يتقاضى ضريبة يأخذها من الأجر الذي تكسبه.[٢٦] وأورد الواحدي النَيْسَابوري قائمة بأسماء تسع إماء عرفن بصاحبات الرايات في مكة والمدينة، وكان لهن رايات كرايات البيطار يرفعنها فيستدل بواسطتها الباحثون عن المتعة. وكانت بيوت هؤلاء البغايا تعرف في الجاهلية باسم المواخير لا يدخل عليهن إلاّ زان.[٢٧] وتبين هذه القائمة أن تجارة الجنس كانت تجارة حضرية عني بها أهل القرى والمدنً دون أهل البادية. ولم يكن المشتغلون بهذه التجارة من عرض الناس، بل كانوا من أشراف القوم من وجهاء مكة والمدينة، كما تدل على ذلك أنسابهم.[٢٨] فلما جاء الإسلام وهاجر النبي وأصحابه من مكة إلى المدينة أراد بعض فقراء المهاجرين ممن ضاقت بهم أسباب العيش أن يتزوجوا من هؤلاء البغايا اللواتي يكرين أنفسهن طمعاً في الكسب السهل. فلما استأذنوا الرسول في ذلك حرّم عليهم الزواج بالزانيات، وعلى هذه الخلفية نزلت الآية الكريمة: "الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة".[٢٩] ولدينا بعض الإشارات على أن تجارة الجنس لم تكن مدنية فحسب، بل كانت عامة بين العرب سكان البوادي وسكان القرى والمدن جميعاً. فعندما كان يعقد سوق دومة الجندل التي كان مشايخ قبيلة كلب يتولون أمرها، كان هؤلاء الشيوخ يأتون بإمائهم فيقمن في حوانيت وبيوت مُعَلّمة يقدمن الخدمات الجنسية للراغبين من رواد السوق لقاء أجر معلوم، وذلك بقرار من هؤلاء الشيوخ، حيث كانوا يكرهون هذه الإماء على البغاء.[٣٠] وقد منع الإسلام أصحاب الإماء من إكراه فتياتهم على الزنا طمعاً في المال، فنزلت في هذا الصدد

الآية الكريمة: "ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا" (النور:٣٣). وأورد المفسرون سبباً آخر لنزول هذه الآية، فروى محمد بن جرير الطبري أنها نزلت على خلفية إكراه زعيم المنافقين في المدينة عبد الله بن أبي بن سلول جاريتيه على البغاء لقاء أجر تتقاضيانه من زوارهما. فلما اشتكت إحداهما ذلك إلى رسول الله نزلت الآية المذكورة. وذكر الطبري أنه كان لعبد الله بن أبي جارية اسمها مُسيكة، وجارية ثانية اسمها معاذَة كان يكرههما على الزنا مقابل المال.[٣١] وجاء في رواية أخرى أنه كان لديه ستُّ جوار وليس اثنتين، وكن جميعاً يعملن في البغاء في المدينة.[٣٢]

الهوامش:

[١] انظر رسائل الجاحظ من تحقيق عبد السلام هارون: الجزء الأول لسنة ١٩٩٤، والجزء الثاني لسنة ١٩٦٥، والجزآن الثالث والرابع لسنة ١٩٧٩ الصادرة عن مكتبة الخانجي بالقاهرة.

[٢] كتاب القيان، رسائل الجاحظ ١٤٣-١٤١ .II.

[٣] سورة النساء III الآية ٤٠: "وإن خفتم إلاّ تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم إلاّ تعدلوا فواحدة، أو ما ملكت إيمانكم، ذلك أدنى إلاّ تعدلوا".

[٤] المفضل بن سلمة، الفاخر. (طبعة ليدن ١٩١٥)، ص ٢٣٨-٢٣٩؛ وانظر أيضا: ناصر الدين الأسد. القيان والغناء، (دار العارف. القاهرة، ١٩٦٨) ص ١٥-٢٤.

[٥] القيان والغناء، ص ٣٠.

[٦] أبو عبيدة، معمر بن المثنى، نقائض جرير والفرزدق، (تحقيق بيفان، ليدن ١٩٠٥) ص ٢٤١-٢٤٢؛ قارن أيضاً: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (الطبعة الرابعة؛ بيروت ١٩٨٣)، ج١ ص ٣٧٧.

[٧] النقائض، ص ١٩٠.

[٨] المصدر السابق. ص ٤٦.

[٩] محمد بن حبيب. المحبر، (طبعة الهند، ١٩٤٢)، ص ١٦٢-١٦٤.

[١٠] المصدر نفسه، ص ٣٠٦-٣٠٨؛ وقارن أيضا: المنمق (تحقيق خورشيد أحمد فارق)، بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٥، ص ٤٠٠-٤٠٣؛ ابن الأثير، أسد الغابة، القاهرة: المطبعة الذهبية، ١٢٨٥/١٨٦٨، ج٥ ص ١٩٤، ٤٦٢.

[١١] شرح ديوان حسن بن ثابت الأنصاري، (تصحيح وضبط عبد الرحمن البرقوقي)، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٢٩، ص ٢٦.

[١٢] انظر الإشارة إلى سوق الرقيق في مكة، في كتاب: الكامل في التاريخ، ج١ ص ٣٤٣-٣٤٤، وانظر عن أخبار هذه السوق في ابن سعد. كتاب الطبقات الكبرى، (تحقيق إدوار سخاو)، ليدن ١٩٠٤، ج٣ (١) ص ١١٦، ص ١٦١.

[١٣] ابن سعد. كتاب الطبقات، ج٣ (١) ص ٢٧؛ ابن قتيبة، المعارف، (تحقيق ثروت عكاشة)، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٩، ص ١٤٤؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد. (تحقيق احمد أمين وآخرون)، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٦٥، ج١ ص ٥٤.

[١٤] ديوان زهير بن أبي سلمى (برواية أبي العباس ثعلب)، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤ ص ١٦٤.

[١٥] شرح ديوان طرفة للأعلم الشنتمري. (طبعة شالون، ١٩٠٠)، ص ١٢٧.

[١٦] يصف هذا البيت الإماء وهن يشوين شرائح لحم الجزور على الجمر، ثم يطفن بهذه الشرائح المقددة من سنام الجزور ويقدمنها لجلساء سيدهن. انظر: شرح ديوان طرفة، ص ٤١.

[١٧] انظر عن هذا المعنى بيت طرفة أيضا حين يقول:

لا أرى إلاّ النعام به كالأماء أشرفت حُزَمُهْ

تشبه أجنحة النعامة وهي تستعد للجري، كحُزمة الحطب التي تحملها الأمة على رأسها فيخرج طرفاها من هنا ومن هنا. شرح الديوان أيضاً، ص ٧٠.

[١٨] ديوان سحيم، (تحقيق عبد العزيز الميمين)، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر مصورة عن طبعة دار الكتب، ١٩٦٥ ص ٢٦.

[١٩] أبو الفرج الأصفهاني. كتاب الأغاني (طبعة بولاق، ١٨٦٨)، ج٧ ص ١٤٩.

[٢٠] الزمخشري. ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، (تحقيق سليم النعيمي)، الأعظمية، بغداد، (دون تاريخ)، ج٣ ص ١٤.

[٢١] الأغاني. ج١٩ ص ١٤؛ قارن ايضاً: المرزياني، نور القبس (تحقيق زلهايم ر.) فيسبادن، ١٩٦٤، ص ٤٠-٤١؛ ابن رشيق القيرواني. العمدة، (تحقيق محي الدين عبد الحميد)، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٧٤، ج١ ص ٥٥.

[٢٢] المسعودي. مروج الذهب (تحقيق شارل بلاّ)، باريس، ج٢ ص ٣٢٩.

[٢٣] النقائض (نفسه) ص ٦٧٩.

[٢٤] لسان العرب لابن منظور، مادة: (غوج).

[٢٥] المحبّر، ص ٣٤٠.

[٢٦] مروج الذهب، (تحقيق دي منار، باريس)، ١٨٦٩، ج٥ ص ٢٢؛ وانظر أيضاً: البلاذري، انساب الأشراف، ج٤ (ب)، تحقيق: م.ي. قطر، القدس ١٩٧٢، ص ١٦٣.

[٢٧] أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري. أسباب النزول، (طبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٨)، ص ١٨٠.

[٢٨] انظر: المصعب الزبيري. نسب قريش (تحقيق ليفي بروفنسال) الطبعة الثانية، القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٣.

[٢٩] سورة النور:٣؛ وانظر: أسباب النزول، ص ١٧٩-١٨٠؛ قارن أيضا: السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، (بيروت: دار إحياء العلوم، حيث الطبعة الثالثة، ١٩٨٠) ص ١٥٢.

[٣٠] المحبرّ، ص ٢٦٤.

[٣١] محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل القرآن، (القاهرة: مطبعة مصطفى اليابي الحلبي، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨)، ج١٨ ص ١٣٢-١٣٣؛ قارن أيضا: ابن حجر العسقلاني. الإصابة في تمييز الصحابة، (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٨/١٩١٠)، ج٤ ص ٤٠٨-٤٠٩؛ لباب النقول، ص ١٥٩؛ قارن أيضاً: عمر بن شبّة، تاريخ المدينة، (تحقيق: فهيم شلتوت)، بيروت: دار التراث، ١٩٩٠، ج١ ص ٣٦٧-٣٦٩.

[٣٢] أسباب النزول، ص ١٨٨.

قصــة شــابتين

أميرة سلمي

"البداية كانت صعبة، أيام كانت فعلاً صعبة [الاجتياح، منع التجول، قلة الشغل...] لما أخذنا على الوضع. صح صار عندك قوة شخصية، تعرفت على ناس كثير، تعلمت من غربتك، بس في المقابل صفت نظرة الناس اللي النا هون (هنا). عمري ما سمعت ابن شمال وابن وسط وابن جنوب ... البنات في الذات. سكنات البنات انه دير بالك هذا سكن بنات في عين عليه، حدا طلع حدا نزل حدا قام وين مكان (في كل مكان). كنا نسمع هذا الحكي يعني أنها مشكلة بتواجه الجميع".[١]

هذه الورقة تروي قصة شابتين؛ فداء وهند. وهما اثنتان من أربع شابات تتراوح أعمارهن ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين عاماً. الشابات الأربع جئن من مناطق مختلفة في الضفة الغربية إلى رام الله للعمل، ووجدن أنفسهن مضطرات للسكن فيها بحكم ظروف الانتفاضة الثانية، وما فرضه الاحتلال من إغلاق وحواجز ومنع تجول. تجربتهما تشبه تجربة العديد من الفتيات اللاتي انتقلن من منازل أسرهن للعمل أو الدراسة في مراكز المدن بشكل عام، وفي رام الله بشكل خاص. التجربة تشكلت بفعل عوامل ترد في الاقتباس أعلاه: الاحتلال، والبحث عن العمل، والشعور بالغربة، وكونهن نساء.

الورقة بشكل أساسي تروي ما جاء على لسان الشابتين عن حياتهما كما تريانها، وبلغتهما وأسلوبهما في التعبير عن القضايا التي تم طرحها خلال لقاءاتنا معهما، حيث توجه فريق البحث في معهد دراسات المرأة إلى هؤلاء الشابات لمقابلتهن حول قضايا تتمحور في الأساس حول التغيرات التي أصابت المجتمع الفلسطيني خلال فترة الانتفاضة الحالية، والطرق التي يحاول بها الناس التكيف مع ظروفهم المستجدة. وكانت حياة هؤلاء الفتيات في أم الشرايط في رام الله بعيداً عن عائلاتهن، والعيش كأسرة معيشية جديدة مع بعضهن، من القضايا التي تطرقت إليها الشابات خلال المقابلات، بطريقة تعكس اهتماماتهن والقضايا المختلفة التي يتعاملن معها كشابات وكنساء.

---

[١] جرت مقابلة النساء الأربع في شقتهن في أم الشرايط في ٢٠٠٥/١/٣١، حيث ركزت المقابلة على حياة النساء الأربع في رام الله، وعلاقتهن بالسكن وبعملهن. وكانت هناك مقابلة فردية مع فداء في ٢٠٠٥/٢/١٦ تم التركيز فيها على دراسة فداء وعملها وعائلتها وتطلعاتها إلى المستقبل، تلت هذه المقابلة، مقابلة مع هند في ٢٠٠٥/٢/٢١. وتطرقت المقابلة معها أيضاً إلى المواضيع نفسها التي تناولتها المقابلة مع فداء.

القصة تروي قصة شابتين فلسطينيتين إحداهما من وسط الضفة الغربية والأخرى من شمالها، وعلى الرغم من توقعنا أن الاختلاف الجغرافي قد يؤدي إلى اختلاف في القضايا التي تركز عليها كل منهما، أو على الأقل في القدرة على التعامل معها، فإن هذا الاختلاف -كما يتضح في هذه الورقة- بقي محدوداً.

في كلتا الروايتين كان العمل القضية الأساسية التي تشغل بال الشابتين، الانتقال من عمل إلى آخر، أو بتعبير أدق من مشروع إلى آخر، أحياناً لأن المشروع انتهى، ومرة بسبب شعور بالاستغلال أو عدم التقدير، كان السمة التي جمعت تجربة الشابتين. قد تكون إحدى الفتاتين في فترة المقابلة أكثر حظاً في هذا المجال من الأخرى، وقد تختلفان في كيفية التعامل مع هذه القضية، ولكن في سياق من العولمة والاحتلال، واقتصاد تابع قائم على مشاريع تمولها دول مانحة، تبقى قصة البحث عن عمل والتنقل من واحد لآخر قصة قطاع كبير من الشباب الفلسطيني، وبغض النظر عن درجة الدقة، فإنها أيضا تبقى قصة التحولات التي أصابت المجتمع الفلسطيني.

ربما يمكننا القولأن التحولات التي جرت منذ إنشاء السلطة الفلسطينية بعد اتفاقيات أوسلو وما تبعها من تغيرات سياسية واقتصادية، انعكست بشكل كبير على الحياة في المدن الفلسطينية وبشكل خاص في رام الله. هذه التحولات التي أصابت أيضاً معنى العمل السياسي في المجتمع الفلسطيني تبدو واضحة في قصة كلتا الشابتين، على الرغم من الاختلاف التاريخي لكل منهما، ففداء هي ابنة مقاوم انضم إلى المقاومة الفلسطينية منذ بدايتها، وعاش معها بعيداً عن أسرته التي تنقلت بين سوريا وعمان، وبالنسبة لفداء هي الآن عائدة لأن والدها عائد، أما هند فقد عاشت الانتفاضة الأولى في فلسطين، وشاركت فيها كما شاركت العديد من الفتيات الفلسطينيات، ولكن ما أن أصبحت فداء شابة حتى كان معنى النشاط السياسي موضع تساؤل كبير.

وربما كان تركيز قصة الشابتين على العمل والتعليم، وحديث هند عن رغبتها في إكمال دراستها حتى درجة الدكتوراة، وتمسك فداء بعملها، يأتي في محاولة لضمان مستقبل أصبح هو أيضاً موضع تساؤل كبير. القصة هنا قصة شابتين اعتادتا كما قالت كل منهما على الاعتماد على النفس، وكل منهما تشعر أنها عملت على بناء نفسها، وترفض أن تتنازل عن أي من مقومات الاستقلال الذي حققتاه، وبالنسبة لهما فقدان العمل هو تهديد لهذا الاستقلال، ولكن الزواج قد يكون تهديداً آخر، وكلتاهما تتفقان أنهما ليستا على استعداد للمساومة على استقلال شخصيتهما من أجل علاقة زواج.

السكن في رام الله

تقول فداء، وهي مهندسة تعمل منسقة مشروع في إحدى المؤسسات التنموية، إن فكرة السكن في رام الله أصبحت واقعاً فرضته الظروف الاقتصادية والسياسية.

وتوضح: "بالنسبة إليَّ، أهلي في الوضع العادي ما كانوش راح يقبلوا (لم يكونوا ليقبلوا) بس هلأ (لكن الآن) صار عادي [السكن في رام الله]. قبل الانتفاضة ما كنوش يقبلوا آجي أسكن هون". عائلتها تقبلت انتقالها للسكن بناء على هذا الواقع: "فيش (لا يوجد) ردة فعل إلهم لأنه صفا (أصبح) واقع ..".

هند باحثة ميدانية درست زراعة في جامعة النجاح في نابلس. عملت لفترة منسقة مشروع وباحثة في مشاريع مؤقتة، وهي تقول إنها طلبت في آخر مشروع عملت فيه أن يتم تعيينها في رام الله بعد أن كانت تعمل في جنين، وذلك رغبة منها في التغيير وتجربة الحياة في رام الله، وهي تحضر لرسالة الماجستير. تصرح هند:

"إذا بدهم [الأهل] إيانا نشتغل بدهم يوافقوا على السكن، أو إذا بدهم إيانا ندرس يعني لأنه صفا الوضع مش بس على أهالينا مفروض على كل الفلسطينية هي فداء من قضا رام الله يعني بتبعدش (لا تبعد) ثلث ساعة ومضطرة أنها تسكن لأنه البوابة ممكن بأي يوم من الأيام تسكر (تغلق) ومتقدرش (لا تستطيع) تروح على شغلها. فصفا وضع مش بس للشمال والجنوب هيكا (هكذا)، صفا وضع على أقرب القرى للمدينة بضطروا أنهم يسكنوا".

الاعتماد على الذات

فداء هي كبرى أخوتها وأخواتها. وباستثناء أختها التي تليها يوجد فرق عمري بينها وبين بقية أخواتها وأخوتها، خصوصاً بينها وبين أخوتها الذكور، يصل إلى أكثر من اثني عشر عاماً. عن ذلك تقول: "يعني بتقدري تقولي أنه أنا تربيت في جو فش في (لا يوجد فيه) ولاد، في جو بنات أكثر". وترى فداء أن هذا أثر بشكل كبير على تربيتها وشخصيتها:

"هذا حملني مسؤولية زيادة. عادة عنا في مجتمعنا بركنوا (يعتمدون) على الشب (الشاب) أكثر من البنت، بس أهلي لأ (لا). كانوا بعتمدوا علينا كأننا شباب وزيادة، وبعدين صار في عندهم طموح أنهم يعلمونا ونصير شي أكثر من لو كان في شباب بيننا. بتخيل أنه لو كان في شباب بينا كان الاهتمام إلهم (لهم) بكون الأكبر".

انتقلت فداء في طفولتها وصباها من مكان إلى آخر تبعاً لعمل ونشاط والدها. والد

فداء انضم بعد العام ١٩٦٧ إلى منظمة التحرير الفلسطينية. وتقول فداء إنها عندما كانت وأخوتها أطفالاً كان والدها في بيروت، بينما هي وأمها وأخوتها سكنوا مخيم اليرموك في سوريا، حيث درست في مدارس سوريا حتى الصف الثالث الابتدائي. بعدها انتقلت مع أسرتها للسكن في الأردن، وبقيت هناك حتى سن السابعة عشرة حين انتقلت بعدها للدراسة في العراق. بعد عودتها من العراق كان والدها قد عاد إلى فلسطين، ولكن بقية الأسرة كانت لا تزال في الأردن. فداء لم تبق في الأردن، بل عادت مباشرة إلى الضفة الغربية لتعمل وتساعد والدها في تأسيس بيت للأسرة. تقول فداء إن والدها شعر منذ بداية تخرجها أن بإمكانه أن يعتمد عليها أكثر من أن يكون مسؤولاً عنها: "أبوي مش حاسس بالمسؤولية تجاهي صار، فهمتي كيف يعني؟ خايف علي بخاف علي لا شك، بس انه راكن علي، أو إنه حاسس بنوع إنه ارتاح من مسؤولية معينة فهمتي كيف".

هند هي الثانية بين أربعة أخوة وأربع أخوات. أخوتها الذكور جميعهم أصغر منها، ولكن الفرق العمري ليس كبيراً كما في حالة فداء. هند ترى أنها تختلف عن أخوتها وأخواتها في مدى استقلاليتها عن الأسرة: "أنا الوحيدة اللي بختلف تماماً يعني أنه من أنا صغيرة، وأنا متعودة إني أطلع وأروح وآجي وأبات برة الدار ...".

تقول هند إنها ومنذ صغرها كانت تقضي جزءاً كبيراً من وقتها في بيت جدّيها، وعلى الرغم من أن هذا لم يخرجها عن نطاق العائلة، فإنه لعب دوراً أساسياً في نشاطها وتشكيل شخصيتها من خلال علاقتها بأعمامها وأخوالها الذين كانوا من نشطاء الانتفاضة الأولى:

"يعني خوالي وعمامي أكبر مني، وهم شباب وصبايا، يعني كانت شخصيتي تختلف تماما عنهم [عن أخوتها] ... يعني من أنا طفلة حاسة حالي كبيرة، يعني أو هيك أنحط (أوضع) في مسؤوليات. كمان كانت تجربتنا في الانتفاضة الأولى مختلفة. الواحد بحتاج إنه تكون شخصيته قوية وبدو يتعامل مع كثير ناس وممكن يفوت عليه مطاردين ومش عارفة إيش (وغير ذلك)".

تعتبر– وقد كانت في فترة الانتفاضة الأولى طفلة لا تتجاوز الثانية عشرة – أنها كانت في الانتفاضة الأولى "نشيطة مع الشباب والمطاردين .... عند دار سيدي (جدي) كان في أربعة مطاردين ... ومنطقتها شوي جبلية ... أنا كنت أراقب لهم [للتجمع في دار جدها] وأروح أشتري لهم الدخان وحاجات ...".

نشاط هند مع المطاردين لم يقتصر على علاقاتها العائلية، ولكن علاقاتها العائلية ساعدتها على توسيع علاقاتها السياسية خارج العائلة: "من خلال خوالي كان في شباب كثير في البلد بعرفهم، وكان إلي علاقات كثير منيحة (جيدة) مع إني كنت كثير صغيرة، بس لما كنت أمر في الشارع وأشوفهم أوقف أحكي معهم وأطمن عليهم".

وترى هند أنها تختلف عن بقية أخوتها وأخواتها من حيث أنها انتقلت بعد الصف

التاسع للدراسة في المدينة بدلاً من إكمال دراستها الثانوية في القرية. وهي تقول إن هذا أيضاً ساعدها على الشعور بالاستقلالية، حيث تعودت على الحركة والتنقل: "حلو أنه تروحي على [تذهبي إلى] مدرسة ومواصلات وتروحي لحالك، وهيك أول يوم بس (فقط) كان بالنسبة إلي صعب، صاحبات مش موجودات، وبدي أتعرف على ناس جداد (جدد)، ومدرساتنا مش موجودات، بس أول يومين استصعبت من الموضوع، عبين [إلى حين] ما تعرفت على صاحبات وناس بعدين [بعد ذلك] سلكت الأمور وكثير كانت حلوة".

الجامعة تعزّز الاستقلالية

كانت فداء في السابعة عشرة من العمر عندما قررت الذهاب للدراسة في جامعة بغداد. وهي تقول إنها كانت متفوقة في المدرسة، وتوقعت أسرتها أنها ستتخصص في الطب أو الهندسة، وكان بالفعل أن تخصصت في الهندسة. قرار فداء بالدراسة في العراق لم يكن قراراً مستقلاً تماماً، بل كانت هناك عوامل أخرى أثرت في قرار سفرها. فكون فداء الأكبر بين أخوتها كان عاملا في قرار أهلها بالسماح لها بالسفر للدراسة في بغداد، كما أن وجود عمها في بغداد وكون التعليم مجانياً في العراق كانا اعتبارين أساسيين في موافقة أهلها على سفرها. تقول فداء:

"حسيت [عندما قررت أن أسافر] ساعتها بالاستقلالية عن أهلي، بس مش استقلالية تامة طبعاً. لأنه لو دار عمي مش هناك كان أهلي ما رضيوا يطلعوني. يعني في وضع زي هاد (مثل هذا) بقدرش (لا أستطيع) أقنعهم إني أطلع زيارة على بلد مع صاحباتي ...".

وبينما استغلت هند الفرص لتوسيع نطاق علاقاتها ونشاطاتها ولتحقق لنفسها الاستقلالية، بدت فداء أقل اهتماماً بذلك. تقول فداء إنها لم تشعر تماماً بحياة الجامعة، فقد انصب اهتمامها على إنهاء الدراسة والعودة إلى أسرتها: "ما بحس أنه كان إلها [الجامعة] دور... أنا طلعت من سن صغير وحسيت أني حاملة مسؤولية كبيرة، فكان بس بدي (فقط أريد) أن أخلص (أنهي) دراسة وأرجع عند أهلي. في الجامعة ما حسيت (لم أشعر) أنه عشت مية بالمية حياة جامعة، علاقات وهيك".

ربما لم يشكل انتقالها للسكن من بيت أسرتها إلى أسرة عمها، بالنسبة لها، انتقالاً خارج مجال العائلة، فهي تقول إن سفرها في الفترة التي تلت الحرب ضد العراق في بداية التسعينيات، وما أصاب من جرائها المجتمع العراقي، بالإضافة إلى كونها كانت لا تزال صغيرة السن، جعل عمها يفرض عليها نظاماً معيناً من الحماية:

"كانوا يخافوا أنه إني أمانة بين أيديهم، بعدين (كما) كان الوضع هناك سيئ سياسياً،

وكان في مشاكل للبنات أن يطلعوا (يخرجوا) لحالهم (وحدهن). فكان عمي قد ما يخاف علي يا أما (إما أن) يطلع يستنى (ينتظر) الباص معاي الصبح، يا أما يبعت (يرسل) حدا من الشباب يوصلني".

تقول فداء إن حركتها في العراق بقيت مقتصرة على الجامعة والبيت، وإن نشاطاتها لم تكن كثيرة، حيث لم تتعد بعض الرحلات مضمونة المواصلات: "يعني لو بدنا نطلع رحلة بده ييجي (يأتي) الباص ياخدني من باب البيت أو الجامعة، ويرجعني على الجامعة. إذا رجعت بوقت متأخر لازم أحكي معهم [بيت عمها] تلفون وييجي حدا ياخدني".

بقيت علاقات فداء الجامعية مقيدة بالوضع السياسي الذي عكس نفسه على جوانب الحياة الاجتماعية في العراق. تقول فداء إنها واجهت صعوبة في البداية في التأقلم مع الناس في العراق على الرغم من تأكيدها أن معظمهم كان يرحب بكونها فلسطينية، ولكنها مع ذلك لم تتمكن من الاندماج: "يعني ما قدرت كثير أتخالط معهم بس (لكن) شفت نوعين من البشر عندهم، ناس كثير محافظين كثير كثير، وناس مش سائلين يعني بتلاقي ولادهم وبناتهم عندهم سيارات وطلعات وطشات وما بسألوش، وناس محافظين كثير".

تمكنت فداء من أن تبني علاقات مع الطلبة العرب من خارج العراق، حيث تعرفت على طلاب وطالبات من سوريا ولبنان وفلسطين والجزائر. وكانت علاقتها مع الطلبة الفلسطينيين هي الأقوى: "بجوز لأنه كان في شعور مشترك. بعدين شي ثاني أنه الطلاب الفلسطينيين وأنا بسنة أولى هم أجوا تعرفوا علي، أنه إذا احتجت شي إحنا موجودين وإحنا بنعرف إنك في غربة، فكانوا هيك متكاتفين في المشاكل وفي الأزمات".

ومع تقسيمها للمجتمع العراقي إلى فئة محافظة وفئة من "المش سائلين"، تمكنت فداء أن تجد لنفسها مكاناً وسطياً بين هاتين الفئتين مع وجود الدعم الفلسطيني في الجامعة. فهي تقول إنها وجدت لنفسها صديقات على الرغم من أن علاقتها معهن بقيت مقتصرة مكانياً على الجامعة بسبب الرقابة التي كان يفرضها عمها، حيث أنها لم تكن تخرج للقاء صديقاتها خارج الجامعة: "يعني عمي ما كان يسمح لي إني أطلع مع صاحباتي ... لأنه كانت تصير عمليات خطف في التكسيات ..". هذا لا يعني أن فداء عاشت حياة محافظة وتحت القيود في العراق، بل استطاعت أن تطور شخصية خاصة بها، وأن يكون لها "شلتها" من الفلسطينيين واللبنانيين.

بالنسبة لهند، فمع أن الجامعة لم تكن تجربتها الأولى في الخروج من حدود القرية ومن نطاق علاقات الأسرة والعائلة، كما تقول، فإن العلاقات الاجتماعية وتطوير شخصيتها واستقلاليتها كانت من الأولويات التي سعت نحو تحقيقها في الجامعة:

"أنا شخصيتي قوية من البداية، وإلي علاقات من قبل الجامعة، وما عندي حواجز بين شب أو أنثى، بس الجامعة صقلت الشخصية بطريقة مختلفة، صفى أنه الواحد بعرف

شو بده (ماذا يريد) من الحياة وكيف ياخذ المواضيع، وكيف مثلاً إذا بده يواجه مشكلة كيف بده يحلها، ومثلاً إذا بده (يرغب) يتعرف على ناس شو نوعية الناس اللي بده يتعرف عليهم، فصفت إنه بتفتحك على أمور أكثر، وخصوصا أنه العلاقات اللي في الجامعة في فترتها كانت [مع أشخاص] أكبر مني، يعني مش من دفعتي، ما في دفعتي إلا شب واحد كانت علاقتي معاه منيحة يعني من الأصدقاء المقربين ... يعني ما أحس حالي سنة أولى أحس حالي أكبر ... فهاي (هذا) بتعطيكي بالحياة العملية مجال أوسع إنك تتصرفي أحسن وتتعرفي على الحياة بسرعة أحسن".

الجامعة لم تكن وحدها مجال الشعور بالاستقلال والمسؤولية ومجال توسيع العلاقات بالنسبة لهند، فالدورة التي أخذتها مع إحدى المؤسسات الزراعية بعد تخرجها من الجامعة مباشرة شكلت مجالاً آخر لهند لتعبر فيه عن استقلاليتها وقدرتها على تحمل مسؤولية نفسها. استمرت الدورة التدريبية التي عقدتها المؤسسة الزراعية لخريجي كلية الزراعة مدة تسعة أشهر، وتضمنت المبيت طوال مدة التدريب في مبنى تابع للمؤسسة. عن تجربتها هذه تقول هند:

"فترة العيشة في هذا المعهد كانت كثير مميزة ... وكانت أول مرة ببات (أنام) مش عند أهلي أو عند قرايب إلنا ... بس كانت فيها نوع من المسؤولية، وأنه كيف الواحد يحافظ على شخصيته قوية، ويعتمد على ذاته. يعني أمك وأبوكي مش عندك، وحتى لو بدك تشوفيهم خميس على جمعة أو بدك تحكي معهم تلفون مش زي (ليس مثل) لما تكوني إنتي عندهم كل يوم. فكل أمورك بدك تديريها بنفسك وكل مشاكلك بدك تحليها بنفسك، فكان فيها نوع من المسؤولية الأكبر. يعني كيف بدك تحافظي على ذاتك وعلى شخصيتك بين مجموعة مختلطة من كل أنحاء الضفة، من الخليل، ورام الله، وطولكرم، وجنين، ونابلس، وسلفيت، وأريحا، فكانت كلها نوعيات وبيئات مختلفة".

تقول هند إن المشاركين في الدورة كان عليهم أن يتأقلموا مع اختلاف البيئة التي جاءوا منها: "في شي من قضاء نابلس، وفي شي من قضاء جنين، بس بالنهاية يعني أنه قدرنا إنه إحنا نكون زي أسرة واحدة. صارت علاقتنا كثير منيحة ناكل مع بعض، ندرس مع بعض". كما تمكنوا خلال تلك الفترة أن يتجاوزوا اختلافاتهم الفكرية والسياسية: "اتفقنا إنه السياسة بتخرج من المعهد يعني من أول يوم ما كان في إلنا دور في السياسة بالمرة، ممكن نسهر ونناقش الوضع آه، بس ما في أي تحيزات لأحزاب سياسية ثانية، يعني ألغيناها كلياً حتى في فترة من الفترات نسيناً الوضع السياسي".

اعتماد المشاركين على أنفسهم في إدارة حياتهم خلال الدورة كانت الميزة الأساسية التي تراها هند في تلك التجربة:

"إدارة المعهد كانت إحنا اللي نديرها ... القوانين إحنا اللي حطيناها ... لا هم

فرضوها علينا ولا شي. مثلاً الكمبيوتر أو المكتبة كل واحد من الشباب والصبايا مسؤول عن شغلة ... صفت إدارة المعهد منا وفينا ... فصفى كل واحد بخبرته وأفكاره جمعناها وحطيناها في إدارته [المعهد]. حتى جداول المدربين وجداول الجامعة إحنا اللي كنا نحطها".

هذه التجربة –بالنسبة لهند– لم تؤدِّ فقط إلى المزيد من الشعور بالاستقلالية والاعتماد على النفس، بل كان لها أيضاً أثر كبير في علاقاتها الاجتماعية التي استمرت حتى اللحظة: "طلعت في علاقات صداقة يمكن مش مع الكل ... طلعنا بمجموعة إلنا علاقات منيحة ... يعني أصدقاء كثير حتى صفينا أنه بنتابع أخبار بعض أول بأول ... وبنحكي مع بعض سواء شباب أو صبايا ولهلأ (وحتى الآن) تقريباً محافظة على مكانتها عنا".

مقاطعة السياسة

بالنسبة لفداء، فإن السياسة: الحديث أو المشاركة فيها، كان شيئاً قررت أن تبقى بعيدة عنه –على الرغم من علاقتها القوية باتحاد الطلبة الفلسطينيين في جامعة بغداد– وكما تقول هي، فإن ذلك يعود بشكل أساسي إلى ردة فعلها على نشاط والدها السياسي والعسكري: "أنا لحد هلأ (الآن) بهتمش (لا أهتم) بالسياسة، بحكوا مصطلحات قدامي ما بفهمها، بجوز عشان أبوي شوي، كيف بدي أقولك؟ عشان هو سلك هذا المشوار كثير إحنا تمشكلنا في حياتنا، يعني صار عنا ردة فعل".

تشعر فداء بخيبة أمل لما آل إليه الوضع السياسي في فلسطين بعد أوسلو، فهي تقول: "تشوهت صورة النضال القديم. الناس مثلاً اللي هون ما بحترموا مناضل قديم ... إنه تنقال له عائد زيه زي أي واحد ثاني رجع من برة. طيب كيف هذا قدم حياته في يوم من الأيام يعني أبوي مات وقام".

ترى فداء أن كلمة "عائد" تتضمن معاني سلبية، وتقوم على نوع من التمييز بين الفلسطينيين تصل بالنسبة لها إلى حد العنصرية:

"... لأنه بجوز إحنا عانينا من العنصرية، صرنا إحنا عنصريين في هذا المجال. صرنا ننقي أي فرق بينا وبين البني آدم عشان نحسسه بالعنصرية ... يعني بنقول مدني وفلاحي، ودار فلان ودار علتان ... بعرفش بجوز بالنهاية عشان كلنا كنا بالغربة، ما كنا نقول أنا من القدس، وأنا من نابلس، وأنا من أبصر وين. ولما رجعنا هون صرنا غير. بس كثير سيئ الوضع هون من ناحية تفرقة، يعني بتعرفي حتى بالبلد نفسها إحنا كلنا عائلة واحدة، إحنا كلنا ٣٥٠ واحد بيجي بقولك انتوا من دار فلان، طيب ما إحنا كلنا أكم واحد، أنت من

دار فلان، وأنت من دار علان، وهيك".

ومع ذلك، فإن فداء لا ترى أن ذلك أثر على علاقتها مع الناس في البلد، فلديها أصدقاء وصديقات من القرى والمدن ومن العائدين وغير العائدين. كما أنه لم يؤثر على مدى اندماجها في المجتمع. فهي تقول: "بعرفش (لا أعرف) يعني أنا كبرت ووعيت برة، ومن حد ما (منذ أن) تخرجت من الجامعة وأنا برة. حالياً بعتبر حالي من أهل البلد وأكثر. يعني صرت حتى عرفتها بكل تفاصيلها".

هند أيضا، على الرغم من نشاطها السياسي في طفولتها وعلاقتها مع المطاردين، لم تهتم بالسياسة في الجامعة. تقول أنها في الفترة التي كانت تساعد فيها الشباب في الانتفاضة الأولى ذهبت لحضور اجتماعين لمراكز نسائية مشكلة لتنظيمات فلسطينية، ولكنها لم تستمر في حضور هذه الاجتماعات. وتقول أنه بمجرد أن أصبحت طالبة في الجامعة في أواخر التسعينيات لم تجد لها مكاناً في النشاط السياسي: "أنا كنت منتمية لفتح، بس اكتشفت إنه في مشاكل كبيرة، وفش حتى توافق داخل التنظيم نفسه، فانسحبت فترتها وصفيت أنه في عندي اهتمامات ثانية".

البحث عن عمل

بعد تخرجها مباشرة كان على فداء أن تجد عملاً في الضفة الغربية لتساعد والدها في تأسيس بيت للأسرة في رام الله. تقول:

"بجوز أول الشغل تقدري تقولي إنه بلشت (بدأت) نقطة التحول في حياتي، صار في حياة ثانية، صرت أحس بالمسؤولية أكثر بكثير حتى اتجاه أهلي نفسهم. لما جينا هون [إلى الضفة] أنا أول ما اشتغلت. اشتغلت هون [هنا في الضفة الغربية] وكنا في مرحلة إنه بدنا نأسس بيت هون، وعشان أهلي لازم ييجوا من الأردن. كنت بس أنا وأبوي هون فحاسة إنه كنت أشاركه المسؤولية النص بالنص".

استمرت فداء في المكتب الهندسي الذي بدأت حياتها المهنية فيه لمدة عامين. ولكنها بعد فترة قصيرة من العمل بدأت تشعر أنها تملك الخبرات والمهارات كمهندسة ناجحة، وأن المسؤوليات التي كانت تلقى على عاتقها في المكتب جعلتها تشعر بأنها تستحق مرتبة وراتباً أعلى: "كان في رئيس اختصاص فحسيت حالي إنه أنا بقدر أشتغل شغله، فصرت مش قادرة إنه آخذ مكانه، ومش راح آخذ مكانه لأن كان إله فترة بالمكتب. فقررت إنه أستقيل وأدوّر على مكتب ثاني، وبدي أحس بقيمتي أكثر مش إنه تحت إيده يعني يشغلني زي ما بده".

فداء لا تتحدث عن عدم اعتراف المكتب بها كمهندسة تتمتع بكفاءة ومهارات، بل تتحدث عن استغلالها كخريجة جديدة، يمكن إلقاء عبء كبير من العمل عليها دون أن يصاحب ذلك زيادة في الراتب أو ترفيع في المرتبة الوظيفية. تقول: "يعني بتذكر أول أسبوع داومت فيه كانوا ييجوا يزتوا لي (يرموا] الخرايط، وأنا أرتعب من منظر الخارطة لأنه ما عمري مسكت مشروع، حتى تدريب ما تدربت ... هذا المكتب بحب الخريجين الجداد لأنه بحرث عليهم وما بحكوا ... حتى في السنتين يعني حتى كنت أحياناً أشتغل أوفر تايم (وقت إضافي) وما آخد عليه لأنه بدي أخلص الشغل اللي بإيدي، لازم أخلصه، فإذا أنا كنت بطيئة يعني هاي مش مشكلته، هو مثلاً عنده "داد لاين" [موعد تسليم] ولازم أسلم المشروع، فكنت أتأخر أحياناً بالشغل وما ينحسب إلي (يحسب لي في الراتب)، وأتعب كثير".

شعور فداء بالاستغلال وأنها تستحق أكثر مما تحصل عليه دفعها إلى الاستقالة، بعد أن حاولت أساليب أخرى لتحسين وضعها في العمل. الأسلوب الأساسي الذي استعملته فداء لتحسين ظروفها هو التغيّب عن العمل لفترات طويلة، ولكن ذلك لم يغير كثيراً في وضعها، ما اضطرها إلى الاستقالة: "في مكتبي الأول أول ما أهلي أجوا هون، وحتى قبل ما أجوا هون، نزلت أنا على الأردن وبعديها قعدت فترة بجوز ٧، ٨ شهور. ولما رجعت قال صاحب المكتب تعالي [فداء] في عنا مشروع كذا وساعدينا فيه، أنا ما بدي أرجع على المكتب، كنت بدي ألاقي مكان ثاني فترتها، فاشتغلت شهر بعديها استقلت".

بعد شهرين دون عمل وجدت فداء عملاً في مكتب هندسي آخر: "بس وصلت لمرحلة حسيت حالي إني "بروفاشنل" [مهنية] في شغلي، وحسيت إنه لازم أترك. يعني مش هون مكاني، فرحت على مكتب هندسي ثاني وكنت أنا المسؤولة فيه عن كل التصميم. فحسيت بقيمتي أكثر واشتغلت معاهم لحد أول الانتفاضة". ولكن المكتب الجديد لم يكن أفضل بكثير من السابق، كما أن بداية الانتفاضة جعلت الوضع بالنسبة لها أسوأ مما كان عليه في المكتب السابق: "أول الانتفاضة، خصموا ربع الراتب ... على أساس إنه كانت التسكيرات (الإغلاقات) تصير فخصموا علينا نص رواتبنا، وبعديها يعني بعد فترة سنتين أنا صرت حاسة إني بعطي أكثر مما باخد بكثير، وإنه ما فش مقارنة بنحكي عن ناحية مادية، إنه إنت صرتي مهندسة وعندك خبرة حرام تضللي بالراتب نفسه اللي بديتي فيه، أو أكثر منه شوي".

تؤكد فداء أن الراتب الذي تتقاضاه كان سبباً أساسياً من شعورها بعدم الرضا في العمل: "هي الناحية المادية بجوز تحسسك بجزء من قيمتك في المكان. هم ما كانتش فارقة عليهم ... هم بدهم يضلوا (يستمروا) يحرثوا على الواحد وياخد أقل راتب. بقارن حالي في الناس اللي بسني في أماكن ثانية، فحسيت بالنقص فاضطريت أترك الشغل".

بعد ذلك وجدت فداء عملاً في مؤسسة التنمية الأمريكية، حيث عملت هناك لمدة عام ونصف في أحد المشاريع المؤقتة، عن عملها هذا تقول فداء: "..."الـــبوزشن" [المنصب الوظيفي] تبعي كان كثير كبير حتى أنا كنت مرعوبة لما قبلوني بعد المقابلة كان "سايت أوفس دايركتر" [مديرة مكتب الموقع] فكنت مسؤولة عن ١٣٠ عامل، يعني أنا حتى "الليدرشب" (القيادة) بحالي ما عمري قستها. يعني أنا بنفع أكون "ليدر" [قائدة] وإلا ما بنفع؟ ما عمري فكرت هيك، فقبلت بالوظيفة على أساس إنه راتب منيح وموقع منيح، وراح يكون منيح إلي في السيرة الذاتية. يعني بدال ما كل خبرتي في مكاتب هندسية ... اشتغلت معهم سنة ونص وكانت تجربة منيحة". لكن هذه الوظيفة التي حققت تطلعات فداء من ناحية المنصب والراتب كانت مؤقتة، واضطرت إلى تركها: "تركت لأنه البرنامج خلص يعني كان البرنامج تشغيل أيدي عاملة لعشرين شهر، وأنا اشتغلت منهم ١٦ شهر".

هند مثلها مثل فداء، بقيت منذ تخرجها إلى الآن تنتقل من عمل إلى آخر، ومن مشروع مؤقت إلى مشروع مؤقت آخر. تقول هند عن بدء حياتها المهنية:

"بعد ما خلصنا ... كنا تقريبا كل "جروب" [مجموعة] أو كيف إنه [المؤسسة] كانت عاملة زي أنه في عندهم مهندسين حديثي التخرج وفي عندهم "سكيل" [مقياس] كذا وكذا وعرضته على بعض المؤسسات، فكانت وزارة التخطيط مع برنامج الأمم المتحدة للتنمية بدهم باحثين عندهم خبرة في أسلوب البحث السريع، وهيك فإحنا كنا صرنا مشتغلين على هذا الموضوع كثير وعاملين عدة أبحاث، قابلوا المجموعة كلها وأخذوا ١٢ من الـــ٢٩. ١٢ في كل الضفة كانوا أربع صبايا و٨ شباب، فاشتغلنا على الموضوع ... كانت فترة البحث لمدة ٣ شهور. فترتها أنا كنت في طولكرم وقلقيلية، واشتغلت ثلث شهور والرابع، وبعدين تمدد لكمان شهرين يعني تقريباً ست شهور".

بعد انتهاء الشهور الستة لم تجد هند عملاً لستة أشهر أخرى. تقول هند إنها في أول شهرين بعد انتهاء عملها لم تبحث عن عمل لأنها أرادت أن تعتني بوالدها وأخوتها بعد سفر والدتها. بعد ذلك جاء الاجتياح الإسرائيلي للضفة الغربية، إلا أن هند عملت خلال تلك الفترة في أبحاث متقطعة، وحاولت الاشتراك في إحدى الدورات في رام الله عندما حدث الاجتياح في ربيع ٢٠٠٢، ولكنها لم تتمكن من الاستمرار. عن فترة الاجتياح تقول هند:

"أنا لسه ما كنت ساكنة في رام الله. كنت فترتها جاي آخذ دورة تدريبية فانحبست الـــ٣٥ يوم هون في رام الله. فكنا أنا ومنى وكمان صاحبة معنا وفترتها عشنا عند جارتنا لأنها كانت لحالها. فكنا خلال فترة منع التجول يا بنزور الجرحى، يا بنروح مع الإغاثة بنتطوع نوزع التموين ...".

في الفترة ما بعد الاجتياح بقيت هند في رام الله وعملت لفترة قصيرة في مشروع بحث مؤقت مع إحدى المؤسسات التي تقوم بمشاريع إقراض. بعدها حصلت هند على

عمل كمنسقة في مشروع عن الفقر تابع لإحدى المؤسسات التنموية العالمية، في جنين. واستمرت في هذا العمل لمدة سنتين وعدة أشهر. وترى هند أنه على الرغم من أن العمل نفسه كان جيداً وممتعاً إلى حد ما، فإنها لم تتمكن من أن تبني علاقات مع زملائها في العمل، حيث لم يكن هناك تفهم في المؤسسة التي عملت فيها لقدومها للعمل في جنين: "بنظروا إلها أنه بنت مش من جنين، ومش من المحافظة بالمرة، ومش متزوجة وتقولي عايشة مع زوجها". وتضيف: "يعني أنا كنت آخذها بالنسبة إلهم وضع طبيعي. يعني عادي شي طبيعي إنك تلاقي هاي النوعية من الناس".

تقول هند إنها عندما استلمت وظيفتها كمنسقة لمنطقة الشمال، تولى شاب وظيفة منسق لمنطقة جنوب الضفة الغربية. وعندما انتهى عقد كل منهما قررت إدارة المشروع أن تجدد العقد للشاب، بحيث يصبح منسقاً للمنطقتين، وتم، بالتالي، الاستغناء عن هند. بعد انتهاء عقدها وجدت هند عملاً مع مؤسسة دولية أخرى، وطلبت أن يكون عملها في رام الله بدلاً من جنين. تقول: "بس كنوع من التغيير، لأنه أنا خلص زهقت (مللت) جنين وزهقت العيشة. يعني خلص ثلث سنين بكفي فيها، فإجيت هون على رام الله، واشتغلت ست شهور هون في رام الله". العمل استمر لمدة ستة شهور فقط.

وكان هذا آخر عمل لهند عندما تمت المقابلة (انتهى عقدها في شهر تشرين الثاني ٢٠٠٤)، ولم تكن قد وجدت غيره. تقول هند إنها بدأت تشعر بالإحباط بسبب عدم تمكنها من إيجاد عمل، فهي، كما تقول، لم تتعود على أن تبقى كل هذه الفترة دون عمل، حيث أنها وجدت في فترة الاجتياح ما يشغل وقتها إلى أن وجدت عملاً. الآن تشعر بثقل الفراغ وقلة العمل، على الرغم من أنها تعمل على إنهاء رسالة الماجستير، ولكنها تقول الرسالة لا تشغل كل وقتها:

"إنه كيف تعودنا إنه ما نقعد، فإنه أنا من النوع "الأكتيف" [النشط] فما بتخيل أنه نقعد، مع إنه مشغولة على الدراسة والرسالة ... بس إنه بضل (أبقى) إنه بحس مش عم بعمل شي.... لأنه أنا من النوع اللي صار لي أربع سنين ما قعدت والضفة كلها لافقتها ...".

ملء الوقت ليست المشكلة الوحيدة التي تواجهها هند بسبب البطالة، فهي –كما هو حال فداء– تعودت أن تساهم في مصروف أسرتها، حيث كانت تساعد في مصاريف دراسة أخوتها، لكن والدها هو الذي يتكفل الآن في هذه المصاريف، أما هي فعليها أن تغطي مصاريفها الخاصة ومصاريف الدراسة. تقول إنها كانت توفر من معاشها تحسباً لعدم تمكنها من إيجاد عمل بعد انتهاء عقدها، لكن الفترة هذه المرة طالت أكثر مما توقعت: "يعني أنا ما كنت متخيلة إنه هيك راح تصير الأمور. ما كنت عاملة حسابي لهاي الدرجة ... فهلأ (الآن) إنه حتى توفيرات ما عندي بسلك حالي فيهم". وتضيف: "هذه هي مشكلة المشاريع ما بتوفي". أسرتها تسأل إذا كانت بحاجة للمال، إلا أنها في معظم الحالات

تفضل أن لا تطلب منهم حتى لا تزيد العبء عليهم، وبخاصة أنها تعودت أن تساهم في مصروف الأسرة لا أن تكون عبئاً عليها.

الحال نفسه يسري على فداء التي تعودت مبكراً أن تكون المساعد الرئيس لوالدها في تأمين مصروف البيت واحتياجات الأسرة. تقول: "شوفي كعائلة كبيرة معاش أبوي يا دوب يكفي أكل وشرب، ودخان، ومواصلات وهيك. يعني إذا بدنا نشتغل إشي بالبيت كان اللي بده يفكر أنا، واللي يمول أنا". ومن هنا تقول فداء أنه في الشهور المتقطعة التي لم تكن تعمل خلالها، كانت تتأزم لعدم قدرتها على المساهمة في مصروف الأسرة. ولذا، لم يكن تركيزها على الجانب المالي -أثناء عملها في المكتب الهندسي- نابعاً فقط من شعورها بأنها تستحق أكثر مما كانت تتقاضاه، بل كان نابعاً أيضاً من كون التزاماتها المالية تجاه العائلة أكبر من دخلها: "وحتى يعني الإشي اللي خلاني أحس إنه راتبي قليل في المكتب الهندسي إنه مش قادرة أساعد أهلي في مرحلة من المراحل".

مسؤولية فداء لا تقتصر على أسرتها فحسب، بل أيضاً على العائلة بشكل عام، إذا ما تعرض أحد أفرادها لضائقة مالية. وكمثال على ذلك تقول:

"مرة من المرات اضطرينا انساعد دار عمي. كانوا في بغداد وضعهم المادي كثير سيئ في الفترة الأخيرة قبل ما ييجوا على الأردن. كثير كثير ساء الوضع عندهم وفلس عمي يعني من كله، وباع المحل تبعه. وفترتها أجا واحد من بيت ريما أبوي بعرفه وكان مودي (مرسل) ابنه يدرس بالعراق في فترتها بالصدفة متعرف على عمي. فالولد قاعد عندهم شي أسبوع، عشر أيام فكان حاكي لأبوه أنه أوضاعهم المادية كثير سيئة. يعني حتى أولاده بالجامعة مش قادر يصرف عليهم مصاريف طريق...، فلما أجانا هذا الخبر كثير انزعجنا كيف إنه يكون عمي هيك وضعه، خاصة أنا لأنه درست هناك فاضطرينا إنه نلم كل اللي معانا".

وعند سؤالهن عن مدى أهمية أن يكون لديهن عمل، وموقف أهاليهن في حالة خسرن وظائفهن، تقول كل من هند وفداء أن أهاليهن لا يجبرونهن على العمل، ولا يجبرونهن على المساهمة في مصاريف العائلة، إلا أنه سيكون من الصعب عليهن أن يطلبن مساعدات مالية من أهاليهن بعد أن كن هن يساعدن في مصروفات الأسرة.

إعلانات ومعارف

تقول هند إنها عملت منذ البداية في مجال التنمية، ولم تعمل في مجال الزراعة، والآن تبحث عن عمل في أي من المجالين، وهي في بحثها عن العمل تعتمد على إعلانات

التوظيف الموجودة في الصحف وعلى معارفها وأصدقائها. وتعتقد أنه بالنسبة لإعلانات الصحف أن المؤسسات كثيراً ما تكون قد حددت مسبقاً الشخص الذي تريد توظيفه قبل أن تقابل المتقدمين للوظيفة التي تعلن عنها، أي أن الإعلان هو في معظم الأحيان ليس إلا إجراء شكلياً. أما الأسلوب الآخر في البحث عن وظيفة، فيتمثل في أن تجد هند من يتوسط لها للتوظيف في إحدى المؤسسات، ولكنها تقول إنها لا تقبل لنفسها بذلك، وأنها تستخدم معارفها ليخبروها عن وظائف وليس لكي يتوسطوا لها: "يعني ممكن أعرف عن شغل بواسطة معارف أو أصدقاء وأقدم له وأحصل عليه، إذا كانت كفاءتي بالنسبة إلهم منيحة، بس أنه أروح أتواسط لحدا عشان أشتغل في أي مشروع، أفضل أنه أضل قاعدة يعني هاي الفكرة مرفوضة".

فداء تعتمد أيضاً على معارفها في البحث عن وظيفة، وهي، كما هو حال هند، تفضل أن يتم قبولها في الوظيفة على أساس كفاءتها لا على أساس من يتوسط لها. وتعطي فداء مثالاً على ذلك عندما حصلت على وظيفتها التي تعمل بها حاليا:

"كان في مقدمين ثانيين. بس يعني هو، كيف بدي أقولك، نوع من الواسطة ... لحد إمبارح بتحكي لي سكرتيرة المدير العام بتقولي لما أنت قابلتي كانوا مصنفينك أحسن واحدة فيهم، يعني هاي الكلمة ريحتني. لأنه بتحسي حالك إنه إنت مش "كواليفايد" [مؤهلة] للمكان اللي إنت فيه إذا رحتي بالواسطة".

وعن الكيفية التي حصلت فيها على الوظيفة تقول:

"شاب صديق من لما أجيت من العراق بعرفش عنه إشي. بالصدفة عرفت إنه هو هون وفي بيت لحم عن طريق شاب كان يشتغل معي [في المؤسسة الأمريكية] صحبة هو وإياه (أصدقاء) ... إلتموا على بعض فبحكي [صديقها من العراق] له إنه في مهندسة زميلة بتدور على شغل، قاله شو اسمها، قاله فداء فهداك عرفني دغري (فوراً)، قال له طيب ما أنا بشتغل مع جماعة، نشتغل مع الاتحاد الأوروبي نفسه وإذا بدها في وظيفة ... وعرفت عن طريقه وقدمت إلها ... هو ما تدخل، هو بس دلني على الوظيفة. هلأ اللي تدخل أكثر بعتبره اللي من وزارة الحكم المحلي؛ كنت مقدمة للوزارة نفسها ففي شخص هناك بنعرفه ومعرفة منيحة، هو اطلع على وراقي، وشهاداتي وشهادات الخبرة، وكان حابب يلاقي لي شغل وكان بعرف أختي، اشتغلت معهم فترة".

هند في بحثها الحالي عن عمل تبحث عن وظيفة تكون لفترة أطول من ستة أشهر، ولكنها مع ذلك تفضل عملاً مؤقتا على وظيفة في إحدى وزارات السلطة، لأنه بناء على الفكرة التي أخذنها من صديقاتهن اللاتي يعملن في وزارات السلطة، فإن الراتب قليل، والعمل نفسه قليل، وهذا بالنسبة لهند يجعل العمل مملاً، وأهم من ذلك أنه لا يمكن أن يتطور الموظف أو يكتسب أي خبرة عملية. ولذا، تفضل كل من هند وفداء العمل في

مشاريع مؤقتة يحصلن منها على خبرات مختلفة أفضل من عمل ثابت ومضمون في السلطة. وترى هند أنها ما زالت شابة وأن تكون أولوياتها في البحث عن العمل الخبرة والتعلم وليس الراتب الثابت. وتقول فداء أنها فضلت العمل في مكتب هندسي في بداية تخرجها بمعاش أقل من معاش السلطة على العمل في مؤسسات السلطة.

وترى فداء أنها وزميلاتها كيَّفن أنفسهن على العمل غير المستقر. فهي تقول: "نحن بنشتغل وبنحسب نقعد ست أشهر ندور على شغل". وعلى الرغم من الاضطرار إلى التنقل من عمل إلى آخر، فإن هند ترى في هذا جانباً إيجابياً؛ لأنها تمكنت من تكوين علاقات عديدة، تشكل مصدراً من مصادر البحث عن وظيفة.

تصورات للمستقبل القريب

لا تبدو فداء وهند قلقتان حول تشكيل أسرة لكل منهما. ولدى كل منهما تصورها للشخص الذي سيشاركها حياتها ولطبيعة العلاقة التي يجب أن تكون معه. وتعتمد كل منهما على العمل والدراسة لتأمين مستقبلها، بحيث لا يكون الزواج -وجود الرجل- هو التأمين الاجتماعي للمستقبل. تقول فداء "بجوز صعب تفكري كثير لقدام صح، يعني بتعرفيش شو راح يصير، وبجوز يجيني واحد إنه يقلب لي كل مخططاتي، بس (لكن) يعني حالياً كثير بهتم بشغلي وبهتم من ناحية مادية إنه أأسس لحالي إشي في المستقبل [في حالة ما توفقت بحياتي الاجتماعية حتى يكون عندي [احتياط]".

هند لا تنتظر من يقلب لها حياتها، بالنسبة لها هي لا تريد شريكاً يهد لها حياتها مقابل العاطفة، بل تريد من يستوعب حياتها التي رسمتها لنفسها:

"مزبوط (صحيح) هلأ خلص صفى إنه بعيد عن الحب. خلص صفت إنه التفكير بالحب يعني جزء من سادس الأولويات. بس إنه تاخدي (تتزوجي) واحد تعرفيه بالنسبة إلي ضروري كثير يعني إنك تاخدي واحد يعرفك أو تعرفيه أحسن مما إنك تاخدي واحد دلوكي عليه ناس أو تعرفتي عليه من خلال [حدا] ولفترة قصيرة، وصفى إنه بصير عليه ارتباط ... لأنه يمكن شخصيتي بستوعبش (لا تستوعب) إنه حدا يهدها مرة واحدة. يعني لازم يكون على الأقل يستوعب جزء مش كل شخصيتي. أكيد شخصية وحدة عزابية تختلف عن شخصية وحدة مرتبطة، بس إنه ما يهد كل شخصيتي مرة واحدة إنه في أمور عندي لازم يتقبلها".

الطموح والقدرة على التأقلم مع ظروف الحياة هو شرط هند الأساسي في الشاب الذي ترغب في الزواج منه. وهو شرط تعلمته من تجربتها في العمل المتقطع وغير المضمون:

"إذا ما كان عندهم طموح خلص ممكن يضلوا واقفين عند نقطة معينة. في زملاء درسنا مع بعض في البكالوريوس أو الماجستير، صح إنهم تعلموا، طموحهم خلص موقف لحد معين مثلاً بالوظيفة. التطور مش شرط حتى إنه تطوره الأكاديمي أو تطوره المهني وقديش بقدر يطور عقله وقديش بحاول إنه شو المستقبل بعني له، في شباب لأ خلص الإشي اللي بعنيهم إنه إلهم (لهم) راتب آخر الشهر وخلص، هذا هو ... وبعدها لايمتى (إلى متى) مثلاً قديش إنت بتقدر تستمر على هذا. في شباب بقولك لأ خلص أنا هيك والحمد لله. بس في شباب إنه لحد الألف شيكل لأ إذا ألفين وبعد الألفين ممكن يوصل من ناحية مادية، ومن ناحية [مهارات] مثلاً بقولك أنا لا في "سكيلز" [مهارات] جديدة عم تدخل، ليش ما أكتسبها. فهون بتصفي نوعيات من الناس ...".

فداء أيضاً تقول إنها لن تقبل بزواج يتم بطريقة تقليدية، سواء عن طريق العائلة أم عن طريق أحد الأصدقاء: "بجوز اللي أخرني عن الموضوع إنه أنا ما بحب الزواج التقليدي أنا ضد الزواج التقليدي. يعني بقابلهم بس عشان أقنع اللي حوالي إني شفته". أما شروطها لمن ترغب في الزواج منه: "إنه متعلم، ويكون مقبول شكلاً، شغلة ثانية إنه ما يكون متجوز من قبل...، هلأ أهم شغلة بعد هاي المرحلة علاقاته مع الناس، وهيك يعني وتشوفيه كيف بحكي معاك، ايش الشغلات اللي هو بركز عليها".

وفداء لا تريد علاقة يقوم فيها الطرف الآخر بفرض مخططاته على حياتها. وكمثال على ذلك تقول عن تجربتها مع شاب تقدم لخطبتها:

"بتعرفي هدول كيف بحبوا التعلم أو بتعلموا لفترات طويلة، وبصيروا يحبوا القراءة والهدوء وأنا بعتبر حالي لسه صغيرة على هاي الشغلات ... ما بقدر أنحبس في البيت مع واحد بس إني عشان أساعده إنه يكمل ويدرس ... أو إنه إنت بتكملي دراستك وبجوز إنت ما تحبي تكملي دراستك. يعني أنا بدي أعيش حياتي الاجتماعية ... يعني ما بدي أكون محكومة فيه طول الوقت. هو بخطط لحياته مثلاً إنه بده يقعد سنتين في ألمانيا هيك مخطط، فيعني اللي بدها تتزوجه بدها تقبل باللي هو مخططه، يعني أنا محكومة بحياته. صرت بعدين لما بلش يحكي صار يحكي عن الشغلات اللي هو بحبها ...".

ومع اقترابها من الثلاثين عاما تواجه فداء حالات من المعجبين الأصغر سناً منها. بالنسبة لها الفرق العمري مشكلة، وخصوصاً إذا كانت المرأة هي الأكبر عمراً: "يعني ناس أصغر مني هاي ظاهرة عنجد (فعلاً) بعاني منها، حتى صعب تقنعيهم إنه فرق السن مشكلة كمان أنا بجوز هلأ مش مبين علي بس كمان سنتين ثلاث ببين (يظهر) علي، ما بحب آخد حدا أصغر مني".

مع اقتراب انتهائها من رسالة الماجستير وعدم تمكنها من إيجاد عمل، تقول هند أنها تفكر جديا في السفر إلى بريطانيا، حيث تعيش شقيقتها الكبرى. ليس لديها، حسب ما

تقول، خطط محددة عما ستفعله إذا سافرت إلى بريطانيا. فهي قد تبحث عن عمل، وفي الوقت نفسه ستحاول الحصول على منحة لتدرس من أجل درجة الدكتوراه. وتقول إنها قد تسافر دون أن تضمن أياً منهما (العمل أو الدراسة): "يعني مش شرط أني أشتغل. ممكن أدرس أو أعمل أي شي، المهم أشوف بس تغيير، يعني يكتسب الواحد "سكيلز" (مهارات) جديدة برة مش شرط أنه يشتغل".

يبدو أن رغبة هند في السفر إلى الخارج نابعة إلى حد كبير من الإحباط الذي تشعر به بسبب فشلها في إيجاد وظيفة. وهي لا تزال متأرجحة بين رغبتها في ضمان المستقبل وبين رغبتها في البقاء وارتباطها في البلد: "يعني أنا حاطة في بالي إنه أروح لأكمن (لبضعة) شهر حسب الوضع يعني هناك، لأني مش مستوعبة إني أبعد عن البلد مع أني ماخذة قرار بهذا المجال بس إنه شوي (بعض الشيء) عندي ارتباطات كبيرة في البلد هون".

"باب الشمس" رؤية نسوية

رولا أبو دحو

"سيأتي وقتٌ يكونُ فيه الحاضرُ ذكرى، وسيتحدثُ الناسُ عن عصرٍ عظيم، وعن أبطالٍ مجهولين صنعوا التاريخ، وليكن معلوماً أنهم ما كانوا أبطالاً مجهولينَ، بل بشرٌ لهم أسماءٌ وقسماتٌ وتطلعاتٌ وآمال، وأن عذاباتِ أصغر هؤلاء ما كانت أقلَّ من عذاباتِ من خُلِّدَتْ أسماؤُهم".

يوليوس فوتشيك

ينطبق ما كتبه المناضل التشيكي يوليوس فوتشيك، إلى حد كبير، مع هذا السيل الذي لا ينقطع من شخوص رواية باب الشمس للأديب إلياس خوري، فعلى الرغم مما ألحقته الهزيمة وفقدان الوطن والأرض في العام ١٩٤٨، فإن الآلاف من هؤلاء الفلسطينيين ظلوا ينبضون بالحياة ويصارعون بإرادة قوية من أجل البقاء.

وقبل الخوض أكثر في تفاصيل الرواية والفيلم، من الضروري التوضيح أن هذه المقالة، لا تعدو كونها محاولة لرؤية الفيلم من منظور نسوي، وليس نقده بالمعنى الأدبي والفني، فلست بناقدة أدبية أو فنية. وإذا كان النقد يشترط الذائقة الأدبية، فإن هذه بالنهاية يمكن أن تتيسر للناقد ولغيره، أما النقد فلا يقف عند حدودها، إذ تعوزه أدوات ليكون قادراً على استخدام مبضع نقده.

عندما قرأت الرواية، وشاهدت كيف تحولت شخوصها عبر الورق، إلى شخوص حية تعبر بالكلمات والحركة، وتسندها الإضاءة والمؤثرات والصوت وغيرها، استفزت اهتمامي الشخوص النسائية، وتحديداً الشخصيات الثلاث: أم حسن، شمس، ونهيلة، وودت أن أكتب عنهن ولهن.

لقد بات من المعروف أن كاتب النص، ينتهي دوره حالماً يلتقط أول قارئ لنصه. حينها يعود النص ليتشكل من خلال القراءة وخلفياتها الفكرية والجمالية، ليصح معها اعتبار كل قارئ منتج آخر للنص غير الكاتب الأصلي. إن إعادة الخلق هذه للنص، مهما بلغت من المهارة الفنية، هي ما يتسلح بها أمثالي من المتذوقين غير الناقدين، إذا ما بدا وكأنها عملية خلق مجافية لما يظهر في النص الأصلي، فبالنهاية قراءتي تمنحني حق الخلق!

مأساة اللجوء من زاوية أخرى

كثيرة هي الروايات الفلسطينية التي أرّخت لمأساة فقد الوطن، وأعمال كنفاني وجبرا وحبيبي تظل علامة فارقة هنا. وكثيرة هي أيضاً الأفلام التي صورت هذا الرحيل واللجوء، وما صحبه من تشتيت للعائلة صغيرها وكبيرها، ولكن أن تجتمع في رواية وفيلم مقتبس عنها تلك الوحدة المنسجمة، وكأننا في الفيلم نقرأ الكلمات ونعيش الشخصيات، فهذا يندر. نتذكر – مثلاً– محاولات قاسم حول في تحويل روايتي رجال في الشمس وعائد إلى حيفا لكنفاني إلى أفلام، وكيف كنا نمتعض من عدم القدرة على التقاط مكنونات الشخصيات الروائية سينمائياً، فنعذر للكاتب أنه حاول قبل غيره!! ولكن مع باب الشمس كانت تجربة مختلفة إلى درجة أن الروائي إلياس خوري، كتب عن الفيلم ومدى انسجامه مع رؤيته الشخصية للرواية: "الروائيون يتلعثمون في العادة أمام أعمالهم حين تتحول أفلاماً، ويفضلون السكوت والاستماع إلى آراء الآخرين، وأنا لست استثناء. لكن شروط الكتابة الروائية، وكيفية كتابة السيناريو وتحوله فيلماً، يستحقان لحظة من التأمل، أستطيع من خلالها أن أستعيد تلك المناخات الساحرة التي استولت عليَّ، جاعلة مني "أسيراً عاشقاً" ... معهما،[١] صرت قارئاً لروايتي، اكتشفها، وأفاجأ بمنعطفاتها وتلاوينها، واستمتع بالنظر إليها، وقد انعكست في مرايا العيون، ودخلت في مخاض الصورة".[٢]

بهذا يشاكس إلياس خوري الروائيين الذين يمتنعون على العموم عن الرضا عن أفلام رواياتهم، ومنهم تحديداً الروائي السوري حنا مينا الذي أعلن أنه لا يحب أن يرى أعماله في السينما على الرغم من موافقته على تحويلها لأفلام.

فاللغة السينمائية كانت تعامل تاريخياً باعتبارها أضيق مساحة للتعبير من لغة الكتابة، ولكن يبدو أن يسري نصر الله يجعلنا نعيد النظر في هذا الحكم. لقد بلغ المخرج من الحنكة ما مكنه من تحريك كل عوامل القوة الكامنة في الفيلم (التمثيل، والحركة، والإضاءة، والصوت، ...)، بحيث جعلنا نقرأ الرواية سينمائياً وكأننا نقرأها نصاً مكتوباً.

الجسد اختزال للماضي والحاضر

تشكل باب الشمس في فلسطين المحتلة، ومستشفى الجليل في مخيم شاتيلا بلبنان، المسرح الأساسي للفيلم– الرواية، حيث هناك تتلخص وتتفكك العلاقات وتتجسد في آن معاً، وتعاد صياغتها بين الهزائم والحروب المختلفة مع العدو الصهيوني وما بينهما من شعب بأكمله يعيش مأساته الإنسانية والتاريخية، بين أن يصبح لاجئاً في وطنه ويتسلل

كاللص لرؤية زوجته، أو يتحول إلى لاجئ في مخيمات لبنان ويصبح جزءاً من علنية الثورة وأزماتها معاً، أما الجسد فهو تكثيف لكل العلاقات والأحداث، بين جسد يونس على سرير في مستشفى الجليل، وبين العودة للذاكرة، وبين باب الشمس حيث العلاقة الإنسانية بين يونس ونهيلة كزوجين وحبيبين، تتفتح أبواب على الذاكرة وعلى مأساة الفلسطينيين، وبين الجسدين هنا وهناك تتراوح وتتلخص وتبلغ الحبكة ذروتها، بين آخر لقاء مع نهيلة، حيث تعلن تمردها على ما مضى، وحقها في أن يعترف بنضالها، وبين موت يونس وخروج المقاومة من بيروت. ليأخذ الجسد بعده الثالث أيضاً في العلاقة بين شمس والدكتور خليل. وإن كان الجسد من المحرمات في مجتمع ما زال يصفق للقتل على خلفية ما يسمى بشرف العائلة، يأتي الفيلم- الرواية ليعطيه بعداً يعبر عن مأساة الفلسطيني وهجرته وأزماته وهزائمه وانتصاراته عبر تاريخ اللجوء الطويل. يتحول الجسد من مكان تمارس عليه ثقافة القمع والعار، لمكان يمارس حقه بالتمرد والثورة والصمود في الوطن، وسنأتي على ذكر المزيد في سياق المقال.

النساء محور رواية التهجير

تأتي الكلمات الأخيرة لنهيلة في الفيلم، وهو اللقاء الأخير بيونس في باب الشمس بعد سنوات طويلة من لقاءات متفرقة، حيث بقيت نهيلة في فلسطين وتحولت إلى لاجئة في قرية أخرى من الجليل، وبين يونس الذي التحق بالثورة ويعود متسللاً بين حين وآخر لملاقاة نهيلة، ولزرع جنين جديد في رحمها، وبين صمتها الطويل لسنوات وصمودها وحفاظها على العائلة وبقائها وتماسكها، تأتي الكلمات لتقطع سنوات الصمت، وتعلن أنه آن الأوان أن تتحدث وتبدأ تمردها العلني برفضها شرب كاس العرق مع يونس: "لم أكن أحبه أبداً، ولكن كنت أشربه من أجلك، اليوم أنت عليك الصمت وأنا سأتكلم، عن كل السنين التي مرت ...". هكذا تنهي نهيلة ثورتها الصامتة معلنة أن الصمود في الوطن كان له استحقاقاته، وأنها -كامرأة- دفعت القسم الأكبر فيه، لتقلب الحقائق ولتحول ما اعتبر يوماً دوراً تقليدياً للنساء، إلى دور مقاوم، وقد يكون هذا ما يصطلح عليه في الأوساط النسوية بالأمومة المقاومة، لم تحتج للكثير من الأيديولوجيا والأفكار الثورية المخبأة في جعبة زوجها يونس، لتدرك عمق وأهمية صمودها ومقاومتها تلك السنوات الطويلة.

بين المقاومة الصامتة لنهيلة وتمرد شمس العلني خيط لا صلة له بالجيل بالمعنى البيولوجي (العمر) الصرف، بل بالتواصل الدرامي لتجربتي الهجرة واللجوء والشتات، تواصل تفارق في آليات المواجهة، ربما لاختلاف الظرف، وما يتركه من حيز للمرأة

وتأثيرات على الوعي وعلى الحراك السياسي.

نهيلة تصمد في الموقعتين: موقعة التحقيق مع رجال المخابرات الصهيونية، وموقعة الصمود في الوطن وملاقاة يونس الفدائي وزوجها، تالياً، سراً. الموقعة الأولى تبدو جزئية جداً أمام سطوة الموقعة الثانية، ولكن لنتمعن دلالاتها الكبيرة: حملت نهيلة من يونس سراً، وفي العرف اللقب عاهرة، وبلغة الفيلم شر ... سيلتصق بها حتماً، فلا حمل خارج الزواج في النظام الثقافي والديني السائد. أما المحقق الصهيوني، فاعتقد أن هذا مدخله، فالحمل مدخل لتأكيد علاقتها السرية بيونس المتسلل إليها من معاقل الفدائيين في لبنان. تذاكى المحقق المستشرق أو المتعرب واعتقد أنه بفهمه للعقلية والتقاليد العربية أوقعها في شر حملها. قطعت نهيلة، كما جهينة في التاريخ، قول كل قائل، فقالت له ببساطة، أوصدت الباب في وجه أسئلته: أنا شر....!!! في هذا تبدو نهيلة تهيل التراب على فهم ساذج للنظام الاجتماعي السائد، فصوتها حين أعلنت ذلك كان فيه من الأنفة والكبرياء ما يبدو غريباً على أي متلبسة في حمل دون زواج. وشاركها أهل القرية الواثقون منها هذه الأنفة بالزغاريد لها.

في الموقعة الثانية كانت تبدو (أم تقليدية) لمن يسارع فيطعن بالدور الأمومي بتصنيفه تحت هذا المسمى. ربت أبناءها داخل الوطن، وحافظت على علاقتها سرية مع زوجها. إن ما يبدو "تقليدياً" هنا، لا يعدو قشرة تخفي وراءها سلوكاً شعبياً يكتنز الصبر على حوادث الزمن، فيغدو صموداً بامتياز، سجلته امرأة "تقليدية".

والتاريخ الذي يصور بطولات الرجل دون أن يلتفت للمرأة، والرجل هو كاتبه على أية حال، وضعت نهيلة حداً له عندما قالت ليونس أواخر الفيلم: كنت دائماً تتحدث إلي، والآن حان دوري للحديث! ونهيلة لا تتحدث فحسب، بل تمارس ما تحدثت به منذ عشرات السنين بصمودها وتربية أبنائها داخل الوطن، وتحديها للاحتلال.

شمس ... زمن آخر

بالتوازي مع نهيلة كانت شمس بؤرة تناقضات الثورة المسلحة. من جهة، حملت السلاح كامرأة، في دلالة أصبحت أكيدة على أن الثورة لعبت دوراً في تحريك الراكد في مكانة المرأة في الحقل العام، ولكن، من جهة ثانية، فالثورة لم تدخل في اشتباك مفتوح (بحجة الأولوية الوطنية) مع النظام الاجتماعي، الديني والثقافي السائد، مستغلة سطوتها وجماهيريتها لتغير بعض من مرتكزات هذا النظام، وبخاصة موقفه الرجعي من المرأة، فالنتيجة أن دفعت شمس حياتها وتوزع دمها على أكثر من عائلة مقاتلة!

بين نهيلة وشمس خيط ناظم مستحكم بالتناقض. الأولى وعبر تجربتها، مزجت بين دورها التقليدي كأم وحوَّرته باتجاه الصمود في الوطن، فيما الثانية صمدت في معارك القتال ودفعت حياتها ثمناً لحبها. الأولى قالت ليونس: حان دوري للكلام، فيما الثانية فعلت ولم تتكلم: أحبت ودفعت ثمن حبها.

أما أم حسن فكانت بتقديري نموذجاً مصاغاً بتقليدية عالية كثيراً ما يتكرر في الروايات الفلسطينية والعربية حتى بات وصفة جاهزة لمن يعشق القولبة: هي الأم، هي الوطن، هي الأرض. لدى كنفاني هناك أم سعد، ولدى سحر خليفة هناك الحاجة زكية في باب الساحة وقس على ذلك. أعتقد أن صورة أم حسن هي الأضعف بين الشخصيات النسوية، فكأنها لا تعيش تناقضاتها، ما يجعلها تنتمي إلى عالم لا نعيشه. وعلى الرغم من هذا الضعف المقارن بتمرد شمس أو مقاومة نهيلة، قد تكون أم حسن هي الصورة التي وددنا لو كنا على شاكلتها في تحمِّل الهزيمة، والصمود أمامها، وقد نكون دائماً بحاجة لها في رواياتنا المختلفة لتعبر عن توازن ما في عالم تسوده الهزائم المستمرة.

الفيلم مليء بالتفاعلات الإنسانية القوية، ويشكل ملحمة حقيقة للتاريخ الفلسطيني، لا كما تسجله كتب التاريخ الجامدة، أو خطابات السياسة والبطولة، بل كما عاشه الفلسطيني كإنسان أولاً، وكمناضل وثوري ثانياً، لقد استطاع الفيلم التعبير عن هذا الخيط الدقيق والقوي ما بين الثوري والإنسان، وما بين الفرد والجماعة، وقد سارع بعكس التيار، وكسر ما هو مألوف بكتابة التاريخ وحفظه عبر تسجيل بطولة الرجال. باب الشمس قلب المعادلة، ليشدنا إليها، فنقترب من شخوصها ومن مأساة لشعب الفلسطيني لا عبر بطولات القيادة ومكاتب منظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها فقط، ولكن عبر مقاومة نهيلة، وتمرد شمس.

وعودة على ذي بدء، فالتاريخ تصنعه أيضاً النساء، وعذابات الآلاف ممن لا يذكرهم التاريخ، وهي عذابات وبطولات لا تقل عمَّن خُلدِّت أسماؤهم.

الهوامش:

[١] المقصود مخرج الفيلم يسري نصر الله وكاتب السيناريو محمد سويد.

[٢] إلياس خوري، عن فيلم باب الشمس، مقالة صدرت في ملحق جريدة النهار اللبنانية، وتم عرضها على الموقع الإلكتروني للجان إحياء المجتمع المدني في سوريا – المواطن: www.mowaten.org.